

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة المساعد بجامعة القاهرة

# الفيلسوف المفترى عليه أبناؤك تشكك

تأليف

دكتور محمود قاسم

دكتوراه الدولة في الفلسفة  
من السربون برتبة الشرف الأولى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد زويل

القاهرة

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقيات

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة المساعد بجامعة القاهرة

# الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد

تأليف

دكتور محمود قاسم

دكتوراه الدولة في الفلسفة  
من السربون برتبة الشرف الأولى

الناشر  
مكتبة الأنجلو المصرية  
١٦٥ شارع محمد زويد  
القاهرة



# مکتبۃ لسان العرب

أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)



مطبعة مخيمر  
٢٩ شارع ايجيش ت ٤٧١٩٣

# الفصل الأول

## تمهيد تاريخي

عرف العرب في بلاد الأندلس عصورا من المجد والقوة في أيام الدولة الأموية ، وامتدت فتوحهم في أوربا وتوطد لهم الملك ورسخت الحضارة الإسلامية في أقصى المغرب . ولما سقطت دولة الأمويين في الشرق استطاع عبد الرحمن الداخل الفرار إلى المغرب والعبور إلى جزيرة الأندلس فوحد كلمة المسلمين ووقف في وجه شارلمان ونشر السلام ربوعه على البلاد ، فازدهرت حضارتها ، وتجمت عظمها ، وقدر لبي أمية أن يحكموها ثلاثة قرون تقريبا . واسكن دب الوهن والانحلال إلى دولتهم بموت هشام المعتمد بالله آخر ملوكهم . وكان ذلك في سنة ٤٢٧ هجرية . فاستولى على السلطان أحد دهاة السياسة وزيد به جهور بن محمد بن جهور وكنيته أبو الحزم . وقد بلغ من دهائه وحسن سياسته أنه أدار شئون الدولة بمهارة وحذق جديرين بالاعجاب ؛ إذ أظهر في أثناء ذلك كله تقشفا وعزوفا عن الملك والرغبة في خدمة جماعة المسلمين لوجه الله ومن أجل الحق . ومهما يكن من حقيقة أمره فقد استطاعت بلاد الأندلس أن تنعم بالهدوء والاستقرار طيلة حكمه وحكم ابنه أبي الوليد بن جهور . فلما مات هذا الأمير في سنة ٤٤٣ هجرية اضطربت حال الأندلس ، وتفرقت كلمة أهلها ، وظهر فيها نظام سياسي جديد يعرف بنظام ملوك الطوائف ، وهو يشبه إلى حد كبير نظام الإقطاع الذي كان سائدا عند الأوربيين في ذلك الحين أي في العصور الوسطى . فغلب على كل إقليم أو مدينة من شبه الجزيرة متغلب ، وتلقب باسم الخليفة مادعا إلى سخرية أبي الحسين بن رشيق من هذه الألقاب الضخمة لحكام المسلمين الذين عجزوا عن الوقوف أمام سيل الفرنجة الزاحف من الشمال لاسترداد بلادهم من أيدي العرب . وفي ذلك يقول :

مما يزهدي في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتمد  
ألقاب مملكة في غير موضعها كالحريجي استنفاخاً صوارة الأسد  
لكن الله أراد بالمسلمين خيراً عندما فكر أحد ملوك الطوائف في طلب  
العون من أمير شمال أفريقية . ذلك أن الـعمد ملك أشبيلية ذهب إلى مراکش  
سنة ٤٧٩ هـ ، بعد أن اشتد البلاء ، وانقطع الرجاء من صد الفرنجة ، واستنجد  
بالأمير يوسف بن تاشفين ، منشىء دولة المرابطين ، يستصرخه على الروم الذين كانوا  
ينكفون بالمدن الإسلامية يقتلون رجالها ويسبون نساءها ويغربون ديارها ويهلكون  
حراثها ونسلها . فلقبه ابن تاشفين لقاء حسناً ، وأجابته إلى ما يريد من رجال  
وخيل لغزو العدو ؛ بل ذهب الأمير في نجاته لمسلمي الأندلس إلى ما هو أكثر  
من ذلك ، فقد وعد الـعمد أنه سيأتي بنفسه لنصرتهم . ولكن لم تكن اللزوم بالباعث  
الوحيد على بذل هذا الوعد . وإنما كان هناك باعث خفي آخر حركه إليه . ذلك  
أنه كان يضمر في نفسه أمراً أكثر من نجاتهم . فعبر مضيق جبل طارق حوالى  
منتصف سنة ٤٧٩ هـ ، والتقى بألفونس ملك الفرنجة الذى كان مصدر فزع لأمرأه  
الطوائف يغير عليهم ويحجرهم على دفع الجزية . وكان اللقاء في الزلاقة عام ٤٨٠ هجرية .  
وفي هذه اللقوة هزم ألفونس ورجاله هزيمة ساحقة فانكشفت التمة ، وهدأت  
نفوس المسلمين . وعاد ابن تاشفين إلى شمال أفريقية ، بعد أن جال قليلاً في بعض  
بلاد الأندلس ، فأظهر له أهلها فرحهم بنصره وتينهم بطالعه واعترافهم  
بالجليل . كذلك رأى كيف أكثروا له من الدعاء في مساجدهم وأذاعوا الثناء  
عليه في جزيرتهم « ممازاده - كما يقول صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب -  
طمعاً فيها . وذلك أن الأندلس كانت قبله يصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها ،  
وأخذهم الأتاوة من ملوكها قاطبة . » وزاده حرصاً على ضم هذه البلاد إلى ملكه  
ما سمعه من أحد منافسى الـعمد وخصومه من وشاية أوغرت عليه صدره .  
لكن ابن تاشفين لم يحقق آماله دفعة واحدة ، أو على عجل ؛ إذ مرت به ثلاث  
سنوات قبل أن تورق فتنة على الـعمد أمير أشبيلية في عام أربع مائة وثلاث وثمانين

هجرية . فاضطرت جيوش المرابطين أن تعود مرة أخرى ، لكي تغلب على بلاد الأندلس ، ولكي تشرع في الاستيلاء على ممالكها ، أو بعبارة أكثر دقة على مدنها مملكة أو مدينة تلو أخرى . وأخذت هذه المدن تنساقط كأوراق الخريف حتى خضعت شبه الجزيرة لابن تاشفين . ولما توحدت كلمة المسلمين بانتصاره على أمراءهم المتناحرين للتخاذلين اتجه بهم إلى محاربة الفرنجة وحماية الثغور . وفي أثناء ذلك كله كان لا ينفك يؤكد ولا يعمل القول بأنه لم يأت إلى ديارهم إلا لكي ينقذهم من أيدي الروم بسبب غفلة ملوكهم وتنافرهم وتدابيرهم ، وانصرافهم عن مجاهدة العدو ورفع لواء الإسلام إلى الشراب والسباع واللهو والمجون .

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ ولى الأمر بعده ابنه علي بن يوسف . وفي إبان حكمه ظهر نفوذ طبقة الفقهاء وقويت شوكتهم ولاحت بوادر طغيانهم . ذلك أن الأمير كان من الزهاد الورعين للتبتلين يقرب إليه أهل الفقه ، وآثر بعطفه رجال الدين . وأفسح لهم في مجالسه . وأقبل عليهم يرعاهم ويستمع إلى نصائحهم . ولم يعدم هؤلاء أن يفيدوا من عطف الأمير عليهم وتقديره لهم ، فبدأوا يوطدون نفوذهم في مملكته . وبلغ من شدة نفوذهم ومنزلتهم عنده أنه كان لا يكاد يقطع برأى في أمر من الأمور الخطيرة أو التافهة إلا إذا شاورهم واستمع لنصيحهم فأجازوا رأيه أو جندوا له رأيهم ؛ بل بلغ من شدة تأثره بأرائهم أنه كان يطلب إلى قضائه وعملائه الذين كان يوفدهم إلى المدن ألا يقطعوا برأى ولا يفصلوا في أمر ، ولو كان من أتفه الأمور ، إلا إذا وافق على ما يرى أربعة من الفقهاء . وعلى هذا النحو قدر لهذه الطائفة أن تجمع في يدها السلطة الحقيقية ، فأصبح الفقهاء مقصداً وملجأً لجميع الناس ولدوى الحاجات والمصالح بصفة خاصة . لكن هؤلاء الفقهاء الذين اطمان الأمير إلى عدلهم ونزاهتهم لم ينسوا أمر دنياهم ؛ إذ أرادوا أن يتمتعوا بالطيبات ، ففعلوا في تحقيقها ، وانزلوا يطلبون الشراء حتى اتسعت أرزاقهم أو مكاسبهم . ولم يكن بد أن تتلوث مياه

هذا الرزق كلما تضخمت وكثرت روافدها . وبدأ هؤلاء في أعين الأدكياة وذوى  
الفتنة بمظهر جماعة من المناققين العتاه البغاة الذين يتخذون الدين تجارة ومغنا .  
وفي ذلك يقول أبو جعفر بن محمد يهجو قاضى قرطبة فى ذلك الحين :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم      كالذئب أوج فى الظلام العاتم  
فلكتموا الدنيا بمنهب مالك      وقسمتموا الأموال باين القاسم

وليس يبعد لدى العقل أن يكون الفقه سيلا فى فساد بعض الفقهاء ، وقلة  
ورعهم وتكالبهم على الدنيا؛ «بل أكثر الفقهاء هكذا نجدهم» ، كما يقول أبو الوليد  
ابن رشد ، مع أن علومهم ودراسهم تقتضى أن يكونوا أهل خلق ودين . وليس  
لأحد أن يرمى ابن رشد بالتطرف فى تقده للفقهاء ؛ إذ من المشاهد فى كل  
عصر ، وبخاصة فى عصور الانهيار والانحلال التى يسود فيها النفاق الاجتماعى  
بأجلى مظاهره ، تقول من المشاهد فى هذه العصور أن يجنح رجال الكهنوت إلى  
جعل الدين وسيلة إلى الكسب . وبما يزيد فى جسامه وزرهم أنهم قد ينصبون أنفسهم  
رجال كهنوت فى دين لا تتفق طبيعته وروحه مع وجود مثل هذه الطائفة .

وربما كانت دولة المرابطين فى حاجة إلى عون الفقهاء ومناصرتهم . وربما كان هذا  
هو السبب فى أنها أفسحت لهم صدرها وأغمضت عينها وتركت لهم مجالاً يجولون فيه  
ويصيرون منه خيرا ورزقا . لكن ذلك كله لم يخن عن دولة المرابطين شيئا ؛ إذ تنكر  
لها أهل الأندلس ، وربما الفقهاء أيضا ، عندما هزمت جيوشها أمام الفرنجة فى  
بلنسية . فبدأت تضطرب أحوال المرابطين فى الجزيرة ابتداء من القرن السادس الهجرى .  
ونعتقد أن السبب فى تدهورهم وركود ربحهم وانصراف عامة الناس عن التشيع لهم  
يرجع إلى أنهم قد أصيبوا بما أصيب به قوم خلوا من قبلهم . ذلك أنهم لم يسلموا بما  
وقع فيه ملوك الطوائف من استبداد كل عظيم من عظمائهم بإقليم أو مدينة ، ومن  
الركون إلى الاستبداد والظفیان ، وترك تصريف أمور الدولة للنساء .

وفي أثناء ذلك كله كان أميرهم علي بن يوسف يزداد ضعفاً فينقطع للعبادة والزهد والتبتل ، كأنما يعتقد أن العزلة والخلوة والتواكل أشد فتكاً بالعدو من حد السيف وكثرة الحيل . ومهما يكن من أمره فقد أهمل أمر الرعية لولادة لاهم لكل واحد منهم سوى أن يستزيد من الترف وأن يفتن في أساليب المتعة واللهو . فكان هذا إيذاناً بانقضاء أمر تلك الدولة التي فسق مترفوها . وطبيعي بعد ذلك ألا تجد العامة في الأندلس ما يدعواها أو يحفزها إلى الولاء للمرابطين . ولذا تنكرت لهم ، وتحاذلت عن التحزب لهم . وصحب ذلك أن تحاذل المسلمون ولاية ورعية عن الدفاع عن أنفسهم . واستولى النصارى دون مشقة أو عناء كبير على كثير من الثغور التي كانت تجاورهم ، ولم يستطع أهل الأندلس أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً .

وبما عجل بزوال ملك المرابطين ظهور دعوة جديدة في شمال أفريقية ، على يد محمد بن عبد الله بن تومرت بمدينة سوس ، سنة خمسمائة وخمس عشرة هجرية . وقد ادعى ابن تومرت أنه المهدي المنتظر ، وصدق كثير من الناس دعواه . فاستطاع أن يجمع حشداً كبيراً من الأتباع وجليهم من المصامدة . أما دعوته فكانت تلخص في اتباع مذهب الأشاعرة في معظم المسائل الدينية . ويقال إنه لما ذهب إلى الشام لقي فيها الإمام أبا حامد الغزالي في أثناء تلك الفترة التي اعتزل فيها الناس وسلك فيها سبيل للتصوفة ، أي في تلك الفترة التي بدأت عندما غادر حجة الإسلام مدينة بغداد سنة ٤٨٨ هجرية والتي استمرت طيلة عشر سنين زار فيها بيت المقدس ومكة ومصر . وربما فسر لنا هذا اللقاء لماذا كان ابن تومرت من أنصار مذهب الأشاعرة . ذلك أن الإمام الغزالي كان أقرب إلى هذا المذهب منه إلى أي مذهب آخر ، على الرغم من غلبة نزعة التصوف عليه في الفترة الأخيرة من حياته .

ومهما يكن من شأن هذا اللقاء وآثاره فقد كتب لابن تومرت مجد عريض في بلاد المغرب ؛ إذ لحق به خلق كثير . وكان أظهر أتباعه رجل يسمى عبد المؤمن ابن علي . ويقال أيضاً إن عبد المؤمن هذا كان في طريقه إلى الشرق لكي يطلب



العلم على أئمته ، فلقبه ابن تومرت فأقنمه بالألا بكل رحلته ، وبأن يعود معه لكي يصحبه في دعوته .

ودانت له بالطاعة جاعة للسامدة طاعة عمياء ، وآثروه على أنفسهم وأبنائهم ؛ إذ يقول عبد الواحد المراكشي ، وهو خير من يؤرخ لهذا العصر ، إن ابن تومرت لو طلب إلى أحدهم أن يقتل أباه أو أخاه لفعل . ثم جهز هذ المهدي المنتظر جيشاً من هؤلاء الأتباع المخلصين الذين بلغوا أقصى حدود الإخلاص ، والذين يختلط لديهم الخماس بنوع من الهوس . وقد فرغ من إعداد هذا الجيش في سنة ٥١٧ هـ . ثم بدأ يهاجم في مراكش . لكن النصر أبي أن يكون حليفه في أول موقعة نازل فيها جيوش المرابطين . ومع ذلك فإن هذا الفشل اللبدئي لم يثن من عزمه عن معاودة النزال .

ولما مات ابن تومرت قام بالأمر من بعده تلميذه عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٣٤ هـ . فاستطاع أن يبسط سلطانه على مراكش بعد موت علي بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٣٧ هـ .

وهكذا نشأت دولة للموحدين على أفاض ملك المرابطين . وكانت بلاد الأندلس في ذلك الحين ، التي تحضر فيه دولة إسلامية لتحل مكانها دولة أخرى ، في حالة يرثى لها . فقد انتهز القرنيحة هذا الوقت العصيب الذي كان التاريخ يتمخض فيه عن دولة جديدة لكي يزيدوا غاراتهم عنفا على بلاد المسلمين من كل جانب . وتطلع أهل الجزيرة ، كمعادتهم منذ أن حل الوهن بهم ، إلى عون خارجي يأتيهم عبر مضيق جبل طارق ، حتى يكشف عنهم ما هم فيه من غمة وكرب عظيمين . فوجدوا دولة فنية قد احتلت مكان دولة هرمة اتقطع خلفاؤها للزهد ، وانصرفوا عن تجمدة إخوانهم في الدين . ومن ثم اتجهت بلاد الأندلس تستنجد بدولة للموحدين ، وتطلب عوناً لدى أميرها عبد المؤمن . فكان هذا النداء حافظاً له على التفكير في فتحها وإغاثة أهلها . فعبير المضيق وبنى مدينة كبيرة وأقبل عليه كبار أهل الأندلس

ووجوهها يبايعونه ، ودانت له أكثر المدن بالطاعة . فولى عليها نقرأ من عشيرته ، ثم عاد إلى مراکش ، بعد أن ترك بالجزيرة كثيراً من جنده وخيله .  
وإنما عاد إلى شمال أفريقيا لكي يكمل ما عهد به إلى جنده في بلاد الأندلس ، أي لكي يرفع الدل عن بني ملته . ذلك أنه أتجه إلى تونس وبعض المدن الأخرى يفتحها ، وهي تلك المدن التي كانت قد سقطت من قبل في يد ملوك الروم وأمراءها . واستطاع أن يطهر منهم مدينة قابس . ثم فتح طرابلس الغرب فتم له السلطان على المغرب بأسره ، ابتداء من طرابلس حتى سوس الأقصى . وأصبحت دولة للموحدين دولة المغرب العظمى ، كما كانت حال دولة بني أمية في الأندلس .

ومات عبد المؤمن بعد هذه الفتوح الكبرى في عام ٥٥٨ هجرية ، فخلفه بعده نبيه أبو يعقوب يوسف . وكان أحفظ الناس للغة العرب ، ومعرفة بمسائل النحو ، وشغفاً بالعلم . ثم تآقت نفسه إلى الاطلاع على آراء الفلاسفة وكتبهم « فجمع كثيراً من أجزاءها — كما يقول عبد الواحد المراكشي — وبدأ من ذلك بعلم الطب . ثم نخطى ذلك إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي . . . ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس وللقرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك المغرب . وكان ممن صحبه من العلماء المتفنيين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين . . . وكان حرصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً . هذا على اتساع في العلوم الإسلامية . وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له . بلغنى أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ، ليلاً ونهاراً . »

وقد حرص ابن طفيل من جانبه على أن يساعد مولاة وولى نعمته وصديقه على تزيين مجلسه بأفاضل العلماء وكبار المفكرين الذين كان لا ينفك يبحث عنهم ويستدعيهم من مختلف الأمصار والأقطار ، ويلج عليهم في قبول اللؤلؤ ببلاد أمير المؤمنين .

وسرى كيف كانت لابن طفيل اليد الطولى فى العثور على ابن رشد وتقدمه إلى الأمير ، مما كان سبباً فى بزوغ نجم فيلسوف قرطبة وشهرته ونباهة قدره وعلو منزلته فى دولة الموحدين .

ولما مات أبويعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠ هـ [ ١١٨٤ م ] فى أثناء غزوه وحصاره لمدينة « سنترين » التى تقع على نهر التاج انتقل ملكه من بعده إلى ابنه أبى يوسف . وقد مال الأمير الجديد إلى الزهد والتقشف كما فعل قبله على بن يوسف آخر أمراء المرابطين . فأظهر كراهيته ونفوره من الفلسفة وسلك مسلك التصوف وقرب إليه أهل الحديث والصالحين . لكنه حارب الفقهاء وأمر بأحراق كتب مالك ، وطلب إلى الناس أن يتركوا الاشتغال بعلم الكلام وبناتشة العقائد ؛ لأن ذلك يفضى بهم إلى زعزعة إيمانهم وينتهى بهم إلى الانقسام إلى فرق متناجزة متدبرة لاتبني الحق بقدر ما تستطيع اللجاج والمهارة والمحاكمة . وتوعد بعد ذلك من يخالف أمره بالعقوبة الصارمة الرادعة . وهذا هو السبب فى أن الناس انصرفوا عن الفلسفة والكلام والجدل ، وأخذوا يدرسون الأحاديث . وتبع ذلك أن غلبت موجة أهل الظاهر فى بلاد المغرب وجزيرة الأندلس . ويقال إنه حقق بهذا المسلك رغبة أبيه وجده وإن كانا قد تظاهرا بأخفاء هذه الرغبة فى أثناء حكمهما .

ولم يكن أبو يوسف ، رغم تصوفه وزهده ، ضعيف الجانب خائر العزم لا يكاد يدفع عن دولته ؛ بل كان على عكس ذلك قويا ذا بطش وبأس . ففي زمنه نكث ألفونس التاسع عهده ومواثيقه سنة ٥٩٠ هـ . وبدأ هذا العدو المخائل يغير على بلاد المسلمين ويعيث فى دساكرها وقرائها فساداً ، فعبث إليه أبو يوسف سنة ٥٩١ هـ ، والتقى به فى موقعة كبرى هى حفص الحديد وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً يذكرنا بصركير آخر أحرزه من قبل ابن تاشفين فى الزلاقة . ثم عاد أمير الموحدين إلى مراکش فى سنة ٥٩٤ هـ . وتوفى بها بعد سنة واحدة . وكانت وفاته فى شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ . وفى أيامه نزلت بابن رشد الفيلسوف العربى الكبير محنة وأى محنة ؛

إذ ثار عليه غوغاء الأندلس ، ورماه فقهاؤها بالكفر والإلحاد . فأحرقت كتبه ونفي إلى مدينة صغيرة بجوار قرطبة ، وكانت هذه المدينة خاصة باليهود مما دعا بعض خصوم ابن رشد من مؤرخي المسلمين ، والفرنجية أيضا ، إلى الشك في نسبه العربي؛ بل ذهب بعضهم إلى أن قال إنه من سلالة يهودية .

لكن هذه المحنة ما لبثت أن اتسعت . عندما بعث أبو يوسف يستدعى ابن رشد إلى مراكش . فلما وافاه فيه عفا عنه وأحسن إليه ورفع عنه تلك العمة كما سرى ذلك بعد قليل .

---

## الفصل الثاني

### ترجمة حياة ابن رشد

أسرته . أسانذته . صلته بابن طفيل .  
مكانته في دولة للموحدين أسباب محنته .

#### ١ - أسرته وأسانذته

عاصرت أسرة ابن رشد دولتي المرابطين والموحدين ، وكانت من أعرق الأسر وأكثرها شهرة ، فقد شغل أفرادها ، جيلا بعد جيلا ، أهم الوظائف في الدولة ، ونعى بها وظيفة القضاء . وبما يرشدنا إلى مكانة هذه الأسرة المحيطة أن وظيفة القضاء في قرطبة ، وهي عاصمة الأندلس ، كانت وقفاً على الجد والابن ثم ولها الحفيد ، وهو أبو الوليد بن رشد الفيلسوف .

وكان جد فيلسوفنا يسمى بكفيدة أبا الوليد محمد بن رشد . وكان قصباً درس مذهب مالك ، وهو المذهب الرسمي الذي كان يتبعه أهل الأندلس . وكانت له شهرته الكبرى في جميع مدن الجزيرة ؛ بل قد تجاوزتها إلى بلاد المغرب أيضاً . ذلك أن أمراء المرابطين كانوا يلوذون به يسترشدون برأيه في الأمور الدينية . ويقول « رينان » إن المكتبة الأهلية بباريس تضم مجلدا ضخماً يحتوي على تلك المسائل الفقهية التي كان يستشار فيها . وقد حوى هذا الكتاب فيها حوى فكرة جليلة سترها مفصلة فيما بعد أجمل تفصيل لدى حفيده ، وهي محاولة التوفيق بين الدين والعقل . فكان الحفيد أخذ على نفسه أن يتوسع في عرض آراء جده ، وأن يخرجها إلى الوجود في أروع صورة وأكملها ، كما حرص على تخليد مجد الأسرة بأن يبرع في الفقه وأن يمد نفسه لولاية القضاء التي شرف بها آباؤه وأجداده .

ولم يقف نشاط الجد عند حد الاشتغال بالمسائل الفقهية ؛ بل أتبع له أن يقوم

بدور سياسى هام جداً ، عند ما ذهب إلى ابن تاشفين سلطان مراکش يحمل إليه طاعة المقاطعات الأيبانية على إثر ثورة تم إخضاعها . وفي سنة خمسمائة وعشرين هجرية ، أى فى أواخر دولة المرابطين ، تأمر المسيحيون الذين كانوا يعيشون داخل البلاد الإسلامية بالأندلس مع ألفونس ملك الفرنجة ، ومهدوا أمامه السبيل إلى غزو الأندلس ، فاستطاع بفضل عيونهم وأنصارهم الذين انبثوا فى هذه البلاد أن يجتاح جزءاً من أرض المسلمين . فهرع أبو الوليد إلى مراکش يعرض على أمير المؤمنين حرج للموقف الذى خلقه أعداء البلاد من الداخل ، وأشار عليه أن يخلص أهل الأندلس من شرورهم وخياتهم بأن ينقل عدة آلاف من هؤلاء المسيحيين إلى سواحل أفريقيا .

أما ابنه أحمد وهو أبو فيلسوفنا فقد ولد فى السنوات الأخيرة من القرن الحامس الهجرى ونشأ نشأة أيه ، ونهج نهجه فى دراسته ، وانهى إلى أن ولى قضاء قرطبة مثله . وكانت وفاته فى سنة ٥٦٤ هـ ، أى بعد أن شهد بزوغ نجم ابنه ، واطمأن إلى أن خلفه سيكون خير خلف تعتمد عليه هذه الأسرة فى إذاعة ذكرها ورفع شأنها .

وهكذا كان فيلسوفنا القاضى أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشدأكثر أفراد الأسرة شهرة وأبقام ذكرها . وقد ولد ابن رشد الحفيد فى سنة ٥٢٠ هـ [ ١١٢٦ ميلادية ] . وسلك بطبيعة تربيته وتاريخ أسرته مسلك أيه وجدته . فبدأ بدراسة علم الكلام ، كما كانت تفهمه وتعرضه وتدافع عنه جماعة الأشاعرة . ثم درس الفقه على مذهب مالك ، وروى الحديث عن أيه أبى القاسم واستظهر عليه الموطأ حفظاً . كذلك أخذ يسيرا عن أساتذة آخرين هم أبو القاسم بن بشكوال ، وأبو مروان بن مسرة ، وأبو بكر بن سمحون وأبو جعفر بن عبد العزيز .

ثم تتلمذ على أبى جعفر هارون ، ودرس عليه الطب ، ولزمه مدة ، وأخذ عنه كثيراً من علوم الحكمة ، أى الفلسفة . ويقال أيضاً إنه درس على أبى بكر الصائغ المعروف بابن باجة . وذلك أمر يبعد احتمال الصدق . ذلك

لأن ابن باجة توفي حوالى سنة ٥٣٢ هجرية ، أى قبل أن يدرك أبو الوليد الثالثة عشرة من عمره . ومهما يكن من أمر فلنا أن نقول إنه من المحتمل أنه تتلمذ على فلسفته فيما بعد ، وإن لم يكن قد درس عليه كما زعم بعضهم . وقد عاصر ابن رشد فيلسوفا آخر هو أبو بكر بن طفيل صاحب القصة الفلسفية المعروفة «حى بن يقطان» وزامله وصادقه ، وتبعه فى محاولة التوفيق بين الشريعة والحكمة ، أى بين الدين والعقل . فقد ألف أبو الوليد فى ذلك كتابين مشهورين جليلين يسمى أولهما فصل للقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال وبذيله ضميحة فى العلم الإلهى . أما الكتاب الثانى فاسمه الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة .

ويذكر «رينان» فى كتابه عن ابن رشد أن هذا الفيلسوف أراد أن يعرف شيئاً عن تصوف ابن عربى الذى كان معاصراً له ، فاتصل به عليه يوقفه على أسرار علمه . لكن ابن عربى أبى أن يفضى إليه بشيء متعللاً بأن رؤية إلهية أوحى إليه ألا يطلع ابن رشد على ما يعلم . وأغلب ظننا أنه رفض ؛ لأنه كان يدرك جيداً أن عقلية علمية ممتازة مثل عقلية ابن رشد لا تستطيع أن تستسيخ تصوف ابن عربى فضلاً عن أن تتمثله وتتبعه .

## ٢ - صلته بابن طفيل

كانت نشأة أبى الوليد بن رشد فى بيت مجد وعلم ، كما كانت دراسته للفقهاء والطب والفلسفة من أهم الأسباب التى هيات له فى آن واحد أن يكون على صلة بكبار المفكرين والعلماء فى عصره ، وأن ينال حظوة كبرى لدى الأمراء ، فىصبح موضع تقديرهم وتقديرهم .

ومن أشهر المفكرين الذين جمعت بينهم وبينه رابطة العلم ابن زهر وابن طفيل . وترجع صلته بالأول إلى اشتراكهما فى دراسة الطب . وقد ذكر لنا ابن رشد

في كتابه « الكليات » أنه درس جميع أنواع الأمراض دراسة عامة ، دون أن يتطرق إلى التفاصيل الفرعية ، بمعنى أنه بقي عليه أن يدرس علاج الأمراض الجزئية التي تصيب كل عضو من أعضاء الجسم ، وأنه يتتوى أن يكتب مؤلفاً خاصاً في هذه المسائل . ولكنه احتج حينئذ بضيق وقته وانصرافه إلى الاشتغال بما هو أهم في نظره . ولذا فإنه يحجل على ما كتبه صديقه ابن زهر فيقول : « .. فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء واجب أن ينظر بعد ذلك في النكائش ، وأوقف النكائش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي ألفه أبو مروان بن زهر . وهذا الكتاب سألته أنا إياه وانتسخته . فكان ذلك سبيلاً إلى خروجه . وهو كما قلنا كتاب الأقاويل الجزئية التي قلت فيها شديدة المطابقة للأقاويل الكلية إلا أنه مزج هناك مع العلاج العلامات الخ . »

أما صداقته لابن طفيل ، وهي بيت القصيد هنا ، فتعتمد على أساس قوى من الاتجاه الفلسفي عند كل من هذين المفكرين العظيمين . ذلك أن دولة الموحدين ، وإن كانت تقسم بطابع الرّمت والنفور من الجدل ومناقشة العقائد ، وتميل إلى مجارة أهل الظاهر في مسائل الدين ، فإنها كانت تأخذ ، على الرغم من ذلك ، بناصر العلم ، وتقرب إليها مشاهير العلماء ، ونوابغ الحكماء . فليس بعجب أن تزدهر الحركة الفكرية والعلمية بالأندلس والمغرب في عهد تلك الدولة الفتية ، وأن يظهر فيها أمثال ابن باجة وابن طفيل ومن بعدهما أبو الوليد ابن رشد .

وقد بدأت شهرة هذا الفيلسوف الأخير عندما ذهب إلى مراکش لأول مرة في عام ٥٤٨هـ [ ١١٥٣ م ] . وذلك أن عبد المؤمن أول ملوك دولة الموحدين داه ، فيما يقال ، ليسترشد برأيه في إنشاء عدد من المدارس بمراكش . لكن لم يلبث أن زاد حظوة عند أمراء هذه الدولة ، وسبب تلك الحظوة أن الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان من أشد هؤلاء الأمراء محبة للعلم وتكرماً لأهله . وكان



ابن طفيل صاحبه وطبيعته كما أسلفنا . وقد قلنا إنه هو الذي قدم إليه ابن رشد فكان هذا سبباً في زيادة شهرته وعلو مكانته ومعرفة الناس بفضلته . وقد ذكر عبدالواحد المراكشي قصة تقديم ابن رشد إلى أبي يعقوب يوسف فقال رواية عن أحد تلاميذ الفيلسوف : « أخبرني تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بن يحيى القرطبي قال : سمعت الحكيم أبو الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ، ليس معهما غيرها . فأخذ أبو بكر يثنى على ، ويذكر بيتي وسلفي ، ويضم بفضلته إلى ذلك أشياء لا يلبثها قدرى . فكان أول ما فأنحى به أمير المؤمنين ، بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي ، أن قال لي : ما رأيهم في السماء ؟ يعني الفلاسفة : أفديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة . ولم أكن أدرى ما قرعته ابن طفيل . ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء . فالتفت إلى ابن طفيل ، وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم . فرأيت فيه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له . ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك . فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب . »

ويقال إن ابن رشد بدأ شروحه لكتب أرسطو بناء على رغبة أربابها يوسف ابن عبدالمؤمن ونقلها إليه صديقه ابن طفيل ؛ فإن هذا الأخير استدعاه يوماً ، وقال له إنه كان عند الأمير فوجده يشكو من غموض كتب أرسطوطاليس ويظن أن هذا الغموض يرجع إما إلى قلق عبارة أرسطو نفسه ، وإما إلى سوء عبارة المترجمين لكتبه ، مما أدى إلى ضرورة بذل جهد كبير لفهم مقاصده ومراميه ، ثم تمنى أن يوجد عالم يستطيع تلخيص هذه الكتب وتقريب معانيها وآرائها إلى عامة المشتغلين بالفلسفة . ولن يكون ذلك إلا إذا استطاع أن يفهمها أولاً فهماً دقيقاً ، واستطرد ابن طفيل يقول : « فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل . واني لأرجو أن تنفي به

لما أعله من جودة ذهنك، وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك إلى الصناعة » وأكده ضرورة القيام بهذه المهمة العلمية الكبيرة محتجاً بكبر سنه ، وانصرافه إلى خدمة الأمير ، وصرف عنايته إلى أمور هي أهم بكثير من الاشتغال بأرسطو . ومن ثم بدأ ابن رشد يتدرج في الوظائف الكبرى ؛ إذ عهد إليه أمير المؤمنين في سنة ٥٦٥ هـ [١١٦٩م] بوظيفة القضاء بمدينة أشبيلية . ولم يكن ذلك حائلاً دونه ودون الاستمرار في شروحه لأرسطو . فقد شرح في هذه المدينة كتاب أجزاء الحيوانات . وقد اعتذر عن الأخطاء التي عسى أن يكون قد وقع فيها بكثرة مشاغله وبعده عن قرطبة حيث يستطيع المقابلة بين عدة نسخ حتى يتحقق من النصوص ، أي على النحو الذي يتبعه المحدثون في تحقيقهم للكتب القديمة المخطوطة . كذلك اتى في أشبيلية من شرحه المتوسط لكتاب الطبيعة . وقد ظل بهذه المدينة سنتين على الأقل؛ لأنه يذكر أنه كان بها عندما وقع زلزال عظيم بمدينة قرطبة سنة ٥٦٦ هـ . ثم عاد إلى قرطبة ، وتابع شروحه لكتب أرسطو .

### ٣ — مكاتته في دولة الموحدين

لكن إقامته في قرطبة لم تكن متصلة الحلقات ، ذلك لأن خطوته لدى أبي يعقوب يوسف فرضت عليه النهوض بمهام عديدة اضطرت به إلى القيام بعدد كبير من الرحلات في مختلف بقاع الإمبراطورية المغربية . فكان ينتقل بين مراكش وأشبيلية وقرطبة ، وهو لا ينقطع في أثناء ذلك عن متابعة شروحه لأرسطو . وظل هكذا في تجاوبا وترحال ، حتى دعاه أبو يعقوب سنة ٥٧٨ هـ [١١٨٢م] إلى مراكش؛ وجعله طبيبه الأول مكان ابن طفيل ، ثم ولاه وظيفة القضاء بقرطبة . وتلك هي الوظيفة التي لم تكن سوى الهدف الأخير الذي كان يرمقه أبو الوليد منذ صباه . فكان آماله كانت تنحصر في الظفر بهذا للنصب الخطير الذي سيخلفه به اسم أسرته في سجل قضاة عاصمة الأندلس ، وقد ولى هذه الوظيفة بعد موت القاضي أبي محمد

ابن مغيث. « فخدمت سيرته ، وتأملت له عند الملوك وجاهة عظيمة ، لم يصرها - طى  
حد ما يقول ابن الأبار - في ترفيع حال ، ولا جمع مال وإنما قصرها طى مصالح  
أهل بلده خاصة ، ومنافع أهل الأندلس عامة . »

ولما مات أبو يعقوب يوسف ، وخلفه ابنه أبو يوسف الملقب بالمنصور بالله  
زادت مكانة ابن رشد رفعة طى رفعة ، وقربه إليه الأمير طى نحو فزع له الفيلسوف ،  
كما يقص علينا أحد من أرخوا لابن رشد. فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن القاضي أبو مروان  
الباجي قص عليه أمر الفيلسوف مع المنصور . وتفصيل ذلك أن الأمير مر بمدينة قرطبة ،  
في أثناء اتجاهه طى رأس جيشه للقاء ألفونس ملك الفرنجة وإنزال الهزيمة به وكف  
أذاه عن مدن المسلمين وكان ذلك في سنة ٩٥١ . فلما نزل بقرطبة بعث في طلب  
أبي الوليد بن رشد . « فلما حضر عنده احترمه احتراماً كبيراً ، وقربه إليه ، حتى  
تعدى به الموضوع الذي كان يجلس فيه أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص . .  
صاحب عبد المؤمن . . وكان هذا أبو محمد عبد الواحد قد صاهره المنصور وزوجه  
بابته لعظم منزلته عنده . . فلما قرب المنصور لابن رشد ، وأجلسه إلى جانبه حادثه ،  
ثم خرج من عنده وجماعة الطلبة وكثير من أصحابه ينتظرونه فهشوه بمنزلته عند  
للمنصور وإقباله عليه ، فقال : والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء ؛ فإن أمير المؤمنين  
قربني دفعة إليه أكثر مما كنت أؤمل فيه ، أو يصل رجائي إليه . وكان جماعة  
من أعدائه شنعوا عليه بأن أمير المؤمنين قد أمر بقتله ، فلما خرج سالماً أمر بعض  
خدمه أن يمضى إلى بيته ، ويقول لهم أن يصنعوا له قطعاً وفراخ حمام مسلوقة  
إلى متى يأتي إليهم . وإنما كان غرضه إلى ذلك تطيب قلوبهم بعافيته . »

وكان أبا الوليد كان يحدس بما سيحل به عما قليل ، رغماً من شدة احترام  
للمنصور له ، ورفع الكلفة بينهما إلى حد كان ابن رشد يشاديه معه بقوله يا أخي .  
ولم تكذب الأيام ظن الفيلسوف ؛ إذ سرعان ما تنكر له سيده وولى نعمته فتم عليه  
بمد رضا ، وأمر باعتقاله وأهانته ، وأمره بأن يسكن في أليسانة طى مقربة من قرطبة

وكانت مدينة خاصة باليهود على ما قدمنا ذكره . وأمر بإحراق كتبه ثم أصدر منشوراً لعامة المسلمين ينههم فيه عن قراءة كتب الفلسفة أو التفكير في الاهتام بها .

## ٤ — محتته وأسبابها

اختلفت الآراء في تعليل تلك النكبة التي حلت بفيلسوفنا ، والتي جاءت تعترض حياته السياسية والعلمية في السنوات الأخيرة من عمره . فمن هؤلاء المؤرخين من يقول بأن سبب هذه المحنة يرجع إلى أن أبا الوليد لم يكن فطناً ولا حصيفاً عندما أظهر شدة الولاء والمحبة لحاكم قرطبة أبي يحيى أخى المنصور مما أوغر عليه صدر أمير المؤمنين . وقد ذكر كل من الأنصارى وابن أبي أصيبعة سبباً آخر ، وهو أن « مما كان في قلب المنصور من ابن رشد أنه كان متى حضر مجلس المنصور وتكلم معه أو بحث عنده في شيء من العلوم يخاطب المنصور بأن يقول تسمع يا أخى » زد على ذلك أن فيلسوف قرطبة لما كان يشرح كتاب الحيوان لأرسطو أخذ يمدد أنواع الحيوان وفصائله ، ويصف كل نوع أو فصيلة بالصفات التي تميزها عن غيرها ، حتى انتهى إلى الزرافة ، فقال - فيما وصفها به - إنه رآها عند ملك البربر ، ويريد به للمنصور . فلما سمع الأمير هذا القول حز ذلك في نفسه وصعب عليه ، وأسرها لأبي الوليد بن رشد ، فكان ذلك أحد الأسباب التي حفزته إلى النقمة والحقن عليه والتشكر له ؛ لأنه ظن أنه إنما وصفه بملك البربر استخفاً به أو احتقاراً لشأنه وغضا من أمره . ولو كان حقاً أن الفيلسوف ذكر هذا الأمر لما وجب أن يكون موضعاً للنقمة ؛ لأنه إنما يقول ذلك على ما جرت به عادة العلماء الذين لا يعنون كثيراً بألفاظ المجاملة والتعظيم والاكبار التي تبدو في أعينهم غير لائقة بكرامة العلم . ومهما يكن من أمر فإن أبا يعقوب يوسف ملك اللوحدين هم بقتله لولا أن تدخل أحد دعاة الخير من جلسائه ، وهو القاضي عبد الله بن إبراهيم الأصولي الذي طلب الشفاعة له محتجاً بأنه لا يجوز قتل للمسلم بناء على وشاية ، أو وقعة من

بعض خصومه وحساده والكائدين له . ويقال إن ابن رشد اعتذر عن هذه العبارة التي أخذت عليه . فقال للأمر « إنما قلت ملك البرين ، وإنما تصفحت على القارى . فقال ملك البربر . » قبل المنصور شفاعة عبد الله ابراهيم الأصولى كما ارتضى عذر أبى الوليد . لكنه لم ينس تلك الإساءة فأخفاها حتى سنحت الفرصة فيما بعد ، فصب غضبه على كل من الشفيح والشفوع له .

وقد ذكر عبد الواحد المرآكشى هذه القصة أيضا ، ثم قال إنها كانت السبب الحقيقى الخفى فى نكبة ابن رشد ، لأنه سلك مسلك العلماء فى الحديث ، دون كلفة ، عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، دون أن يفتن إلى مايتعاطاه خدمة الملوك ، وإلى مدارج عليه حذاق الكتاب من أساليب الإطراء والتقرىظ والتمجيد والتفخيم ؛ وهذا أمر كان ينبغى له ألا يفتل عنه . وأما السبب الظاهرى أو للبشر الذى أثار النقمة والنكبة فهو أن جماعة من منافسيه وشوابه إلى الأمير فوجدوا لديه قبولا وسيلا إلى سماع وشايتهم ، وبخاصة عندما حملوا إليه بعض التلاخيص التى كتبها أبو الوليد ، وفيها يذكر بخط يده لبعض القدماء من الفلاسفة أن الزهرة إحدى الآلهة . وطبعى أنهم حرصوا كل الحرص على أن يعرضوا هذا النص فى غير سياقه أى منفصلا عما يسبقه أو يلحقه ، لى يظهررو للمنصور أن هذا الفيلسوف الذى حظى بعطفه وكفر نعمته فيلسوف يقول بما قال به أنصار تعدد الآلهة . فبعث إليه الأمير يطلبه إلى مجلسه الذى دعا إليه الرؤساء والأعيان من مختلف الطبقات . وكان ذلك بمدينة قرطبة ، فلما مثل بين يديه سأله . أهذا شيء كتبت بخط يدك فأنكر أبو الوليد ، فقال المنصور : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بأن يلعنوه أيضاً . ثم قضى بنفيه هو وجماعة من المشتغلين بالعلم والفلسفة ، كما أمر بتحريم دراسة الفلسفة فى كتاب وجهه إلى جميع مدن الأندلس والمغرب . وعهد إلى كاتبه عبد الله بن عياش أن يكتب هذا المنشور . وهذا هونص ماجاء فيه من تحريم الفلسفة والاشتغال بها : « وقد كان فى سالف الدهر قوم خاضوا فى مجور الأوهام وأقر لهم غوامهم

بشوف عليهم في الأفهام حيث لا داعى يدعو إلى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، نخلدوا في العالم صحفا مالها من خلاق ، مسودة للعانى والأوراق ، بعدها عن الشريعة بعد الشرقيين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها والحق برهانها ، وهم يتشيعون في القضية الواحدة فرقا ، ويسرون فيها شواكل وطرقا ، ذلكم بأن الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يزررون .

ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين أنس يخادعون الله والدين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ؛ فكانوا عليها أضمر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله وللمآب ؛ لأن الكتابى يجتهد في ضلال ، ويجد في كلال ، وهؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصارهم التمويه ، والتخيل ؛ وبث عقاربهم في الآذان برهة من الزمان إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قد دنا لهم على شدة حروبهم ، وعفى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إثمًا ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما . وما زلنا - وصل الله كرامتكم - نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم ، على بصيرة ، إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ، ويدنيه . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال ، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالثمال : ظاهرها موشح بكتاب الله ، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله ؛ لبس منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلة للأقدام ، ووهم يذب في باطن الإسلام . أسياف أهل الصليب دونها مفاولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مفاولة ؛ فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم باطنهم وغيرهم وبهتانهم . فلما وقفنا منهم على ماهو قذى في جفن الدين ، ونكتة

سوداء في صفحة النور المبين بئذناهم بئذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفها . من الغواة وأبغضناهم في الله كما أننا نحب للمؤمنين في الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق وعبادك هم اللوصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدقوا عن آياتك وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعد أسفارهم والحق بهم أشياءهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام بالسيف . . . فاحذروا وفقم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذرکم من السموم السارية في الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه ، واليها يكون مآل مؤلفه وقارؤه ومآبه . ومن عثر منهم على مجد في غلوائه ، عم عن سبيل استقامته واهتدائه فليعاجل فيه بالتنقيف والتعريف . ولا تركنوا إلى الذين ظلّموا فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ، أولئك الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . والله تعالى يطهر من دنس الملحدین أصقاعكم ، ويكتب في صحائف الأبرار تضافرکم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم .

وتدل لهجة هذا للنشور عما يمكنه حساد ابن رشد من ضيق وغيظ شديدين . فلقد اتهموه هو وجماعة من أصحابه بالإلحاد والوروق عن الدين مع أنه كان أرفع للسلمين في التدليل على العقائد الإسلامية . وبعد كتاب مناهاج الأدلة تحفة في هذا النوع من البراهين العقلية . وما كنا نتخيل أن مخالفته للأشاعرة والفلاسفة في التدليل على العقائد الدينية سيجر عليه هذا البلاء كله ؛ فإنه لم ينكر أصلا من أصول الاسلام ، بل فعل ما لم يفعله غيره عندما بين أنه ليس من الممكن أن يختلف العقل مع الدين ، لأن الحقيقة واحدة يتلقاها الأنبياء بالوحى ويدركها الناس والفلاسفة بالعقل . وكيف يوجد تناقض بين الشريعة وبين الفلسفة « وهما للمصطحبتان بالطبع للتحابتان بالجوهر والغريزة . ؟ » وفي الواقع أراد أبو الوليد بن رشد أن يرفع الخلاف بين السلمين ، وأن يقضى على أسباب الفرقة بينهم عندما

برهن لهم بمختلف الأدلة على أن دين الإسلام هو دين العقل الذى لا تقتضى طبيعة روحه أى خلاف فى العقائد ، تلك العقائد الواضحة التى لا يعجز العاى عن فهمها ، والتى يستطيع العالم أن يجد لها من البراهين العقلية ما يزيد بها وضوحاً وبداهة .

وكان من أكبر الوشاة الحاقدين عليه رجل يسمى أبو محمد عبد الكبير الذى نسب إلى فيلسوفنا العظيم أنه كان يستخف بالقرآن الكريم ، وأنه ينكر بعض ما جاء به من قصص المرسلين . وقد روى لنا الأنصارى ما كان ينسبه أبو محمد عبد الكبير إلى خصمه فقال « وقد جرى ذكر هذا المتفلسف وما له من الطوام فى عمادة الشريعة ، فقال إن هذا الذى ينسب إليه ما كان يظهر عليه . ولقد كنت أراه يخرج إلى الصلاة وأمر ماء الوضوء على قدميه . وما كدت آخذ عليه إلا فلتة واحدة ، وهى عظمى الفلتات ، وذلك حين شاع فى المشرق والأندلس على السنة للنجمة أن ريحا غاتية تهب فى يوم كذا وكذا فى تلك المدة تهلك الناس ، واستفاض ذلك حتى اشتد جزع الناس منه ، واتخذوا الغيران والأنفاق تحت الأرض ، توقيا لهذه الريح . ولما انتشر الحديث بها ، وطلب البلاد استدعى والى قرطبة إذ ذاك طلبتها وقاوضتهم فى ذلك ، ومنهم ابن رشد ، وهو القاضى بقرطبة يومئذ ، وابن بندود . فلما انصرفوا من عند الوالى تكلم ابن رشد وابن بندود فى شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب . قال شيخنا أبو محمد عبد الكبير وكنت حاضرا فقلت فى أثناء المناقشة إن صح أمر هذه الريح فهى ثانية الريح التى أهلك الله تعالى بها قوم عاد ؛ إذ لم يقم ريح بعدها يعم إهلاكها - قال فانبرى لى ابن رشد ولم يتالك أن قال والله وجود قوم عاد ما كان حقاً فكيف سبب هلاكهم ؟ فأسقط فى أيدى الحاضرين ، وأكبروا هذه الزلة التى لاتصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . » ولا شك فى أن هذه التهمة وليدة الخيال وربيبية الحقد والحسد ، فإن رجلا دافع عن الشريعة الإسلامية دفاع ابن رشد أبعد الناس عن مثل هذا الاعتقاد .



هذا ولم يكن دفاعه تملقاً للعامّة أو لرجال الكلام ، حتى يقال إنه كان مناققاً بل كان تسميهاً لآراء دوى الثقافة التقليدية المحدودة . ويعسر لنا ذلك الأمر لماذا حاربه هؤلاء ولماذا حاولوا أن يلصقوا به أكبر التهم ، حتى يسيثوا اليه أكبر إساءة لا يفتنرها أحد من الناس . ومما يدل على كذب هذه التهمة أنه لم يكن الوحيد الذى غضب عليه للنصور ، ذلك أن هذه النكبة لم تكن وقفاً على ابن رشد ؛ بل جمعت بينه وبين نفر من كبار العلماء الذين وجهت إليهم أيضاً تهمة الاشتغال بالفلسفة وعلوم القدماء . وسرى بعد قليل أن نكبة الفلاسفة كانت انتصاراً سياسياً لحزب آخر رجعي هو حزب الفقهاء الذين أحزنتهم أن تكون القرى في بلاط الموحدين لرجال العلم والفلسفة ، بعد أن كانوا هم المقربين لدى أمراء الدولة السابقة ، دولة المرابطين . ومما يقوى وجهة نظرنا أن للنصور عاد فعفى عن الحزب المهزوم وأعادته إلى سابق عهده ، ولو كانت تهمة الكفر أو الإلحاد لما عفى عنه مثل هذه السرعة .

ومن هؤلاء الذين نكبوا معه رجل سبق أن كان شفيعاً له في مجلس النصور وهو القاضى أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولى ، وأبو جعفر الذهبى ، وأبو الربيع الكفيف ومحمد بن إبراهيم ، وأبو العباس الشاعر . ويذكر لنا الأنصارى ، عرضاً ، السبب الحقيقى لهذه النكبة التى نزلت بالفيلسوف وأقرانه عندما بين لنا أن للنصور لما أقام مدة في قرطبة وامتدت بها إقامته « تجددت للطالبيين آمالهم ، وقوى تأليبهم واسترسالهم » فافتروا هذه المفتريات وأخذوا يكيدون لابن رشد ، ويظهرون سوءات تمحو كثيراً من حسناته ، وكان من أساليبهم أنهم خرجوا أقواله وكتاباتنه على نحو غاية في السوء . ولكن الأنصارى يعترف بأكثر من ذلك فيقول : « وربما ذيلها مكر الطالبيين . » فنحن هنا أمام وشاية ومكر وتحايل في تشويه الآراء والنصوص وكل ذلك حتى يبدو أبو الوليد بمظهر المارق عن الدين الذى يستحق لعنة الضالين لأنه خالف عقائد المؤمنين .

ومن الأكد أن لاعتراف الأنصارى بهذه المؤامرة أهمية كبرى ؛ لأنه من أقل

المؤرخين عطفاً على فيلسوفنا ، ولأنه أحد هؤلاء الذين يحاولون التشكيك في نسبة العربي ، أى من هؤلاء الذين زعموا أنه يرجع إلى أصل يهودى؛ فهو يقول في نهاية قصة ابن رشد : « ثم أمر أبو الوليد بسكتي أليسانة لقول من قال إنه ينسب في بني اسرائيل ، وإنه لا يعرف له نسبة في قبائل الأندلس . »

وكان مما أخذوه عليه أنه حاول الجمع بين الشريعة والفلسفة ، وأنه حاد عما كان عليه أهل السنة ، وحقيقة ما كان من الممكن إلا أن يثير كتابه المعروف باسم « مناهج الأدلة في عقائد أهل الملّة » سخط المتكلمين من أتباع مذهب الأشعرية . وربما كان هذا أحد الأسباب التي أوغرت عليه صدور أعدائه ، وجلهم من أنصار علم الكلام التقليدى . وذلك إلى جانب الأسباب الجوهرية الأخرى . ولم يكن الاشتغال بالفلسفة هو السبب الحقيقى بحال ما في هذه الحنة ؛ لأننا نجد عند ابن أبى أصيبعة ققرة تدل على ذلك ، فهو يقول : إن للنصور لما نفى هذه الجماعة « أظهر أنه فعل بهم ذلك بسبب ما يدعي فيهم أنهم مشغولون بالحكمة وعلوم الأوائل . »

وإذن فما السبب الحقيقى الذى أثار غضب للنصور وهاج حفيظته ، أو جعله يتنكر للعلماء أو يتظاهر بالتنكر لهم ، مع أنه كان يفخر بحسبهم في بلاط دولته؟ وهل يعقل أن يكون عبد المؤمن وأبناؤه من المشجعين للمتحمسين للفلسفة وللمشتغلين بها ، وأن يقلبوا بين عشية وضحاها ينكلون بهؤلاء الذين قربوهم إليهم لأنهم يشاركونهم في الاشتغال بها ، ثم يقضون عليهم بخزى النفي والطرده؟ إن ذلك السبب الذى نميل اليه هو ما فطن إليه رينان من قبل ، وهو أن الفقهاء ورجال الدين تمسوا على الفلاسفة حظوتهم عند أمير المؤمنين ونفسوا عليهم علو مكانتهم ، فأرادوا أن يطيحوا بنفوذهم وأن ينحوم عن وظائفهم ومراتبهم حتى تكون نهياً موزعا بينهم هم أنفسهم . وربما ساعدهم على تحقيق آمالهم مارأياناه من قبل عند النصور من نزعة إلى أهل الظاهر ، ورغبة في صرف الناس إلى ترك مذهب مالك والاكتفاء بدراسة القرآن والحديث .

## ٥ - الجانب السياسى فى محنة ابن رشد

ومهما يكن من نىء فلا جدال فى أن الفلسفة لم تكن سوى سبب ظاهرى فى هذه النكبة ، وأن هذا السبب قد استغل استغلالاً ماهراً لجمع قلوب الرعية حول دولة اللوحدين . ونستطيع أن نجمل رأينا فى هذه للسألة بأن تقول إن النزاع بين علماء الدين والفلاسفة كان ذا شقين : شق سياسى وشق مذهبى . والأول فى رأينا أهم الشقين وأثقلهما وزناً وأبعدهما أثراً ؛ لأنه سبيل الإزراء والنفوذ والجاه ، وطريق إلى تحقيق السيطرة على الخاصة والعامة . وأما الشق الثانى فإنه يأتي فى المرتبة التالية . وطبيعى أننا لا نريد أن نقلل من خطره أو نهون من شأنه ؛ لأننا قلنا فيما مضى إن أبا الوليد كان يحارب مذهب الأشعرية والمتكلمين عامة ، ويرهن على أنهم سبب فى نكبة المسلمين ويفرقهم شيعاً وأحزاباً . أما رجال الدين وهم فى الأغلب من أتباع مذهب الأشعرى فيرون أن الفلسفة هى أسس الداء وسبب البلاء . وقد ساعدهم على التلبة أنهم تأثروا فى بلاد الأندلس ببعض صفات الشعوب المغلوبة على أمرها من الإيبانيين الذين كانوا يخضعون بسبب دينهم وتقاليدهم خضوعاً تاماً لطبقة الكهنوت ، وكانوا يسارعون إلى رمى كل مفكر حر بالمروق والخروج على الدين . فنحن لا نغلو إذن إذا قلنا إن العداء الذى لقيه الفلاسفة من عامة الأندلس والمغرب ، ومن رجال الدين المتزمتين فيهما يرجع فى كثير من حدته إلى تأثير أعداء الفلسفة ببعض خصائص الشعوب التى كانت تربطهم بها صلات الجوار ، والتى كانت تخضع لسلطانهم . ذلك لأن التقليد إذا كان أكثر ظهوراً من جهة للمغلوب ، فإنه يتفق فى كثير من الأحيان أن يقلد الغالب المغلوب من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر فإننا نرى أن عاربة ابن رشد كانت وصمة فى جبين مسلمى الأندلس ، عامة ورجال دين . وهى تدل على أن هؤلاء قد تأثروا حقيقة بأساليب المسيحين الذين كانوا يحاربون الفلاسفة والعلماء عن طريق الحرق والقتل والتشريد فى أثناء القرون الوسطى .

ومما يزيد في جسامه الخطأ الذي ارتكبه المسلمون في الأندلس تجاه أكبر فلاسفتهم أن أهل أوروبا المسيحية مالبثوا أن فطنوا إلى عظمته على الرغم من شدة عداوتهم للعلم والفلسفة ، فقالوا إنه الشارح الأكبر لأرسطو ، كما لم يعدم أساطين الفكر لديهم أن أخذوا منه جل آرائه ونظرياته ، مما كان له أثر كبير في بعث أوروبا من جديد بعثاً علمياً وفلسفياً على النحو الذي مازلنا نشهد آثاره حتى الآن .

أما لدى المسلمين فقد كان لحنه ابن رشد آثار أخرى أشد ما تكون اختلافا عما رأينا لدى الأوربيين ؛ إذ نشأ لدى الأولين نوع من الأدب الأسطوري التافه حول اسمه ، وألقت هذه الأساطير حجاباً كثيفاً على آثار أبي الوليد بن رشد فحرم بنو ملته من تلك الآمال العريضة التي كان يحملها إنتاج هذا الفيلسوف ، ونعى بتلك الآمال هذه الحركة العقلية التي تحققت في أوروبا بفضل من أطلقوا على أنفسهم اسم « الرشديين اللاتينيين » .

أما هذا الأدب الأسطوري الذي حاكه بعض مؤرخي المسلمين حول ابن رشد فنجد منه نماذج لدى ابن الحسين بن جبير الذي يقول :

الآن قد أيقن ابن رشد      أت توألفه توألف  
يا ظالماً نفسه تأمل      هل تجرد اليوم من توألف

وله فيه أيضاً :

لم تنزم الرشديين رشداً      لما علا في الزمان جدك  
وكنت في الدين ذا رياء      ما هكذا كان فيه جدك

فهو يقابل هنا بين مسلك ابن رشد ومسلك جده . وقد سبق أن ذكرنا أن الجدد حاول التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأن الحفيد حقق أمنية الجد .

وقد قال ابن جبير يتشقى في فيلسوف قرطبة :

الحمد لله على نصره      لفرقة الحق وأشياعه  
كان ابن رشد في مدى غيه      قد وضع الدين بأوضاعه

فأخذ الله على أخذه  
وله فيه :

خليفة الله أنت حقا  
حيم الدين من عدا  
أطلعك الله سر قوم  
تفلسفوا وادعوا علوما  
واحترقوا الشرع وازدروه  
أوسعهم لعنة وخزيا  
فابق لدين الإله كهفا

فأرق من السعد خير مرق  
وكل من رام فيه فتقا  
شقوا العمى بالنفاق شقا  
صاحبها في المعاد يشقى  
سفاهة منهم وحقا  
وقلت بعداً لهم وسحقا  
فإنه ما بقيت يبقى

وله أيضاً

خليفة الله دم للدين تحرسه  
فأله يجعل عدلا من خلائفه  
وليس هذا كله ماجادت به قريحة ابن جبير ؛ بل له في ذلك قصائد أخرى عديدة،

كما أجز على قولها فمن ذلك قوله :

بلغت أمير المؤمنين مدى الننا  
قصدت إلى الإسلام تعلى مناره  
تداركت دين الله في أخذ فرقة  
أثاروا على الدين الحنيفي فتنة  
أقمت للناس يبراً منهم  
وقد كان للسيف اشتياق إليهم  
وآثرت دره الحد عنهم بشبهة

لأنك قد بلغتنا ما تؤمل  
ومقصودك الأسمى لدى الله يقبل  
بمنطقهم كان البلاء الموكل  
لها نار غي في العقائد يشعل  
ووجه الهدى من خزيمهم مهلك  
ولكن مقام الحزى للنفس أقتل  
لظاهر إسلام وحكمك أعدل

ولا ندرى ماذا قال الحسين بن جبير من شعر عندما عفا للنصور عن ابن رشد  
وأقرانه . ولعله إن لم يقل شعراً يعتذر فيه لهؤلاء الذين برئت ساحتهم فلعله لم يقل

شعراً يأخذ فيه على المنصور عفوهُ عن قوم كان السيف أشد ما يكون اشتدًا إلى أعناقهم .  
أما ما نعلمه علم اليقين فهو أن هذا الأدب الشعبي حجب عن المسلمين حقيقة مفكر  
من أكبر مفكريهم عرف الآخرون فضله وعبقريته قبلهم .

\*\*\*

لكن هذه النكبة كانت ضربة قاصمة وجهت إلى الفلسفة ، فقد تفرق تلاميذ  
ابن رشد أيدي سباً ، وانصرف عنه الناس من أهل العلم خوفاً على أنفسهم لما علموا  
من شغفه بالعلوم القديمة والعكوف عليها والركون إليها . كذلك انقض عن جميع  
تلاميذه ، ولم يحفظوا عهده ، وكان أكثرهم أمانة هو من حاول أن يبرر آراء  
أستاذه ويبين أنها ليست على خلاف مع الدين . ولم يكن مثل ذلك العداء الشديد  
من طائفة الفقهاء وعلماء السلام بالذي يابيه له أبو الوليد . فإنه كان يعتقد جازماً  
أن طرقهم في البرهنة على العقائد الإسلامية غير كافية ، وأن ضررها أكثر من  
نفعها ؛ بل كان أعظم مانعاً في هذه الحقنة هو أن خصومه نجحوا في تأليب عامة  
المسلمين ضده . فمن ذلك أنه دخل هو وابنه عبد الله مسجد قرطبة ، وقد حانت  
صلاة العصر ، فثار عليهما بعض سفلة العامة ، وأخرجوهما من المسجد مما يصور لنا  
إلى أي حد بلغت حفيظة خصومه عليه ، أي إلى الحد الذي لا يبيحه الإسلام ؛ إذ  
ليس لأحد أن يدعى لنفسه حق الكشف عن السرائر ، وعن حقيقة الصلة بين  
الخالق وعبده . ولو كان أبو الوليد مخطئاً في الدين حقاً فإن التوبة عن الخطأ  
والرجوع إلى جانب الحق حق لا ينكره أحد من الناس . وقد كانت ثورة التوغاء  
عليه وعلى ابنه دليلاً على سيطرة أهل الجمود والتقليد وإيماننا بأقول الحركة الفكرية  
في المغرب جمعاء ، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي . وهذا هو ما حدث بالفعل ،  
وقد استغرقَت الدول الإسلامية في سنوات ازداد عمقاً كلما مرت بها القرون ؛ وتوشك أن  
تنفض عن نفسها غبارهُ في العصر الراهن .

ولم تطل محنة ابن رشد طويلاً ، ذلك أن حزب الفلاسفة استعاد مجده إلى حين .

فإن جماعة من أعيان مدينة أشيلية ، شهدوا لابن رشد أنه على غير مانسب إليه ، فرضى النصور عنه وعن سائر الجماعة ، وذلك في سنة ٥٩٥ هـ ، كما يقول ابن أبي أصيبعة . ثم استدعاه إلى مراکش وأحسن إليه وقربه من مجلسه . كذلك يقول عبد الواحد المراكشي إن النصور لما عاد إلى عاصمة ملكة شمال أفريقية رجع عن رأيه في تحريم الفلسفة كلها ماعدا الطب والحساب والفلك ، ثم « جنح إلى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراکش للاحسان إليه والعمو عنه فحضر أبو الوليد رحمه الله إلى مراکش ففرض بها مرضه الذي مات منه » . وقد توفي بها في يوم الخميس ٩ صفر سنة ٥٩٥ هـ [ ١١٩٨ م ] أي قبل وفاة النصور بشهر أو نحوه ، ثم حمل جسده إلى قرطبة حيث دفن فيها مع آبائه وأجداده .

\* \* \*

وكان رحمه الله أكثر استقلالاً في الرأي من الاعتماد على آراء الآخرين ، أي أنه كان أكثر ثقة بالعقل من الآراء التقليدية ، كذلك لم ينشأ مثله بالأندلس كما لا وعلماء وفضلاء ، على حد ما ذكر ابن الأبار . ومع أنه كان عظيم المرتبة شريف الأصل عريق النسب فقد كان أشد الناس تواضعاً وأخفهم جناحاً . وقد قال عنه ابن أبي أصيبعة إنه كان حسن الرأي ذكياً قوى النفس رث البرة . وقد سبق أن رأينا أنه لم يتخذ مناصب الدولة التي تقلب فيها سيلاً إلى جمع روة ولا ترفيع حال ، وكان أبو الوليد شديد الانكباب على العلم وتحصيله ، ولذا ترك إنتاجاً صحيحاً كتب له الخلود في تاريخ الفلسفة . وقد روى عنه أنه « عنى بالعلم من صغره إلى كبره حتى حكى عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله وأنه سود خيا صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة . ومال إلى علوم الأوائل . فكانت له فيها الأمامة دون أهل عصره . وكان يفرغ إلى

تتواءم في الطب<sup>(١)</sup>، كما يفرع إلى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الإعراب والآداب. حكى عنه أبو القاسم بن الطليسان أنه كان يحفظ شعري حبيب والمتنبي ويكثر التمثل بهما في مجلسه ويورد ذلك أحسن إيراد . «

وكانت شهرة أبي الوليد في الطب لا تقل عن شهرته في الفلسفة ؛ وكذلك كانوا يصفونه بأنه أوجد عصره في الفقه . وقد وضع في هذا العلم الأخير كتابا يعد من أحسن ما ألف في هذه المادة ، وهو كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد « ولا يعلم في فنه أنفع منه ولا أحسن ماسقا » .

---

(١) ذكر ابن أبي أصيبعة أغلب كتب ابن رشد ، وما شرحه أو لخصه من كتب فلاسفة اليونان ، وأطبائهم وعلماء الفلك لديهم . فليرجع إليه من شاء .



## الفصل الثالث

### التوفيق بين الدين والفلسفة

#### ١ - أسطورة ابن رشد في أوروبا المسيحية

لم يكن ابن رشد أسعد حظاً في المغرب منه في الأندلس والشرق ، ولم يكن مسيحيو أوروبا أكثر إبقاءً وأحفظ عهداً من المسلمين لهذا الفيلسوف الكبير ، منع أنهم كانوا أحق الناس وأجدرهم أن يعترفوا له بالفضل لأنهم كانوا أكثر انتفاعاً بآثاره وآرائه الخاصة . هذا وقد كان لهم قدح ممل في تشويه آرائه الدينية لأنهم نسبوا إليه أقوالاً لم تكن طلي وفاق مع عقيدته . ونقول في جملة القول إن المسيحيين حاكوا حول اسم هذا الفيلسوف أسطورة أو أساطير شبيهة بتلك التي افتراها عليه خصومه وحاسدوه من بني ملته : وقد استقى أهل أوروبا هذه الأساطير مما كتبه مؤرخو المسلمين في المغرب والأندلس من أمثال الأنصاري وابن جبير .

غير أننا نعلم جيداً لأي سبب حورب من أجله لدى المسلمين ذلك لأنه هاجم للتكلمين من الأشاعرة هجوماً شديداً لا رفق فيه ، وهم الذين كانوا يمثلون السلطة الدينية في الأندلس في زمن الموحدين : لذلك اتهمه أعداؤه بأكبر التهم وأكثرها تنفيراً للناس ممن تنسب إليه ، فقالوا إنه ملحد مارق مبتدع مع أنه حاول محاولة التخلص أن يوفق بين العقائد الإسلامية ، وبين ما تنطوى عليه فلسفة أرسطو من آراء كان أبو الوليد يراها حقة . وليس معنى هذا أنه حاول التوفيق بأي ثمن ، ذلك أنه لم يكن إمامة يتقيد بآراء أرسطو أو يبذل جهده وطاقته لإقحامها على الإسلام وعقائده كيفما اتفق ؛ بل احتفظ فيلسوفنا باستقلال رأيه دائماً ، وكثيراً ما عارض أرسطو في مسائل عديدة كمسألة النفس ، كما خالف ابن سينا والفارابي والغزالي في مسألة الفيض والتصوف . وقد اعترف إرنست رينان بأن أبا الوليد لم ينجح شخصيته في شخصية أحد من سابقه .

وهذا يفسر لنا كيف اضطر هذا الفيلسوف إلى تحويل مذهب أرسطو تحويلاً بعيد المدى حتى يخلع عليه طابعاً إسلامياً . لكن خصومه من المسلمين الذين لم يتجدد ضاهراً هم حرجاً أو عتاً في وصفه بالإلحاد والزيغ لاشتغاله بمعلوم الأوائل ، واهتمامه بتلخيص كتب أرسطو وشرحها ، لم يكونوا عدولاً معه ، أو في الأقل لم يكونوا كذلك مع أنفسهم ؛ لأنهم اعتمدوا هم الآخرون على بعض آراء الفلاسفة القدماء ، وإن اختلفوا عنه في ذلك بأنهم لم يمحسوا هذه الآراء على النحو الذي كان ينبغي لهم أن يفعلوا . وهذا هو ما ذهب إليه مثلاً الأشاعرة عندما أخذوا عن الإغريق نظرية الجوهر الفرد بعد أن مزجوها بعناصر شتى أهمها التفرقة بين الممكن والواجب . أفليس بعجيب إذن أن يأخذوا ابن رشد بجزيرة كانوا هم أسبق منه إلى اقتراحها . هذا إلى أنهم كانوا أقل توفيقاً لأنهم كانوا أكثر تقليداً وأقصر باعاً وأدنى همة من الفلاسفة الذين أحلوا لأنفسهم أن يحكموا بكفرهم ومروقهم .

ومع كل هذا البلاء الذي لقيه أبو الوليد من أئد الناس صلة به ، وأقربهم إلى قلبه بسبب ما تربطه بهم من روابط الدين والجنس فإن ما فعله هؤلاء الخصوم من قومه لم يكن شيئاً مذكوراً إلى جانب ما لحقه من للمسيحيين بصفة عامة ، وإن كانوا قد اضطروا إلى الاعتراف بفضله عليهم بسبب تلخيصه وتفسيره لفلسفة أرسطو . وهي تلك الفلسفة التي نقلها إليهم العرب في القرون الوسطى ، والتي انتقلت إليهم مألوفة بلون إسلامي عربي ، والتي وجدوا في ذلك الحين أنها أسمى ما أنتجه العقل البشري . ولا بد لنا من أن نفصل القول هنا بعض التفصيل . ذلك أن فلسفة ابن رشد وإن كان قد عني عليها النسيان والزمن لدى بني ملته فقد كتب لها ، على عكس ذلك ، أن تزدهر وأن تجد أتباعاً وخصوماً من أبناء ملة أخرى . وهكذا توافر على دراستها والاقتراب منها ، أو تشويهها وتقدها ، والتحمس لها والدس عليها إذا لزم الأمر - تقول توافر على ذلك كلمة جماعة من الكهنوت المسيحيين وجماعة من المفكرين الأخرار الذين كان يصفهم رجال الكنيسة بالكفر والروق . لأن هؤلاء المفكرين أرادوا اتخاذ فلسفة ابن رشد وآرائه سبيلاً إلى التحرر من ذلك الطغيان القاهر ، طغيان

الكنيسة التي حجرت على العقول عصوراً وعصوراً يعترف المسيحيون أنفسهم اليوم بأنها كانت عصور ظلام وجهالة .

ومهما يكن من اختلاف الهدف والغاية فقد قام هذان الفريقان بدور عظيم في خلق أسطورة ابن رشد في الغرب وفي تشويه فلسفته . فاتهم لديهم ، كما اتهم لدى غيرهم من قبل ، بأنه إمام الملحدين وعمدة المارقين ، وعدو الدين ، ثم نسبت إليه ، بعد هذه التهمة المزعومة الكبرى ، جميع البدع والثرهات في العالم الغربي المسيحي ، تلك البدع التي ما كان أبده عن التفكير فيها؛ بل التي لم يفكر فيها قط . لكنها نسبت إليه رغمًا عنه؛ لأنهم كل ملحد مسيحي مارق عن دينه كان ينحصر في أن ينسب فكرته إلى أكبر فيلسوف يمكن الاعتماد على آرائه ، أي إلى الشارح الأكبر الذين كانوا يجاونه من هذه الناحية باعتبار أنه هو الذي كشف لهم عن فلسفة أرسطو وقرّبها إلى أذهانهم وأفهامهم . فإذا قال الملحد إنه أخذ رأيه عن ابن رشد فإنما كان يفعل هكذا لكي يزيد وقع رأيه هذا في النفوس .

وكان هؤلاء الذين لا يكثرثون بدين ما يبررون مسلكتهم بأن يقولوا إن ابن رشد كان عدوا لكل دين ، وإنه كان يصف الديانات الموحى بها من إسلام ومسيحية ويهودية بأنها مجموعة من الأوهام والأباطيل . ولقد نسبوا ذلك البهتان إلى فيلسوف قرطبة الذي كان يؤمن بسمو دينه على بقية الأديان ، والذي لم يكن إيمانه وليد التعصب أو التقليد؛ بل نتيجة لتلك البراهين العقلية والأدلة للمنطقية القوية التي ترضى لها نفس رجل ممتاز التفكير لا ترضيه الأدلة الحطائية العاطفية أو البراهين الجدلية ، أي تلك البراهين التي ربما قنع بها من هو أدنى منه ذكاء وشفاء قريحته .

حقاً إننا نعتز أن ابن رشد هاجم نفراله خطرته من رجال الدين ، ونعنى بهم علماء الكلام ، لكنه لم يهاجم قط نصوص القرآن . ومن هنا نفهم كيف خيل للملحدى المسيحيين أنهم قد وجدوا لهم إماما . وبما سهل عليهم هذا الزعم أنهم لا يفرقون بين الدين ورجاله ومثليه . ويرجع ذلك إلى أن فكرة هؤلاء القوم عن

الوحي تختلف اختلافا كبيرا عن فكرة المسلمين في هذا الصدر . فبينما يعلم المسلم أن الوحي قد انقطع بموت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الكتاب والسنة هما المرجع الأخير لكل خلاف قد يقع بينهم نجد المسيحيين يعتقدون أن الوحي لم ينقطع برفع عيسى عليه السلام ، وإنما لا يزال هذا الوحي متواترا على رؤساء الكنيسة . وهذا هو السبب في تطور عقائدهم ، وفي أن بعض رؤسائهم كالباپا يقرر بين حين وحين عقيدة جديدة لم تكن معروفة لدى المسيحيين الأوائل . فإذا وجد بعض الأوروبيين في القرن الثالث عشر أن ابن رشد يهاجم قوما يشبهون رجال الكهنوت عندهم ظنوا — على قدر علمهم — أنه يهاجم الدين في الوقت نفسه . كذلك خيل إليهم أنهم على حق إذا لم يكتفوا بأى الديانات الثلاث : ألم يكن ذلك هو شأن أبي الوليد في زعمهم ، وهو الشارح الأكبر الذي وضع لهم ما غمض من فلسفة الأوائل ؟

وبدسبب أنهم كانوا أبعد ما يكون عن التفكير في أنه لم يهاجم المتكلمين إلا لأنهم اتبعوا طريق الجدول في تقرير العقائد ، ولأن ضررهم كان أكثر من نعمهم لما فرقوا بين المسلمين ، ثم جنحوا إلى التقليد ؛ إذ لو عرضت على المعتزلي مسألة من مسائل الدين عرضاً يقنعه ثم قلت له إن هذا هو رأى الأشاعرة لرأيت يسكر صحة ماسلم به لأنه لم يؤثر عن شيوخه . ولو قلت للأشعري إن هذا الرأى الذى يستحسنه المعتزلى لعاد يستمع ويستهنج ما استحسنه من قبل . وقد كان هذا التقليد في نظر أبي الوليد طامة كبرى لأن كل فريق من الفريقين يدعى لنفسه حق تأويل الدين دون غيره ، فيدعوه هذا الاحتكار إلى تكفير الآخرين لمجرد الخلاف بينه وبينهم في الرأى .

وقد وقع رينان ، على الرغم من حدة ذكائه وجودة قريحته ، فيما وقع فيه هؤلاء للمسيحيون في العصور الوسطى بمن أساءوا فهم ابن رشد في عدائه لطريقة المتكلمين في التدليل على العقائد . ذلك أن هذا المؤرخ الكبير أساء ترجمة أحد نصوص ابن رشد ، لى يبرهن لنا على أن هذا الفيلسوف كان يحقر جميع الديانات . ولكن الحقيقة

أنتا نجد هنا مثالا جيدا لهذه الظاهرة النفسية التي يطلقون عليها اسم الإيماء الداني .  
ومعنى هذا أن رينان ، ذلك للمفكر الحر الذي خرج على ديانته المسيحية في القرن  
التاسع عشر ، ينسب إلى أبي الوليد بن رشد الذي عاش في القرن الثاني عشر آراء كان  
يمكن أن توجد بعد ذلك بعدة قرون ، أي لدى رينان وفي عصره .

ومن الغريب أن رجال الكنيسة قد اتفقوا مع خصومهم على هذه الفرية الجديدة .  
وهي أنهم زعموا أن ابن رشد ينكر علم الله للأشياء الجزئية . وقد وجد الأولون في  
ذلك سيلا إلى الطعن في عقيدته ، بينما وجد الآخرون في هذا نفسه سيلا إلى  
تحضيد آرائهم الخاصة . وغاب عن كلا الفريقين أن كلا من الفارابي وابن سينا أحق  
منه بهذه التهمة . ولو أنصف مسيحيو أوربا لفكروا مرتين قبل أن ينسبوا لأبي الوليد  
مثل هذه البدعة ؛ لأنه هو الذي يقرر على نحو واضح صريح في إحدى رسائله  
بأن الله يعلم الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها فلا تخفى عليه خافية ، وإن كان يعلمها على  
نحو يختلف عن علم الإنسان للأشياء . فعلمه تعالى لا يوصف بأنه كلي أو جزئي كما  
يوصف بذلك علم الإنسان . وإنما يقال إن الله يعلم كل شيء بعلم ليس شبيها في شيء  
بعلنا ، كما سترى ذلك عند الكلام في الصفات الإلهية .

كذلك قالوا إنه ينكر خلود النفس مع أنه برهن على هذا الخلود ببرهانين  
فلسفيين يفوقان براهين ابن سينا على الرغم من شهرة هذه البراهين الأخيرة .  
ويطول بنا الحديث لو أخذنا نسرده كل البدع التي افتروها عليه كبدعة النفس الكلية  
وبدعة الاتحاد أو الاتصال الصوفي بالله تعالى ، وانكار الخلق المباشر وغير ذلك  
مما عالجناه في كتاب آخر . (١)

على أن فيلسوف قرطبة ألف كتابا يرد به سلفا على كل هذه التهم التي كأنها  
كان يحدس بها ، ويعني بذلك كتاب مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وهو الكتاب  
الذي نرجو أن ننشره فيما بعد كجواب حاسم لهذه الأباطيل وتلك التهم التي نبتت في

(١) في النفس والعقل لفلسفة الإغريق والإسلام « الطبعة الثانية »

خيال قوم لم يشعروا بشيء من الحرج عندما شوها آراء ابن رشد الدينية . وهذا الكتاب تعبير صادق عن آراء فيلسوف قرطبة . وذلك لأنه إذ قورن بكتبه الأخرى . ككتاب تهافت التهافت و « فصل القول » تبين أنه يؤلف معها وحدة منساقفة الأجزاء ، ومنهبا متجانسا لا تفاوت ولا تناقض فيه .

وفي هذا الكتاب يدافع ابن رشد عن وجهات نظر إسلامية بحجة ، ومحارب كثيرا من البدع والأباطيل . وقد فطن جوتيه أحد اللششرقين الفرنسيين المحدثين ، إلى أنه لا سبيل إلى الشك في إخلاص العاطفة التي أملت هذا الكتاب على صاحبه فأول أن يطعن هذه العاطفة من طريق آخر . ويان ذلك أنه يقول : ومن يدري فلربما ألف هذا الكتاب في عهد الصبا أى في تلك المرحلة التي ربما كانت عاطفة ابن رشد الديقفة فيها عاطفة إخلاص وحماسة ، لا عاطفة تقليد ونفاق . لكننا لا ندرى ماذا يريد جوتيه بعهد الصبا أو بأيام الشباب فهل يمتد هذا العهد في رأيه إلى الخامسة والخمسين ؟ ذلك لأننا نعلم أن أبا الوليد قد فرغ من كتاب منلهج الأدلة سنة ٥٧٥ هجرية . ومن يدري فلعل جوتيه كان يعلم هذا التاريخ ؛ بل من الأكيد أنه كان يعلمه مثلنا ، لكنه آثر أن يفغله حتى يستطيع بدر الشك في نفوسنا لو استطاع .

## ٢ — تأثير ابن رشد في فلسفة أوروبا

ولن نقف طويلا حتى نزهن على إخلاص هذه العاطفة . فقد عاجلها «أزين بالاسيوس» اللششرق الأسباني في تفاصيلها . كذلك حاول «جوتيه» تقريرها في الوقت الذي كان يهدف إلى التشكيك فيها . ومع ذلك فسنعود فيما بعد لكي نبدى بعض ملاحظاتنا على وجهة نظر «جوتيه» (١)

(١) الفصل الرابع — الفقرة الثانية ص ٥٧ وما بعدها .

وإذا كان هذان اللشترقان قد اعترفا، إلى حد كبير أو قليل، بصدق العاطفة التي دفعت بابن رشد إلى البرهنة على عقائد الإسلام فإنه يجب علينا أن نين أن فيلسوفنا كان مصدر وحي استقى منه أكبر فلاسفة المسيحين حلوله لعدد كبير من المشاكل الدينية . ونعني بهذا للفكر المسيحي توماس الأكويني الذي حرص حرصاً شديداً على نسبة عدد لا بأس به أيضاً من البدع إلى ابن رشد .

وسنضطر اضطراراً إلى المقارنة بين هذين الفيلسوفين حتى نين نقط الاتفاق بين مذهبيهما ، دون أن نحرص على التسوية بين هذين المذهبين تسوية تامة ؛ ذلك لأننا متى وجدنا خلافاً أو شبه خلاف بينهما فسنبكون أسرع اللاس إلى التنبية عليه . فإننا عندما تقارن بين هذين للفكرين لازمي إلى هدف آخر سوى الكشف عن الحقيقة . ومع ذلك فسنبري أن هناك حالات يبدو فيها تأثير ابن رشد في تفكير توماس الأكويني تأثيراً واضحاً إلى درجة لانسطيع معها إلا أن نعجب كيف أجل هذا الأخير لنفسه أن يكتم الحق الذي يعلمه كل العلم ويعرف مصدره خير معرفة ، وأن يسام بنصيب كبير في تشويه مذهب ابن رشد، وأن يؤكد ما ادعاه معاصروه من أن الفيلسوف المسلم كان مارقاً ملحداً .

حقاً درج مؤرخو الفلاسفة المسيحية بصفة خاصة على النظر إلى ابن رشد وتوماس الأكويني نظرتهم إلى خصمين لاسبيل إلى رفع الخلاف بينهما . وتلك فكرة خاطئة في جوهرها ؛ لأن أحدهما أخذ عن الآخر شيئاً كثيراً . وإنما أخذ عنه كل ما أخذ لأنه كان يهدف مثله إلى نفس الغاية . ومعنى ذلك أن كلا منهما أراد أن يرهن على أن دينه يتفق أتم اتفاق مع ما احتوت عليه فلسفة أرسطو من حقائق . وبما يؤكد أن أحدهما يدين للآخر بشيء كثير أنهما لم يتفقا في الغاية فقط ؛ بل اتفقا أيضاً في المنهج الذي سلكاه في هذا التوفيق ، كما اتفقا في الحلول التي تكاد تكون واحدة في جميع المشاكل . ذلك أنهما يسلمان قبل كل شيء بأن العقل — وهو هبة من الله — لا يمكن أن يكون مناقضاً بحال ما للوحي الذي جاءت

به الرسل . وهذه الفكرة أولى بها أن تكون لابن رشد منها لتوماس الأكويني ؛ لأن روح الإسلام توجب استخدام العقل ؛ في حين أن المسيحية — بسبب ماتنطوى عليه من أسرار — تحصر العقل في مجال هو أضيق على كل حال من المجال الذي يحدده له الإسلام من دون رب . ومهما يكن من شيء فإن الوفاق بين الدين والعقل ليس وليد الصدفة ما دام كلاهما ينبع من مصدر واحد . وإذن يجب أن تكون الفلسفة الحتمية على وفاق مع الدين . ولذلك فإن الذي يظن أن هناك تناقضا بين هذين الأمرين إما رجل يجهل الدين وإما رجل يسه فهم الفلسفة .

لكن قد يقال كيف عرف توماس الأكويني النظرية الحقيقية التي قررها أبو الوليد بن رشد في التوفيق بين الدين والفلسفة ، حتى يجوز لأحد أن يؤكد بعد ذلك أنه أخذ عنه كثيرا من آرائه ؟ إننا نجد الجواب على ذلك فيما كتبه أكثر المستشرقين إنصافاً لهذا الفيلسوف ، ونعني به أزين بالاسيوس الذي أفرد كتاباً خاصاً يبين فيه العناصر الإسلامية التي أخذها توماس الأكويني عن فيلسوف قرطبة . وفي هذا الكتاب يذكر لنا صاحبه أن هناك طريقين اتسها بهما توماس إلى فلسفة ابن رشد الدينية . أما الطريق الأول فيتلخص في أن هذا الفكر المسيحي يعترف في بعض كتبه بأنه أخذ عن موسى بن ميمون رأيه في الأسباب التي توجب الإيمان على الإنسان . ولما كان ابن ميمون من أتباع فلسفة ابن رشد ، ولو بطريقة غير مباشرة ، فمن المحتمل للصدق أن تكون مؤلفاته قنطرة عبرت عليها نظريات أبو الوليد إليه . لكن لما أعاد توماس الأكويني هذه الآراء في كتبه الأخرى لم يعن بالإشارة إلى المصدر الذي استقاها منه . وعلى هذا النحو بدت هذه الآراء كما لو كانت آراءه الشخصية ، وظهر توماس في أعين بني ملته الذين كانوا يجهلون المصادر الإسلامية العربية في مظهر المفكر الأصيل المبكر .

يبد أنه قد يقال إن هذا الذي يذكره « بالاسيوس » في تفسير هذا المصدر الأول



ليس إلا نوعاً من الحدس والتخمين . فنجيب على ذلك بأن هذا المستشرق كان أكبر من أن يكتفى بحجة قد يرقى إليها مثل هذا الطعن . لأنه يبين لنا الطريق الآخر المباشر الذي تسربت منه آراء الفيلسوف المسلم إلى المفكر المسيحي . وبيان ذلك أن كتب ابن رشد الأخرى ككتاب تهافت التهافت ، وكتاب مناهج الأدلة كانت معروفة حق المعرفة لدى أحد رجال الدين من طائفة « الدومنيكان » ، وهي الطائفة التي ينتمى إليها توماس الأكويني أيضاً . أما هذا الرجل الذي اطلع على الكتب الإسلامية العربية . ومن بينها كتب ابن رشد ، فهو « ريموند مارتان » أحد ثمانية من جماعة الدومنيكان ، تلك الجماعة التي أرسلها رئيس كنيسة طيلطة إلى بلاد المغرب لدراسة اللغة العربية وكتب الفلسفة والدين .

وقد بين « أزين بالاسيوس » بأدلة حاسمة ونصوص عديدة أن كثيراً من نظريات « ريموند مارتان » مأخوذة عن ابن رشد : مثال ذلك نظريته في العلم الإلهي ، وهي تلك النظرية التي بعث بها الفيلسوف المسلم إلى أحد أصدقائه يكشف له فيها عن حل ممتاز لهذه المسألة . وتسمي تلك الرسالة باسم صنميعة في العلم الإلهي . وكذلك فعل ريموند مارتان بعد أن أخذ النظرية بمخاديفها وتفصيلها ، لأنه لم ينس أيضاً أن يعطيها عنواناً يدل على المصدر الذي استعارها منه . فقد سماها « رسالة إلى صديق » ، كأنه وجد في نفس الظروف التي وجد فيها أبو الوليد وكان نفس الحلول جاءتته تترى على نفس النمط والترتيب ! فإذا وجدنا بعد ذلك كله أن حل ابن رشد لمشكلة العلم الإلهي هو بعينه الحل الذي نجبده لدى توماس الأكويني ، وإذا كانت فصول الكتاب الذي جاء فيه هذا الحل نسخة مكررة من فصول كتاب ريموند مارتان ، وإذا كانت الأفكار المشتركة في الكتابين ترجمة حرفية ، في أكثر الأحيان ، لنصوص عربية للغزالي وابن سينا وابن رشد — نقول إذا كان الأمر كذلك فهل من الجرأة أن نؤكد ونقرر أن توماس الأكويني عرف آراء ابن رشد عن طريقة زميله في للذهب الديني والطائفي ؟ وقد انتهى بالاسيوس

من هذه الحجة القوية بأن مما يدعو إلى العجب العجيب هو أن ندعى بعد ذلك كله أن توماس الأكويني لم يأخذ آراءه من أبي الوليد بن رشد .

تلك هي النظرية التي عضدها أزين بالاسيوس في رسالته التي خصصها لبيان الآراء الدينية الرشدية في مذهب الأكويني . وطى الرغم من أن مثل هذه الشهادة وزنها ، ومن أن الشك لا يرقى إليها ؛ لأنها تبرهن بالنصوص على استعارة توماس الأكويني لكثير من الفلسفة الدينية الرشدية فقد رأينا أنه ينبغي لنا أن نكتفي بمرض الوقائع نفسها دون تحوير أو تعديل ، ودون أن نحاول فرض وجهة نظرنا الخاصة على الآخرين قرصا .

لكن: إذا نحن بينا الآراء المشتركة بين هذين الفيلسوفين وتركنا لكل إمرى، حرته الخاصة في تكوين فكرته ، وإذا نحن ارتضينا هذا المنهج — تقول إذا فعلنا ذلك فليس السبب في هذا المسلك نوعا من الضعف أو التواضع الكاذب ، وإنما هو واجب ينبغي أن يلتزمه مؤرخ الفلسفة عندما يقف موقف الحيدة العلمية . ومن يدري فلربما كانت هذه الحيدة أكثر تحقيقا للهدف الذي نرجوه ، وهو إحقاق الحق وإعطاء كل من الفيلسوفين السلم والمسيحي نصيبه ؟

على أننا نؤكد لأنفسنا أولا أننا لما درسنا الآراء الدينية لدى ابن رشد وتوماس الأكويني دراسة فاحصة فجأنا وجه الشبه الكبير بين وجهة نظر كل منهما : فلقد وجدنا أوجه شبه قوية في المنهج ، وفي الآراء والأمثلة وأحيانا أوجه شبه تدعو إلى الدهشة في الألفاظ والمصطلحات. ومما يدعو إلى العجب حقيقة أن يهتدى توماس الأكويني إلى نفس النتائج التي اهتدى إليها أبو الوليد من قبل ، مع اختلاف المقدمات التي بنى عليها كل منهما مذهبه .

وتزيد الأمور وضوحا فنقول إن توماس الأكويني بنى آراءه الرئيسية على فكرة أخذها عن فلاسفة المسلمين وعن المتكلمين ، ونعني بها تفرقتهم بين الأشياء الممكنة والأشياء بالواجبة ، تلك التفرقة الشهيرة التي استخدمت في البرهنة على وجود الله وعلى حدوث العالم

ومن المعروف أيضاً أن ابن رشد قد رفض أن يتبع الفلاسفة وعلماء الكلام في الاعتماد على هذه التفرقة ، واختار تفرقة أخرى أكثر وضوحاً ووقعاً في النفس ومطابقة للعقيدة الإسلامية ، وهي التفرقة بين عالمين عالم الغيب وعالم الشهادة ، أي التفرقة الحاصية الفاصلة بين الخالق والخلق . وإذن حق لنا أن نسأل كيف استطاع الأكويني أن يهتدى إلى نفس النتائج التي انتهى إليها مع اختلاف المقدمات ، ومع اختلاف آراء ابن رشد عن آراء الفلاسفة والتكلميين ؟ إننا نفسر هذا الأمر الغريب الذي يكاد يشبه السحر بسبب يسير لا يجد الإنسان عسراً كبيراً في الكشف عنه ؛ وذلك لأن التاريخ يعتمد ما نذهب إليه . ويبان ذلك أن توماس الأكويني بدأ أولاً باقتباس آراء ابن سينا والغزالي والفارابي . فلما انتهى واقتبس ما شاء أن يقتبس وجد أن هناك إنتاجاً ضخماً قوياً يترجم إلى اللاتينية ، وكان هذا الإنتاج الجديد القوي هو إنتاج أبي الوليد بن رشد . فاتجه نحو آراء هذا الفيلسوف فأخذها وضمها إلى آراء سبق أن ارتضاها من قبل ، دون أن يفتن ما قد يجره إليه هذا الأمر من تناقض في مذهبه الخاص . وإنما لا تتجنى في ذلك عليه ؛ بل نستطيع أن نرجع إلى مثال من هذا التناقض والجمع بين آراء متنافرة متدابرة ، وهو مثال النفس فقد جمع توماس بين نظريات لا سبيل إلى الجمع بينهما ، وكان لا يجد غضاضة في أن يناقض نفسه في تعريف الروح ، فيقول تارة إنها غير مستقلة عن البدن ، ثم يعود فيقول إنها جوهر مستقل حتى يبرهن على خلودها . (١)

وحيث نجد أن هذا الاتفاق بين النتائج على الرغم من اختلاف المقدمات ومن البون الشاسع بين العقائد في الإسلام والنصرانية — ولا سيما أن هذه العقائد في الديانة الأخيرة أقرب إلى الماثلة بين العالم الإلهي والعالم الإنساني — نقول إن هذا الاتفاق لا يمكن بحال ما أن يكون وليد الصدفة أو توارد الحواطر ؛ وإنما يرجع في الحق إلى نوع

---

(١) انظر كتابي في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام الطبعة الثانية - الفصل الثالث - الفقرة الثامنة .

من الاقتباس في الأقل ، حتى لا تقول إنه نوع من المحاكاة أو الترجمة الحرفية .  
غير أن آراء الأكويني للأخوذة أو المستفاة من المصادر الإسلامية ظهرت لدى  
معاصريه بمظهر الجديد للبتكر . وكانت سبباً في ذلك المجد العريض الذي نهم به  
حتى الآن لديهم . ومع هذا فإننا نعلم كيف نفسر دون عناء لماذا ظنه قومه مبتكراً  
بل عبقرى ، ولماذا خلعوا عليه ثوب القداسة ، ولماذا صوروه بهض أهل الفن عندهم  
وهو يظاً بقدمه رأس أبى الوليد بن رشد كدليل على أنه هو الذى قهر الشارح  
الأكبر وأتباعه من أنصار التفكير الحر بين المسيحيين . ويعلم الله أن الأكويني إنما  
استخدم فلسفة ابن رشد الحقيقية ليفجم بها الأعداء الذين زعموا أنهم تلمذوا على  
ما كتبه هذا الفيلسوف المسلم . ولقد ساعد الأكويني على ادعاء الأصالة والابتكار —  
كما ساعد معاصريه على قبول هذا الزعم — أنه استقى آراءه من المصادر الإسلامية  
التي كانت كثرأً وقع عليه قسس الدومنيكان في شمال أفريقية فاحتفظوا به لأنفسهم ؛  
فكان من اليسير عليهم أن يحاربوا بما ينهلون منه بنى قومهم الذين لم يعرفوا من  
كتب ابن رشد سوى بعض شروحه لأرسطو . ولم يكن ادعاء البطولة والابتكار  
في هذه الحال بالأمر الذى يمكن تجريحه أو الطعن فيه . ولو عرف أعداء رجال  
الكهنوت في أوروبا كتابا مثل كتاب مناهج الأدلة فلربما سلكوا هم  
— وخصومهم أيضاً — مسلكا غير ذلك الذى سلكوه . ومن الأكد أنهم  
لو عرفوا هذا الكتاب لعلوا أن ابن رشد شارحهم الأكبر كان أولى بأن  
يوصف بالأصالة والابتكار من توماس الأكويني .  
لقد مرت القرون قبل أن يكشف عن هذا السر الكبير وعن هذا الخطأ  
الجسيم وهذا هو ما حاولنا التنبيه إليه .

### ٣ - أصالة ابن رشد

لكن ما مظاهر أصالة ابن رشد ؟ وما الجديد المبتكر الذي جاءت به نظريته في التوفيق بين الدين والفلسفة ؟ وما للبدأ أو الأساس الذي اعتمد عليه عند ما أراد البرهنة على العقائد الإسلامية برهنة علمية لا تتسم بطابع الجدل والحطابة التي نجده لدى المتكلمين ؟ وقد يقال فيما عدا ذلك إن الفلاسفة المسلمين حاولوا جميعا التوفيق بين الدين والعقل ؟ ولم تكن فلسفة الكندي إلا مثالا لهذه المحاولة . فإن هذا الفيلسوف العربي الأول لم يرتض كثيراً من آراء أرسطو التي رآها لا تتفق مع الدين ، وبخاصة آراءه في المادة الأولى وقدم العالم والحلق والصفات الإلهية ؛ كذلك لم تكن آراء الفارابي وابن سينا والغزالي إلا ضروبا من التقريب بين الإسلام وبين الفلسفة الأرسطوطاليسية .

ونضيف إلى قول هؤلاء القائلين أن ابن طفيل كان أكثر صراحة من سابقه في هذه المسألة ؛ لأنه بين في قصته الفلسفية المسماة « حى بن يقظان » أن الإنسان إذا ترك وحده ، أو عاش بعيدا عن كل مجتمع إسلامي يتلقى فيه آراءه التقليدية فإنه يستطيع - متى استخدم العقل - أن يصل وحده إلى الكشف عن جميع الحقائق التي جاء بها الوحي . وهذا هو ما حدث لبطل قصته عند ما ارتفع في مدارج المعرفة حتى انتهى إلى أسمى مراتب التصوف ، فوجد أن ما وصل إليه في حالة الجذب والاتحاد بعالم الأمر هو نفس ما يقرره رجل من رجال الزهد غادر وطنه وأهله ، لكن يعيش بعيدا عنهم في تلك الجزيرة التي شهدت ميلاد « حى بن يقظان » وهكذا تبرهن هذه القصة في نظر ابن طفيل على الاتفاق التام بين الشريعة والفلسفة . وبهذا يتبين لنا أن مسألة التوفيق قد أثرت قبل ابن رشد ، وقد عولجت بصور شتى : بالإشارة والإيماء تارة ، وبالتفصيل والتدليل تارة أخرى . فلماذا إذن يوصف هذا الفيلسوف بالأصالة والابتكار ؟

ونجيب على ذلك فنقول : إنه لا يكفي أن تثار مشكلة من المشاكل ، وأن تعرض عرضاً مناسباً ؛ بل أهم من ذلك بكثير أن يجيد المرء تحديدها ، وأن يعثر لها على حل جديد لا أثر فيه للتقليد أو التكلف . وهذا هو ما فعله ابن رشد بطريقة منهجية منظمة ، أى على نحو لم يسبقه إليه أحد . ويكفيه أصالة وابتكاراً أنه خصص لها كتاباً مثل كتاب مناهج الأدلة ؛ بل كتابين أحدهما هذا الكتاب والآخر هو فصل القال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال . ففي الكتاب الأول عالج للمشكلة من الناحية التفصيلية التطبيقية . وفي الكتاب الثانى حددها وعالجها من الوجهة النظرية . وليس ما لجأ إليه ابن طفيل من استخدام القصص والاعتداد على الرموز والتشبيهات والاستعارات بشيء ذى بال من الوجهة المنهجية أو الفلسفية إذا نحن قارنا بين إنتاجه وإنتاج فيلسوف قرطبة ، ذلك الفيلسوف الذى يواجه المشكلة ولا يتحايل عليها بالقصص ، ثم لا تأخذ شفقة أو رحمة على المتكلمين ؛ أو خشية من أهل الظاهر الذين كان لهم من النفوذ فى بلاد العرب والأندلس ما يقف سدّاً منيعاً أو عقبة تثبط همه كل من رام محاولة من هذا القبيل ، لو لم يكن صاحبها حسن الرأى شديد الاعتداد بالنفس مؤمناً ومخلصاً لما يمتدده الحق ، ولو لم يكن يرى أن التناحر بين المسلمين إنما جاء بسبب سوء الفهم للصلة الوثيقة بين دينهم وبين العقل ، حتى خيل إلى كثير منهم أن هذا الدين يخشى التفكير والعلم مع أنه بدأ — ولا يفتأ — يحث أتباعه على الاستزادة من المعرفة والسعى وراءها فى كل مظانها .

ولقد كان أبوليد فذاً فى معالجة مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة . ولا تتلو إذا قلنا إنه كان الوحيد ، من فلاسفة المسلمين ، الذى أجاد تحديدها وأجاد حلها ؛ دون أن يلجأ فى ذلك إلى آراء غريبة عن الإسلام كالآراء الأفلاطونية الحديثة ، تلك الآراء التى لم يستطع التحرر منها فلاسفة الإسلام جميعهم بما فيها الغزالي نفسه . وإنما اكتفى ابن رشد بالجمع بين الدين وبين فلسفة أرسطو . ولكنه لم يفعل ذلك لنصرة

الفلسفة؛ بل لنصرة الدين. والدليل على ذلك أنه حوّر في هذه الفلسفة ولم يأخذ منها إلا مارآه حقا .

وأحد مظاهر هذه الأصالة — أو العبقريّة إن شئت — أنه فرّق كما قلنا بين عالم الغيب وعالم الشهادة . لكن هل يعد حقيقة صاحب هذه التفرقة ؟ ألا توجد أصولها واضحة بينة في قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » ؟ إننا لا ندعى أنه هو الذي ابتدعها بل نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إن غيره من فلاسفة المسلمين قد اعتمد عليها في حل بعض المشاكل . وأقرب هؤلاء الفلاسفة صلة بابن رشد أستاذه أبو بكر ابن طفيل . ومع هذا فالفارق الكبير بينهما هو أن هذه التفرقة لدى أبي الوليد ليست جزءا ثانويا في مذهبه أو حيلة يلجأ إليها المفكر وقت الحاجة فقط ، وإنما هي الأساس الأول أو المحور الذي نلح به بوضوح في جمع أجزاء مذهبه ، كما نلح مثلا التفرقة بين الممكن والواجب لدى المتكلمين ، والتفرقة بين الماهية والوجود عند ابن سينا ولدى توماس الأكويني أيضا . وإذن فطريقة استخدام هذه التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة هي مظهر الابتكار عنده .

وبيان ذلك أن ابن طفيل قال في أثناء حديثه عن اللبس والخلط الذي يقع فيهما الإنسان عندما يطبق ما يعرفه عن عالم الشهادة على عالم الغيب « ... والعالم المحسوس منشأ الجمع والإفراد ، وفيه تفهم حقيقتهما ، وفيه الانفصال والاتصال ، والتجزئ والتغايرة ، والاتفاق والاختلاف . فما ظنه بالعالم الإلهي الذي لا يقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق في أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة إلا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة فلا يعرفه إلا من شاهده ، ولا تثبت حقيقته إلا عند من حصل فيه . . . »

لكن ابن رشد ، وإن ارتضى وجهة نظر ابن طفيل ، فإنه يحورها تحويرا بعيدا للذي بحيث يؤدي إلى تغييرها تغييرا جوهريا . ذلك أنه يرى أن الحدس الصوفي الذي يكشف عالم الغيب على حقيقته ليس بالوسيلة التي ترشدنا إلى وجه الخلاف بين هذا العالم وعالم الحس ؛ وإنما هو البحث النظري الذي ينتهي بنا إلى نوع من اليقين العقلي

القائم على البراهين ، أى إلى نوع من اليقين مشترك بين جميع الناس لو استطاعوا أن يحصلوا المقدمات والمعلومات التى تنتهي بهم إلى نتائج تلك البراهين .

ومما يدل على أن أبا الوليد بن رشد لا يتبع أستاذه وصديقه إلى نهاية الطريق أنه يستخدم التفرقة بين هذين العالمين على نحو يختلف اختلافا كبيرا عما استخدمها فيه ابن طفيل ؛ فهو يعتمد عليها — كما سنرى تفصيل ذلك فيما بعد — لكي يبرهن على أن الصفات الإلهية لا تشبه الصفات الإنسانية فى شيء ، وأن الله سبحانه ليس روحا أو نفسا مفارقة للعالم كما أن النفس الإنسانية مفارقة للبدن . كذلك سيستخدمها حتى يبين لنا أن المتكلمين والفلاسفة لم يهتدوا إلى وجه الحق فى مسألة الخلق ؛ وذلك لأنه غاب عنهم أنه ليس ثمة وجه شبه بين عملية الخلق الإلهية وبين عملية الخلق على النحو الذى يفهمه الإنسان فى عالمه الحسى . وقد اتخذ هذه التفرقة أيضا — أما لحل مشكلة الشر والخير ، والعدل والجور . وأخيرا استخدمها فى مسألة البعث بعد الموت الأولى ، وفى التفرقة بين العلم الإلهى والعلم الإنسانى ، وفى كل المسائل الدينية الأخرى تقريبا .

\* \* \*

وهناك مظهر آخر يدل على استقلال ابن رشد عن ابن طفيل ، ويتجلى ذلك للمظهر فى النهج الذى ارتضى كل فيلسوف منهما أن يتبعه فى البرهنة على العقائد الموحى بها . ذلك أن ابن طفيل سلك طريقتين فى هذا الصدد: إحداهما ترتفع بالمرء من عالم الحس عالم التغير والحدوث حتى تنتهى به إلى عالم الغيب عالم الدوام والخلود . أما الثانية فتبسط به من هذا العالم الأخير إلى العالم الأدنى . وفى الطريق الصاعرة تغيب عنه الأشياء الحسية شيئا فشيئا حتى تختفى من خاطره تماما . ومعنى ذلك أن العارف يمر بمراحل تدريجية حتى ينتهى إلى الفناء عن نفسه أى حتى ينتهى إلى الاتحاد بالله سبحانه على غرار ما يقول نثر من المتصوفة . ومن هنا تبدأ الطريقة الثانية ، أى طريق الهبوط وذلك لأن الحدس الصوفى ، فى رأى أبي بكر بن طفيل هو الذى يكشف للإنسان عن جميع الحقائق كشفا واضحا تعجزه عنه حواسه ؛ بل عقله أيضا . « فإن العقل .. »



إنما هو القوة الناطقة التي تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتقتنص منها المعنى الكلى ، ..... والنمط الذى كلامنا فيه فوق هذا كله فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع إلى فريقه الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . « أى أن الحدس الصوفى هو الذى يبين للإنسان الحدود الفاصلة بين العالم الإلهى والعالم الإنسانى .

غير أن ابن رشد لا يرضى هذا المنهج لأنه ليس فى متناول كل إنسان ولأنه لو أدى حقيقة إلى ما يسمونه الكشف لكان ذلك خاصا بطبقة محدودة جدا من الناس على ما يقرره أهل التصوف أنفسهم . كذلك رفض هذا المنهج لأنه أقرب إلى الدوق الصوفى والعاطفة منه إلى العقل . فما المنهج الذى ينصح به ؟ إنه منهج يعتمد على البرهان والعقل ، لا على بعض الأحاسيس النادرة الغامضة ، وهذا هو السبب فى أن طريقته فى البرهنة على العقائد تصلح لجميع الناس لا لطائفة خاصة تزعم لنفسها حق المعرفة . وهو منهج أكثر إقناعا من منهج ابن طفيل . حقا إن هذا الفيلسوف كان يرى أن الاتفاق بين الدين والفلسفة أمر بديهى . ومع ذلك فإن حى بن يقظان بطل قصته لم يحاول ؛ بل — ولنقل الكلمة الصادقة — لم يستطع أن يبرهن بطريقة عقلية على الحقائق التى يقول إنه انتهى إليها بطريقة الحدس والاتصال الصوفى ، أى تلك الحقائق التى عرفها — فيما يقول — عن طريق مشاهدة الحق فى ذاته سبحانه . أضف إلى ذلك أنه ابن طفيل نفسه يعترف اعتراف صريحاً بالعجز عن هذه البرهنة ؛ إذ لا يمكن التعبير عما يشاهده العارف ، فى حالة الاتصال أو الاتحاد الصوفى ، بعبارات اللغة المتداولة . وفى ذلك يقول « من رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحسلا ، وهو بمنزلة من يريد أن يتذوق الألوان من حيث هى ألوان ، ويطلب أن يكون السواد مثلاً حلوا أو حامضاً . . . » وقد ذكر أيضاً أن العارف إذا كان فى حال المشاهدة فإنه يسمع نداء يفهم كلامه ، فإذا استغرق فى حاله هذه شاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . « فإن كثيراً من الأمور التى تخطر على قلوب البشر .

قد يتعذر وصفها ، فكيف بأمر لاسييل إلى خطوره على القلب ، ولا هو من عالمه ولا من طوره ٤٢ .

ولم يشأ ابن طفيل أن يقف في تفضيل الذوق الصوفي على التفكير العقلي إلى هذا الحد ؛ بل ارتضى أن يتجاوزه إلى النض من شأن العقل ، وإلى وصف هؤلاء الذين يرتضونه ميزاناً لاحق بأنهم يشبهون الحفائش ؛ لأن الضياء الباهر أو للشاهدة الصرفة تعنى أبصارهم فلا يرون شيئاً ، بينما يظنون أن الظلمة خير من النور ؛ لأنهم ألقوا أن يروا الأشياء فيها . ولذلك عجزت نفوسهم عن مشاركة أفق عالم الأمر ، وقعدت بهم عقولهم عند قواعد المنطق وظواهر الأشياء . فكانوا كقوم وصفهم أفلاطون بأنهم وجدوا منذ ولادتهم في كهف مظلم لا ينفذ إليه ضياء النهار إلا من فتحة توجد وراء ظهورهم بينما قضى عليهم أن يوجهوا أبصارهم نحو قاع الكهف فلا يرون أن هناك ناراً عظيمة توجد خلفهم ، وأن هناك طريقاً يفصل بينهم وبين هذه النار ، وأن رجالا يمرون في هذا الطريق يحملون في أيديهم أو على رؤوسهم أواني من الخشب أو النحاس فترسم ظلالها وأشباحها على قاع الكهف . ففي هذه الحال لا يرى أهل الكهف أمامهم سوى هذه الظلال والأشباح فيظنون أنها توجد حقيقة ؛ وإذا سمعوا أصوات الرجال الذين يحملونها حسبوا لغفلتهم أن هذه الأصوات تصدر من تلك الأشباح والظلال . ولو جاءهم أحد يحمل وثاقهم ليخرجهم من سجنهم وليطعمهم على الأشياء الخارجية الحقيقية لقاوموه ، ولربما فتكوا به لأنهم لا يريدون شيئاً غير ما هم فيه . ولو قيل لهم إن ما يرون أمامهم على قاع الكهف ليس شيئاً في حقيقة الأمر لفضضوا ولو صموا من ينقل إليهم هذا النبأ بأنه قد عقله . أو كاد يفقده . (١)

(١) انظر كتابنا « في النفس والعقل » الطبعة الثانية ص ٤٦ وما بعدها .

ولذا فإن هؤلاء الذين ينكرون الذوق والمشاهدة ليسوا في نظر ابن طفيل سوى جماعة من الحقى الذين يزهون بعقولهم في غير ما يوجب الزهو . وهم الغافلون الذين يخيل إليهم أنهم أوتوا شيئاً من العلم مع أنه لم يعطوا منه شيئاً مذكوراً . وقد وصفهم هذا الفيلسوف وصفاً يسخر فيه منهم فقال : « وكأني بمن يقف على هذا الموضع من الحفافيش الذى تظلم الشمس في أعينهم يتحرك في سلك جنونه ويقول : لقد أفرطت في تدقيقك حتى انخلعت عن غريزة العقلاء وأطرحت حكم المعقول ... أما قوله حتى انخلعت عن غريزة العقلاء ... فنحن نسلم له ذلك وتركه مع عقله وعقلائه . »

فعلى هذا الاعتبار نستطيع أن نقرر ونؤكد ، في الوقت نفسه ، أن أبا الوليد ابن رشد كان أول فيلسوف مسلم حاول معالجة مشكلة التوفيق بين الدين والعقل معالجة علمية وبرهانية . وإنما قلنا إنهم أجدرهم بهذا الفضل لأن الفلاسفة السابقين لم يفعلوا أكثر من أن أشاروا بصفة إجمالية إلى ضرورة الاتفاق بين الدين والعقل ، دون أن يبذلوا جهداً للنهوض بالبرهنة التفصيلية المنهجية على وجهه نظرم . أما فيلسوف قرطبة فقد حدد غايته تحديداً دقيقاً ، وبرهن عليها أولاً بطريقة إجمالية ثم بطريقة تفصيلية ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .

## الفصل الرابع

### بواعث البرهنة على العقائد

#### ١ - الوجهة النظرية

تساءل أبو الوليد بن رشد في كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال »: إذا ما كان الاشتغال بالفلسفة أمراً يبيح الشرع أو يحرمه أو يأمر به . وإذا كان يأمر به فهل يوجب على جميع الناس أم على نفر منهم يدعوهم للقيام به ، لأنفسهم وللآخرين . وقد فطن إلى أن الجواب على مثل هذا السؤال يتوقف ، دور ريب ، على المعنى الذى تستخدم كلمة الحكمة أو الفلسفة للدلالة عليه . فإذا كان المراد بالفلسفة هو دراسة الموجودات واتخاذها دليلاً على صانعها وخالقها ؛ لأن زيادة العلم بدقة الصنعة تدل على معرفة أدق بالصانع ، فما لا ريب فيه عقلاً أن كل دين ينبغي له أن يدعو العقل إلى جواره ، فيجعله خير أعوانه . وإذا نحن نظرنا إلى الدين الإسلامى وجدنا أن القرآن الكريم لم يدع الناس إلى دراسة الكائنات ؛ بل حث على هذه الدراسة ، وهو محتوى على كثير من الآيات التى تحض على التدبر والتفكير ، من مثل قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ، وقوله تعالى : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » وقوله « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت » الآية ، وقوله : « صنع الله الذى أتقن كل شيء » وقوله عز وجل « وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » وقوله : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً » وقوله : « اعلمو أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »

ولو ذهبنا نتبع كل الآيات القرآنية التي تشير إلى مثل هذا المعنى لوجدنا عدداً كبيراً لا يكاد يدخل تحت حصر ؛ مما يدل على أن الاشتغال بالفلسفة ليس مخطوراً في نظر ابن رشد ، بل ينتهي هذا الفيلسوف إلى القول بأن الاشتغال بها أمر يوجه الدين على من يستطيع النهوض به .

وإذا كان الدين يأمر بالنظر في الأشياء . واعتبارها فالمقصود باعتبار الأشياء هنا هو استخدام طريقة الاستنباط التي ينتقل فيها الإنسان من قضايا معلومة إلى حقائق مجهولة . وهكذا يتجه ابن رشد إلى القول بضرورة دراسة المنطق لأن القياس العقلي الذي يقرره هذا المنطق هو الذي يكشف لنا عن أسباب الظواهر والكائنات . وهذا النوع من القياس أو الاستنباط أسمى أنواع البراهين ؛ لأن هناك أنواعاً أخرى من القياس ، كالقياس الجدلي ، والقياس الخطابي . أما القياس الجدلي فهو الذي يعتمد على قضايا ظنية وينبع طريقة أكثر تعقيداً من القياس المنطقي ، ولا تصل نتائجها إلى نفس اليقين الذي تنجم به نتائج القياس البرهاني . أما القياس الخطابي فهو الذي يستخدم آراء مشهورة متداولة يراد التأثير بها في السامع حتى يصدق بالنتيجة التي يريد له الخطيب أن ينتهي إليها . وهناك نوع آخر هو قياس السفسة الذي يحاول صاحبه التمويه به حتى يظهر آراءه الفاسدة بمظهر الحقيقة .

ولذلك متى أردنا أن نمثل أوامر الشرع في الاستدلال على وجود الله ، عن طريق معرفتنا الصحيحة لما خلق ، وجب علينا أن نميز أولاً بين أنواع البراهين السابقة وأت نفهم شروطها . ومعنى هذا أن البحث النظري في الأمور الدينية لا يتحقق فعلاً إلا بدراسة منطق أرسطو وبمعرفة القياس بمعناه العام وأنواعه ، وما يصح أن يسمى قياساً برهانياً أو لا يسمى كذلك .

وقد أراد أبو الوليد أن يبرر استخدام القياس المنطقي فأخذ يقارن بينه وبين

القياس الذي يستخدمه فقهاء المسلمين . ذلك أن الذي يدرس نصوص الكتاب أو السنة ليتخذها مقدمات لأقيسة فقهية تستنبط منها الأحكام الشرعية الخاصة بالأمور الجزئية مضطر بطبيعة الأمر إلى معرفة أنواع الأقيسة الفقهية . وكذلك الأمر فيما يتصل بالنظر العقلي الذي أوجهه الشرع للاستدلال على وجود الخالق ؛ إذ كيف نحظر على الفيلسوف ما نبيحه للفقهاء ؟ وكيف نأمر إنسانا ما بالنظر في الموجودات إذا لم نبح له في الوقت نفسه أن يعلم الأساليب المنطقية التي تعد مقياسا يفرق به بين صحة التفكير النظري أو فساده ؟ وتلك في الحق طريقة بارعة لجأ إليها فيلسوف قرطبة لتبرير الاشتغال بالفلسفة عند ما يربط مصير الفلسفة بمصير الفقه ؛ لأنه من التناقض أن يبيح الاستدلال في الفقه وأن يحرمه في الفلسفة . ولو فعلنا ذلك لكان مسلكنا أشد ما يكون مضادة لقواعد التفكير السليم ؛ لأن القياس في الفقه ليس إلا نوعا من القياس العقلي . وكيف يحق للفقهاء أن يبرر مشروعية القياس الفقهى بقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ثم لا يحل للفيلسوف أن يتخذ هذه الآية نفسها دليلا على ضرورة استخدام القياس العقلي لتقرير عقائد الدين ؟

إن هؤلاء الذين يحرمون استخدام البراهين المنطقية ، متذرعين في ذلك بأنها استخدمت بعد الصدر الأول من الإسلام ، ينبغي لهم أن يحرموا استخدام القياس الفقهى وأن يصفوه أيضا بأنه بدعة ؛ لأنهم يعلمون حق العلم أنه استخدم بعد هذا العصر . وإذا رأوا ، رغم ذلك ، أن القياس الأخير ليس بدعة وجب عليهم الاعتراف بأن القياس الأول ليس بدعة كذلك وإلا وقعوا في التناقض . وإذا نظرنا إلى واقع الأمر وجدنا أن هؤلاء الذين يحرمون استخدام القياس العقلي قلة من المسلمين ؛ وهم من يطلق عليهم ابن رشد اسم الحشوية وهم من أهل الظاهر .

وأخيراً فهل من العقل في شيء أن تدعو شريعة من الشرائع إلى النظر العقلي وإلى التأمل والتفكير واستخدام البرهان إذا كانت تخشى هذا النظر والتفكير ؟ إن الديانات التي تعلم جداً أن عقائدها مضادة للعقل تحرم أول

ما تحرص على الحظ من شأنه وعلى التهور من أمره ؛ بل تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فتأمره بالخضوع والاستسلام لطبقة الكهنوت ، وتصف حبه للاطلاع والرغبة في التفسير والتعليل والفهم بالروق والإلحاد .

\* \* \*

وإذا كان الفلاسفة القدماء قد كشفوا عن بعض الحقائق كعقيدة البراهين المنطقية فمن الواجب أن نستعين بما كتبوه ؛ لأنه من العبث أن نطرح كل معرفة سابقة ونستأنف البحث من جديد . ولقد سبق الأغريرق بقية الأمم في الدراسات العلمية . وأطلع المسلمون على ثقافتهم وعلومهم . وليس عليهم من حرج لو أخذوا عنهم ما يرونه حقاً من هذه العلوم . وقد يقال كيف يجوز لهم أن يأخذوا عن قوم يختلفون عنهم في الدين؟ وهذا اعتراض صياني ؛ لأن اختلاف الدين لا يحول دون الانتفاع بالحقائق التي كشفت عنها الأجيال السابقة أو المعاصرة . وإذا كنا لانشرط في أداة الدمج أن تكون مستوفية للشروط الشرعية كالطهارة مثلاً فكيف نشترط لجواز الأخذ عن الأغريرق أن يكونوا من ملتنا ؟ وحقيقة لو وجب الاتحاد في الدين حتى يأخذ العلماء بعضهم عن بعض لتحجر العلم ، ولانقطعت بالإنسانية كل السبل ، وخصوصاً في هذا العصر الذي أصبحت فيه المعرفة عالمية لا قومية .

ولقد فطن إلى ذلك أبو الوليد فقال : « فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فإن كان كله صواباً قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه . » وقال أيضاً : « فقد يجب علينا . . أن ننظر في الذي قالوه . . وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه . وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم . » فمن الواجب أن تتعاون الأجيال ؛ لأن تحصيل فروع المعرفة ليس بالأمر اليسير ، ولأن من طبيعة العقل الإنساني ألا يصل إلى الحقيقة دفعة واحدة ، فهناك إذن نوع من التضامن بين السابق واللاحق . وتاريخ العلوم خير دليل على ذلك . وقد وقع ابن رشد على هذا المعنى عنده

مثل بعلم الفلك والرياضة ، فقال : إننا لو طلبنا إلى أحد الناس أن يحدد لنا مقادير الأجرام السماوية وأشكالها والمسافات التي تفصل بعضها عن بعض لكننا نطلب إليه أمراً مستحيلاً ؛ إذ كيف له أن يعلم أن حجم الشمس أكبر من حجم الأرض بمائة وخمسين مرة ، على حد ما يذكر أبو الوليد .

وإذن فالاطلاع على كتب الفلسفة ، وعلى ما اهتدى إليه السابقون من حقائق ، ليس نوعاً من الترف العقلي بل أمر يوجب الشرع . هذا إلى أن فيه اقتصاداً للمجهود وعوناً على تحصيل العلم ، وسبيلاً إلى القضاء على الشبهات التي يؤدي إليها احتكاك الثقافات والديانات المختلفة . وقد أخذ ابن رشد نفسه بهذه القاعدة للتهجية فاطلع على فلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة ، وعلى ما كتبه الفلاسفة للسلمون قبله من أمثال الفارابي وابن سينا والغزالي وابن طفيل . ولم يكن مقلداً أو ناقلاً ؛ بل كان يتخذ الفلسفة سبيلاً إلى معرفة الحقيقة التي يوجب العقل والشرع معرفتها على حد سواء . وما كان له أن يخشى من الفلسفة ضرراً أو شراً ، لأن العقل الحليم لا يمكن أن يؤدي إلى حقيقة مناقضة لما يقرره الدين الصحيح الذي يأمر ويحض على كسب المعرفة . وكيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك إذا لم تكن هناك سوى حقيقة واحدة ، هي حقيقة العقل والشرع معاً ؟

## ٢ — الخلاف بين الفرق الإسلامية

وإذن فليس بعجيب إذا جزع فيلسوفنا من انقسام الأمة الإسلامية إلى عدة طوائف وفرق دينية ، تزعم كل طائفة أو فرقة منها أنها هي التي اهتدت إلى الحقيقة وحدها . أما الطوائف والفرق الأخرى التي لا تشاركها الرأي فإنها هي تلك التي ضلت سبيلها ، ماتی ذلك ريب ، وابتعدت عن تعاليم الدين ، وكانت بسبب هذا الابتعاد والمروق أهلاً لأن توصف بالكفر أو الإلحاد . وهذا ما يعبر عنه فيلسوفنا حين يقول : « فإن الناس قد اضطربوا في هذا المعنى كل الاضطراب في هذه الشريعة حتى



حدثت فرق ضالة وأصناف مختلفة: كل واحد منهم يرى أنه على الشريعة الأولى ، وأن من خالفه إما مبتدع وإما كافر مستباح الدم والمال . وهذا كله عدول عن مقصد الشارع ، وسببه ما عرض لهم من الضلال عن فهم مقصد الشريعة .

وهكذا فإن هذا الفيلسوف لا يهدف — كما نرى — إلى إنشاء طائفة أو فرقة جديدة ؛ بل يرمى بالبرهنة على العقائد — برهنة يقبلها كل إنسان مهما اختلفت درجة ذكائه وثقافته — إلى القضاء على النزاع والخلاف بين المسلمين . وكأنه كان يريد أن يختم هذا الصراع المرير بين أحزابهم وأشياعهم بالتدليل على أن الدين والعقل لا يتناقضان ولا يمكن أن يتناقضا ؛ إذ بما يدعو إلى الحسرة أن هذه الديانة التي تقوم على أساس العقل تبدو في نظر الجهال من المسلمين مضادة له . وليس أقل من ذلك مجلبة للأسى أن يرى بعض الناس أن الفلسفة الحققة هي تلك التي تناهض العقائد الدينية . فما السبب في هذا البلاء كله ، وفيه هذه الحرب الشعواء بين طوائف الملة الواحدة ؛ لقد حلت بهم الفرقة ، واحتدم النزاع فيما بينهم عندما لم يحترموا أو يلتزموا قاعدة أو قانونا في تأويل النصوص القرآنية . فكل طائفة تؤول هذه النصوص ، حسبما تريد ، أي دون منهج محدد ودون معرفة كافية بالحقائق العلمية والفلسفية التي تحاول التوفيق بينهما وبين العقائد الإسلامية .

وهذا هو السبب في أن أبا الوليد بن رشد يريد أن يضع حدا نهائيا للخلاف بين الفرق الإسلامية في تأويل المتشابه من الآيات القرآنية . وسيله إلى ذلك تنحصر في أن يفسر العقائد الدينية تفسيراً يقبله العقل ، إن لم يوجهه . ومن ثم رأى أنه متى برهن بالطرق المنطقية على وجود اتفاق تام بين هذه العقائد وبين ما تحتوي عليه فلسفة أرسطو من آراء حققة فيستطيع القضاء على المناقشات للذهبية العنيفة بين بني ملته .

وهل لنا أن نشك في إخلاص هذا الفيلسوف ورغبته في التوفيق بين الدين والعقل ؟ حقا لو كان ابن رشد عدواً للدين كما يزعم رينان لوجد في هذا الصراع

الدائم بين الطوائف الإسلامية فرصة نادرة لا يمكن أن تسنح مرة ثانية فكيف لا يفتنهما حتى يبيث سموم هذا الإلحاد للزعموم ، وحتى يوجه ضربة قاصمة إلى هذا الدين الذي كان يقال ، ظلما وعدوانا ، إنه كان لا يحفل بأمره أو بأمر أي دين آخر من الأديان اللوحي بها؟ ولو كان ما يدعيه رينان صحيحا لبذل ابن رشد وسعه لكي يجعل هذا لصراع أكثر عنفا وتدميرا . لكن مجرد الرغبة في حسم الخلاف بين المسلمين بعرض التأويل العقلي للعقائد الدينية عرضا يتفق مع الحقائق العلمية والقوانين العقلية دليل أي دليل على أن فيلسوف قرطبة لم يكن عدوا للدين .

ومن الأكد أنه لا يعرض آراءه في التوفيق بين العقل والدين على الجمهور الذي يكتفي عادة بعقيدة قوية تنأى به عن الجدل والنظر ؛ بل كان ابن رشد يرى أنه لا يحل للعالم أن يكشف عن تأويل التشابه في الدين إلا لمن يستطيع فهمه . أما الجمهور فينبغي أن يلتزم بظاهر الشرع والنصوص القرآنية ، وأن يترك البحث عن أي تأويل وأن يبتعد عن كل مناقشة دينية ؛ لأنه قد يفهم عرض الفيلسوف لإحدى هذه المشاكل دون أن يستطيع متابعتها في حلها . وعندئذ تستقر المشكلة أو الشبهة في عقله؛ وما كان أغناه عن ذلك ؛ كذلك لا يخاطب أبو الوليد أهل الجدل ولا أصحاب علم الكلام ؛ لأن هؤلاء ، وإن كانوا يقدرّون على فهم الأدلة الجدلية أو الحطائية ، فإنهم لاشك عاجزون عن فهم الأدلة البرهانية وطريقة استخدامها .

وإذن لنا أن نتساءل فنقول : إذا لم يكن فيلسوف قرطبة يرهن على العقائد لهؤلاء السابقين فإلى من يتجه بهذه البرهنة ؟ إننا نرى أنه يعرضها على هؤلاء الذين يستطيعون فهم الفلسفة ، أي على طبقة الخاصة . لكن أحد المستشرقين ، ونعني به «ليون جوتيه» يرى رأيا مخالفا لما نذهب إليه ، فيقول إن أبا الوليد إنما يعرض هذه الآراء على الجمهور ، ومن ثم يصفه هذا المستشرق بالنافق وعدم الإخلاص بعد أن اعترف له من قبل بأنه كان مخلصا ، وأن كتابه في « مناهج الأدلة » ربما كتب في حماس الصبا . ومعنى هذا أن ابن رشد سيمثل في نظر « جوتيه » دور المنافق ؛ لأنه سيؤم المؤمنين

وأناصر العقيدة أنه يخطو خطوة ليخلق بهم وليترك فلسفة أرسطو ؛ لكنه يؤكد في الوقت نفسه لأصحاب النظر العقلي بأشارات خفية أنه مازال معهم ومن رفاقهم ؛ لأنهم هم وحدهم الذين يعلمون التأويل . وهذا هو السبب في أنه لن يفكر مطلقا في أن ينادر ركبهم . ويتهى ليون جوتيه من ذلك الزعم إلى القول بأن ابن رشد لم يبرهن على صحة العقائد الاسلامية إلا لكي يتقرب إلى العامة يحاول تملقها وخداعها ، أى أن كتابه ليس إلا كتاب حق أريد به باطل .

لكن ليون جوتيه يخطيء عند ما يعتقد أن أبا الوليد يوصى بإشارات خفية إلى أصحاب المذهب العقلي ؛ وذلك لأنه في الحق ليس في حاجة إلى إدخال الطمأنينة على قلوبهم وإلى البرهنة على وفائه لهم ، إذ أنه لا يتجه إلى العامة بل يتجه إليهم دون مداراة أو التواء . فلقد وصف جوتيه ابن رشد بأنه فيلسوف عقلي . وليس في وصفه بأنه من أنصار المذهب العقلي ما يعيبه في نظرنا مطلقا ؛ وذلك لأننا نفهم هذا الوصف على نحو مختلف جدا عما يفهمه المسيحيون . فهم يطلقونه على كل باحث يستخدم عقله في دراسة الأمور الدينية فلا يؤمن بها إيمان تقليد دون مناقشة . ونحن نعلم أن هذا الفهم يتنافى تماما مع ما درج عليه أئمة المسلمين من ضرورة الاعتقاد عن طريق العقل والتفكير ، إلى درجة أنهم اختلفوا في هذه المسألة وهي : أيعتبر المسلم بالتقليد مسلما حقيقة أم اسما فقط ؟ كذلك نعلم أن الإمام الغزالي سلك في الوصول إلى الحق سبيل الشك ، وأنه بدأ بأن أخذ يناقش كل ما جاء عن طريق النقل لكي يكون إيمانه قائما على أساس التفكير والبحث الدأى . فهو يقول في كتابه المنقذ من الضلال : « وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأى ودينى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتى لا باختيارى وحيلتى ، حق انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد للورثة على قرب عهد سن الصبا : إذ رأيت صبيان النصرى لا يكون لهم نشوء إلا على النصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على اليهود . وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث :

المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه وينصرانه ، وبمجسانه ، فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين . . . الخ »  
فهذا دليل على أن جوتيه قد جانب الصواب عند ما اعتقد أن هناك نوعا من التناقض فى وصف مفكر من المفكرين بأنه مؤمن ، وأنه من أنصار العقل فى الوقت نفسه .

### ٣ - ابن رشد فيلسوف عقلى مؤمن

وحقيقة أخطأ جوتيه لأنه سوى ، بصفة غير شعورية ، بين مسلك الفلاسفة للسيحيين والمسلمين . فإنه يعلم دون ريب أن « ديكارت » - وهو من أكبر فلاسفتهم - لم يؤمن إيماناَ يعتمد على العقل واليقين وإنما بنى إيمانه على أساس ما تلقاه فى طفولته عن أبويه ، كذلك لا يجهل هذا المستشرق أن باسكال وهو مفكر مسيحى آخر كان يقول إن الإيمان نوع من المقامرة التى يضخى فيها الإنسان بعقله من أجل عقيدته . وباسكال هو الذى كان يخاطب العقل فيقول : « لتصمت أيها العقل النبى ، أيها العقل العاجز . الذى لا شأن له بالحديث فى هذه المشاكل الكبرى . »

أما أبو الوليد بن رشد فقد كان فيلسوفا عقليا ومؤمنا فى الوقت نفسه ، دون أن يكون فى ذلك تناقض ما ، ودون أن يضطر إلى تحقير عقله أو الغض من شأنه . كذلك كان مؤمنا مخلصا لأنه حاول التوفيق بين دينه وبين فكرته الفلسفية ، فألف فى ذلك كتابين لم يوجههما إلى العامة بل إلى الخاصة . والدليل على ذلك أنه أضاف بعد عرضه لنظرية التوفيق بين الدين والعقل رسالة أو ضميمة كان قد بعث بها إلى أحد أصدقائه وخلصائه ليزيده تفصيلا فى مسألة العلم الإلهى للأموه الجزئية . ونقول إنه أراد أن يزيده تفصيلا لأن الفكرة العامة توجد فى كتبه

الأخرى . وهذا معناه أن ابن رشد لم يشأ مطلقاً أن يتملق العامة أو يكسب عطفها وثقتها أو دفع شرها وعدوانها ؛ بل لقد رأينا أن مما أخذ عليه ، وكان سبباً في محنته ، أنه حاول التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأنه حاد عما كان عليه الأشاعرة . ولا بد أن يكون هذا الفيلسوف والشارح الأكبر قد بلغ درجة كبيرة من السفه في نظر « جوتيه » حتى يتملق عواطف العامة ويحاول التقرب إليها في الوقت الذي يسفه فيه آراء علماء الكلام المشهود لهم بالاجتهاد في أمور الدين . وليس بمعقول أن يكون ابن رشد قد حاول البرهنة على العقائد تملقاً للعامة ؛ إذ أن هذا التملق يكون أقرب إلى الاحتمال لو كان قد وقع على أثر النكبة التي حلت بابن رشد في أواخر أيام حياته . لكنه وفق بين الشريعة والحكمة في سن مبكرة عن ذلك . ونستطيع أن نستطرد أكثر من ذلك ، لو شئنا ، وأن نبين أسباباً أخرى تبرهن على أن « ليون جوتيه » الذي تخصص في دراسة فلسفة ابن رشد قد أساء فهم أهم كتب هذا الفيلسوف ، وغاب عنه أن هذا الكتاب الهام — وهو كتاب مناهج الأدلة — لم يكتب للعامة ، وإنما هوجمت فيه آراء الأشاعرة هجوماً لاهوادة فيه .

وربما كفانا في نقد آراء « جوتيه » أن نقول : كيف له أن يعترف تارة بأن ابن رشد كان مخلصاً في إيمانه وعقيدته ، ثم يدعى تارة أخرى أنه كان مرآياً وتملقاً ؟ إن هذا التناقض في الرأي والتقدير حجة لنا عليه . وهناك حجة أخرى وهي أنه لم يفتن إلى أن كتاب مناهج الأدلة الذي يحاول الغض من شأنه ، والتشكيك في قيمته كان نتيجة منطقية لكتاب فصل المقال الذي ترجمه هذا للشرق ، وبنى عليه آراءه في إخلاص ابن رشد لعقيدته ؛ إذ أن كتاب مناهج الأدلة تطبيق تفصيلي على فصل المقال . ولو كان ابن رشد على النحو الذي صوره « جوتيه » لكان مسلكه مضاداً لكل أمانة علمية ؛ بل مناقضاً لإيمانه الراسخ بوجود اتصال شديد بين الدين والفلسفة .

أما إذا كان فيلسوف قرطبة قد حاول البرهنة على العقائد الإسلامية فذلك

في رأينا ، لأنه أراد أولاً أن يحقق الوفاق بين جميع المسلمين ، ثم ليشبع رغبة أو حاجة عقلية ، كذلك التي شعر بها توماس الأكويني مثلاً عندما حاول جهده أن يجد أسساً عقلية لبعض عقائد المسيحية ، لا كلها . فكيف لهؤلاء المستشرقين أن يعترفوا بإخلاص الثاني في التدليل على بعض عقائدهم ، وينكروا في الوقت نفسه إخلاص الفيلسوف المسلم ، مع أنهم يعترفون ، من جانب آخر أن الأول تبع خطأ فيلسوفنا ، وترسم مهبجه وطريقته ، وأخذ عنه أدلته وبراهينه ؟ فهل مما يدعو إلى العجب في نظرهم أن يحاول ابن رشد البرهنة على العقائد بناء على معرفته لفلسفة أرسطو ؟ وإذا بقي لليون جوتيه — أو لغيره — قليل أو كثير من الشك في إخلاصه فإننا لانحني عجبنا ودهشتنا عندما نراه يجزم بإخلاصه في نظرية التوفيق بين الدين والفلسفة .

وإذا كان أبو الوليد يحرم التصريح للجمهور بنظرية الاتفاق بين الدين والفلسفة ، أو بتأويل المجتهدين لبعض النصوص المتشابهة لأن ذلك يوقع الناس في التباغض ويعرض الشرع للتمزيق ، وإذا كان يأخذ على الغزالي أنه صرح للجمهور بشيء من هذا القبيل ، وإذا كان يوجب على أئمة المسلمين أن ينهوا عن كتب أبي حامد التي تتضمن هذا العلم فلا يباح الاطلاع عليها إلا لمن كان أهلاً لها ، وإذا كان يصف المصرح بهذه التأويلات لغير أهلها بأنه كافر — نقول إذا كان هذا هو مسلكه فهل يعقل بعد ذلك كله أنه يوفق بين الدين والعقل من أجل الجمهور ، وأنه يريد أن يبين لهذا الأخير أنه لا تناقض بين الدين وفلسفة أرسطو ؟

لكن « جوتيه » لما بنى آراءه على فكرة غير محكمة ، وهي أن ابن رشد كان فيلسوف عقلياً ، بالمعنى الذي يفهمه المسيحيون ورجال الكهنوت منهم بصفة خاصة ، انتهى إلى الخطأ الجسيم الذي أفسد عليه بحثه ؛ لأن ابن رشد لم يكن على هذا النحو الذي خيل إليه ، ولأن جميع الآراء التي قال بها في كتاب « مناهج الأدلة » توجد في كل من « تهافت التهافت » و « فصل المقال » . وإذا كان هذا الفيلسوف قد سجل

في هذه الكتب شيئاً يختلف اختلافاً كبيراً أو قليلاً عما سجله في شروحه لكتب  
أرسطو فينبنى للمرء أولاً أن يكون عادلاً ، فلا يرى في ذلك دليلاً على أنه فيلسوف  
عقلى متطرف كما يزعمون أو كما يفهمون ؛ لأن الشارح رجل آخر غير الفيلسوف ،  
وقد يشرح الإنسان أو يترجم آراء لغيره ، دون أن يشاطر رأيه فيها .

على أن مسلك ابن رشد ليس غريباً عن مسلك المعتزلة أو الأشاعرة في التدليل  
على عقائد الدين . فالأمر لديه ، كما كان لديهم ، خاص بالبرهنة على هذه العقائد .  
وإذا هو اختلف عن هاتين الطائفتين فإن الاختلاف قاصر على النهج الذى يتبعه  
أو يطبقه ، ولا يمس مجال ما المهدف الذى يرمى إليه . فالأشاعرة والمعتزلة وابن رشد  
يهدفون إلى غاية واحدة ، وهى بيان أن حقيقة الشرع هى حقيقة العقل أيضاً .  
لكن المتكلمين استخدموا طرقاً جدلية وخطابية . أما هو فيستخدم كما يقول طرقاً  
برهانية . وهذا فى الحقيقة هو المسلك الذى الرّمه على وجه العموم فى البرهنة على  
العقائد الإسلامية ، تلك العقائد التى كان يؤمن بها إيماناً صادقاً ، لا يقوم على التقليد ؛  
بل على أساس من الاقتناع العقلى .

---

## الفصل الخامس

### البرهنة على وجود الله

يرى أبو الوليد أنه ينبغي لكل باحث يؤمن بالعقل وقيمته ويريد أن يبرهن على  
الوفاق بينه وبين الدين أن يبدأ ، قبل كل شيء ، بالتدليل على وجود الله . ذلك أن  
معرفة الله معرفة برهانية قائمة على أساس العقل والتفكير يجب أن تكون سابقة لكل  
معرفة سواها . هذا إلى أنها في الواقع مقدمة ضرورية لمعرفة وحدانيته وصفاته  
وأفعاله كخلق العالم وبعث الرسل ومسألة الحشر وأحواله . كذلك وجد هذا  
الفيلسوف أنه من الواجب على من يريد البرهنة العقلية على وجود الله أن يعرض  
أولا لأدلة الفرق الإسلامية التي سبقتة ، والتي كانت لها الغلبة على تفكير المسلمين .  
وهذا هو ما فعله . فقد بدأ بمناقشة آراء هذه الفرق في الأندلس وأشهرها طائفة أهل  
الظاهر ، تلك الطائفة التي يطلق عليها اسم الحشوية ؛ وطائفة الأشعرية التي تمثل  
أهل السنة وهم من المتكلمين ؛ وأخيرا طائفة الباطنية وهي التي يدخل فيها ابن رشد  
أهل التصوف . وتشارك هي الطوائف الثلاث ، حسبما يعتقد فيلسوف قرطبة ، في أنها  
ركنت إلى قضايا وتأويلات مستحدثة مبتدعة ، على الرغم من أن كل طائفة تزعم  
أنها هي التي تعبر وحدها عن الروح الحقيقية للدين ، وتبجح لنفسها ، تبعا لهذا  
الزعم ، أن تصف كل طائفة أخرى أو أي جماعة تخالفها في الرأي بإنها إما كافرة  
وإما مبتدعة مما أدى إلى الفرقة والتناحر المريع بين المسلمين .

### ١ - أدلة أهل الظاهر

لقد بدأ ابن رشد بهذه الطائفة لأنها أهون الطوائف شأنا ، وإن كانت أكثرها  
نفوذا في بلاد الأندلس والمغرب . وتنحصر أدلة هذه الفرقة في أن الوحي هو السبيل  
الوحيد إلى معرفة وجود الله ، أما العقل فليس بذى شأن في هذه المسألة ، لهذا السبب



اليسير، وهو أنه يعجز تماماً عن إثبات هذا الوجود . وقد لانقلو كثيراً ، أو لا نقلو ألبتة ، إذا قلنا إن هناك وجه شبه ما بين مسلك هذه الطائفة وبين مسلك بعض أصحاب الديانات الأخرى ، الذين تقوم عقائدهم الرئيسية على مايسمونه الأخذ عن السلف ، والذين لا يبيحون للعقل أن يطرق هذه المسائل ؛ لأنه أعجز ما يكون عن فهمها ولأنها أسرار إلهية كما يقولون . وحقيقة إذا سلم أهل الظاهر بأن العقل لا يستطيع أن يكون سبيلاً إلى إثبات وجود الله في ذلك نكران لأبسط مبادئ العقل ، ونعني به مبدأ السببية العام ؛ وهو ذلك المبدأ الذي يقول بأن لكل شيء سبباً ، وأن الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج ؛ كما تدل على ذلك الأمور الحسية التي تقع تحت ملاحظتنا دون انقطاع . وإذا عجز العقل عن إدراك معنى السببية الذي يكاد يكون بديهياً لدى الطفل؛ بل لدى الهمجى أيضاً ، فليس له إذن إلا أن يتقبل العقائد قبولاً سلبياً ، دون أن يحاول فهمها أو إدراك مراميها وغاياتها . وتلك في الحقيقة عقيدة أهل الظاهر الذين يرون أنهم لا يعرفون وجود الله عن طريق العقل؛ بل عن طريق السمع والنقل . ويترتب على هذه العقيدة أنه يكفي في الإيمان بوجود الله أن يأتي صاحب الشرع أو النبي فيخبر الناس بوجود الله . وعندئذ يجب عليهم أن ينقادوا إليه دون بحث ، وأن يؤمنوا به إيماناً أعمى ، وأن يأخذوا عنه كل ما يأتيهم به ، سواء أكان خاصاً بوصف الحياة الأخرى أم خاصاً بالفرائض والأعمال التي تحقق لهم السعادة في الدارين جميعاً . وقد يبدو هذا الرأي في مظهر الرأي السليم للوهلة الأولى . لكن هؤلاء الذين ذهبوا إليه ، أو استحسَنوه ، ينسون أن الإيمان بالأنبياء والرسل بادية ذى بدء يتطلب وجود العقل والحكم السديد لدى هؤلاء الذين ارتضوا أن يتبعوهم وأن يرحبوا بالدخول في الدين الذي جاءوا يبشرون به .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الطائفة تقرر أولاً وأخيراً أن سبيل الإيمان هي السمع لا العقل . فهم يوجبون على المؤمن أن يلتزم ظاهر الشرع وأن يتجنب كل تفسير أو تأويل ، أي أنهم يحرمون تأويل آيات القرآن الكريم حتى تلك الآيات

التي توهم التشبيه والتجسيم ، والتي تنسب إلى الله سبحانه صفات خلقه من البشر .  
ولم يشأ أبو الوليد أن يستخدم حججا عقلية في دحض آراء هذه الطائفة ؛  
ذلك أنه وجد من العبث أن يخاطبهم بلسان مجهولونه . فبقى إذن أن يركن إلى ذلك  
النوع من الحجج الذي يتلاءم مع طباعهم ومستوى تفكيرهم ، حتى يستطيع إقناعهم  
أو إخماسهم ؛ أي أنه استند في معاجزهم إلى الآيات القرآنية الكريمة التي تدل —  
حسب معناها الظاهر الذي لا يحتمل أو لا يحتاج إلى أي تأويل — على ضرورة  
استخدام العقل في إثبات وجود الله والإيمان به كقوله تعالى : « ربكم الذي خلقكم  
والدين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء  
وأنزله من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم  
تعلمون . » (١) ومثل قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف  
الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء  
ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب  
للسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون . » (٢) ومثل قوله عز وجل :  
« قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم ذنوبكم »  
الآية ، وغير ذلك من الآيات التي تدل على هذا المعنى في كثير من مواضع القرآن .  
لكن يجب ألا نقف طويلا لجدال هؤلاء وإظهار ضعف وجهة نظرهم ؛  
فإن ابن رشد يرى أنهم قد بلغوا حدا كبيرا من الغباء وضعف العقل وسوء فهم  
النصوص الظاهرة التي يريدون التزامها إلى درجة يعتبر الاستطراد في مناقشتهم  
نوعا من العبث ، أو ربما يوحى إليهم أنهم خصم له خطرهم . ولم يجد هذا الفيلسوف  
عبارة أكبر دلالة على احتقاره لشأنهم من أن يقول : « ولا يتمتع أن يوجد من  
الناس من تبلغ به فدامة العقل وبلادة القرينة إلى أن لا يفهم شيئا من الأدلة  
الشرعية التي نصبها صلى الله عليه وسلم للجمهور وهذا هو أقل الوجود . فإذا

(١) سورة البقرة آية ٢٠ ، ٢١ (٢) سورة البقرة آية ١٦٣

وجد ففرضه الإيمان من جهة السماع . « وبديهي أنه لا يمتلئهم في هذا للموضع ، كما قد يميل إلى جوتيه ؛ وإنما يهدف إلى الكشف عن جهلهم . ومع ذلك فإننا لانشر بوجود شيء من الحقد والكرهية في صدره تجاه هؤلاء القوم على الرغم من تلك السخرية البالغة بهم ؛ بل نلس ، من باب أولى ، كثيراً من التسامح الذي يرض به عادة أهل الظاهر على خصومهم . فابن رشد لا يفكر مطلقاً في أن يرميهم بالكفر أو الابتداع ؛ بل يعترف بأن من يقبل وجهة نظر هؤلاء قليل عددهم من بين المسلمين . وعلى فرض أن مثل هؤلاء القوم يوجدون حقيقة فإنهم مكفون بالإيمان عن طريق السماع . ولربما كان ذلك خيراً لهم ؛ بل هذا هو ما يوجه ابن رشد ، دون رياء أو نفاق . والسبب في ذلك أن الرجل العاى الذى لا يرقى فى مداركه إلى قبول الأدلة الحطائية والجدلية ، فضلاً عن الأدلة البرهانية العلمية ، ينبغي له أن يقف فى إيمانه عند حد الظاهر ، وليس له أن يسأل عما يفوق مستواه العقلى . كذلك ليس للعالم أن يعرض عليه برأيه وحججه أو يقوده إلى الدخول فى تفصيل أمور قد يضطرب لها اعتقاده . فإن فعل كذلك كان مسئولاً عما ارتكبه فى حق أخيه فى الإيمان ، أى أنه يعتبر كافراً أو مبتدعاً لأنه ينتهى بغيره إلى الكفر أو إلى الابتداع . وقد لخص أبو الوليد رأيه فى كلمة موجزة معبرة وهى : قوله : « إن الشريعة قسمان ظاهر ومؤول . وإن الظاهر منها فرض الجمهور وإن المؤول فرض العلماء . » وقد كان للمسلمون فى الصدر الأول من الإسلام يفرقون حقيقة بين الظاهر والباطن فى الشرع ، ويقررون أنه ينبغي ألا يصرح بالتأويل إلا لمن هو أهل له . والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن على رضى الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون آريدون أن يكذب الله ورسوله . هذا وقد فرق بعض السلف بين هذين القسمين فى الشريعة . فإذا أخطأ العالم بعد ذلك فى فهمه للقسم الذى ينبغي تأويله فإن كان خطأه بسبب شبهة عرضت له وجب ألا نسارع إلى الحكم بتكفيره » ولذلك قال عليه السلام إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله

أجران ، وإن أخطأ فله أجر . » (١) أما إذا أخطأ بغير عذر فإن كان خطؤه في المقائد الأولى كالإيمان بوجود الله وملائكته ورسله واليوم الآخر فيعتبر تأويله كتمراً ؛ أما إذا كان في بعض المسائل الجزئية كالعبادات أو للعمليات كان ذلك ابتداء . كذلك يوصف بالكفر - كما ذكرنا - إذا صرّح بتأويل صحيح للجمهور الذي لا يستطيع فهمه . وقد قال أبو الوليد : « ولذلك نرى أن من كان من الناس في حقه الإيمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر ؛ لأنه يؤدي إلى الكفر . فمن أفساه له من أهل التأويل فقد دعاه إلى الكفر والداعى إلى الكفر كافر . ولهذا يجب ألا تثبت التأويلات إلا في كتب البراهين لأنها إذا كانت في كتب البراهين لم يصل إليها إلا من أهل البرهان . » (٢) وهذا هو السبب في أنه يأخذ على أبي حامد الغزالي أنه أخطأ عند ما صرّح ببعض التأويلات في كتبه للامة . وقد أدى هذا التصريح - منه ومن غيره - إلى نشأة فرق متنافرة في الإسلام ، حاولت كل فرقة منها أن تكفر غيرها ، وأن تحكم على آرائها بأنه بدع ومروق . وهذا هو ما فعلته مثلاً كل من طائفة المعتزلة وطائفة الأشعرية « فأوقعوا الناس من قبل ذلك في شتآن وتباغض وحروب ومزقوا الشرع ، وفرقوا الناس كل التفريق . »

## ٢ - أدلة الأشعرية

غير أن أبا الوليد ، وإن لم يحفل كثيراً بطائفة أهل الظاهر . فإنه لا يرضن بالوقوف وقفة طويلة لمناقشة الأشاعرة ؛ ذلك لأنهم خصوم أقوياء لهم خطرهم ، وبخاصة بعد أن تغلغت آراؤهم في النفوس ، نظراً لأن تلك الآراء قد اعتمدت على حجج لها مسحة من المنطق ، وإن لم تكن منطقية في حقيقة الأمر . فالأشاعرة في الواقع جماعة يعتمدون في الأعم الأغلب على مجموعة من الأدلة الجدلية . وسيكون مسلك فيلسوفنا معهم مسلك الجدل حتى يستطيع نقض آرائهم ، وحتى يستطيعوا من جانبهم

أن يروا كيف تتساقط حججهم تحت ضربات نقده . ولو أنهم كانوا يعلمون شيئاً من الطرق البرهانية لما بخل عليهم بها . غير أنهم لم يصلوا بعد إلى هذا المستوى . وهكذا يحول لفيلسوف قرطبة أن يخاطب كل فريق على قدر ما يقبله عقله . وقد سبق أن استخدم مثل هذا الأسلوب بمهارة كبيرة في نزاعه مع الغزالي . لكن يجب علينا أن نقطن إلى هذا الأمر الذى له خطره ، والذى قد تفضى بنا إساءة فهمه إلى نتائج خاطئة ، ذلك أنه يتفق له في هذه الحال أن يضع بعض القضايا الفاسدة أو يسلّم بصحة بعض الآراء غير الصادقة ، لكي يبرهن بذلك على فساد آراء خصومه . ومعنى ذلك أنه يبنى لنا ألا نخلط بين مثل هذه القضايا التى يراد بها الجدل بالآراء الحقيقية لفيلسوف قرطبة .

وهالك نموذجاً لمنهج في دحض آراء الأشعرية . فقد اعتمد هؤلاء القوم على برهانين في إثبات وجود الله ، وهما : البرهان الذى يبنى على نظريتهم في الجوهر الفرد ، والبرهان القائم على التفرقة بين الممكن والواجب .

### ١ — البرهان القائم على نظرية الجوهر الفرد :

أراد الأشاعرة أن يبرهنوا على وجود الله بحدوث العالم ، فاضطروا إلى التدليل على صحة هذه القضية الأخيرة بإثبات حدوث الجوهر الفرد . وتلخص طريقتهم هذه في إثبات أن الأجسام التى نشاهدها في العالم ليست بسيطة وإنما هى مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، أى من جواهر فردة . وقد برهنوا على حدوث الجوهر الفرد بثلاث مقدمات وهى : أن الجواهر لا تنفك عن الأعراض ، بمعنى أن كل جوهر له صفات عارضة لا يمكن أن يوجدونها ، وأن هذه الأعراض حادثة لأنها تنغير ، وأن مالا ينفك عن الحوادث فهو حادث .<sup>(١)</sup> فإذا كانت هذه الجواهر حادثة كان العالم الذى يتألف

(١) وقد قال ابن رشد ينقده هذه المقدمات : «فأما المقدمة الأولى، وهى القائلة بأن الجواهر =

منها محدثاً ، واحتاج في حدوثه إلى سبب . وهذا السبب هو الله سبحانه .  
وتلك هي الحجة التي يرى ابن رشد أنها غير منطقية أو برهانية . وهي إلى  
جانب ذلك معقدة يصعب فهمها ، حتى على من حذقوا صناعة الجدل فضلاً عن الجمهور .  
وإنما كانت عسيرة الفهم لأنها تفضي إلى نتيجة يعجز أصحابها عن حلها . وذلك أننا  
نستطيع أن نتبع معهم طريقة الجدل أو القسمة العقلية فنقول : إنه لا يمكن اعتبار  
الحالق قديماً أو حادثاً على مذهبهم . لأنه لو كان حادثاً لوجب أن يحتاج إلى محدث ،  
وهذا المحدث إلى آخر وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية له . كذلك لا يمكن اعتباره  
قديماً لأن فعله وهو الخلق — لا بد أن يكون قديماً مثله . وبناء على ذلك يجب  
أن تكون الأشياء التي ينصب عليها هذا الفعل قديمة أيضاً . فأى الفرضين فرضنا  
كانت النتيجة غير مقنعة . ولهذا يصف طريقتهم بأنها « غير برهانية ولا مفضية يقين  
إلى وجود البارئ » . فإن القول بأن الأشياء التي ينصب عليها فعل الحالق قديمة أو أزلية  
يؤدي إلى التناقض ، وإلى عكس ما يريدون من إثبات حدوثها . ولو قالوا إنها حادثة  
بأفعال قديمة لم يسلموا من التناقض ؛ لأن من أصولهم الأساسية أن كل ما يقترن  
بالحوادث فهو حادث مثلها ، أي أنهم يضطرون إلى القول بأن الله سبحانه أفعالاً  
تحدث في الزمن . وهذا أمر لا يرتضونه لأنهم يقولون بأن الله قديم ولا يوصف  
بصفات حادثة .

---

== لا تسمى من الأعراض فإن عنوا بها الأجسام المشار إليها القائمة بناتها فهي مقدمة صحيحة ،  
ولأن عنوا بالجوهر الجزء الذي لا ينقسم ، وهو الذي يريدونه بالجواهر الفرد ، ففيها شك ليس  
باليسع . وذلك بأن وجود جوهر غير منقسم ليس معروفاً بنفسه ، وفي وجوده أقاويل متضادة شديدة  
التساند . وليس في قوة صناعة الكلام تخليص الحق منها ؛ وإنما ذلك لصناعة البرهان . وأهل هذه  
الصناعة قليل جداً . والدلائل التي تستعملها الأشعرية في إثباته هي خطافية في الأكثر . . . . .  
وأما المقدمة الثانية وهي القائلة بأن جميع الأعراض محدثة فهي مقدمة مشكوك فيها . وخفاء هذا المعنى  
فيها لحفائه في الجسم . . . . . وأما المقدمة الثالثة وهي القائلة بأن ما لا يتخلو من الحوادث فهي مقدمة  
حشركة الاسم ، وذلك أنه يمكن أن تفهم على معنيين . . . الخ

وقد أرادوا الفرار من هذه الشبهة فقالوا : إن الله يخلق الأشياء الحادثة بإرادة قديمة . وليس هذا في الحقيقة حلالها ؛ وإنما هو ترك للمشكلة كما هي ، بل ربما كان ذلك الجواب سببا في زيادة تعقيدها . لأننا سواء أقرضنا الإرادة قديمة أم حادثة فإننا نجد أنفسنا دائما أمام ثلاثة أمور : فإما أن ننسب إلى الله سبحانه أفعالا حادثة وإرادة حادثة ، وإما أفعالا حادثة وإرادة قديمة ، وإما أفعالا قديمة وإرادة قديمة . وبديهي أن الأشاعرة لا يسلون بصحة الفرضين الأولين لأنهم ينكرون أن تكون إرادة الله حادثة ، ولأنهم يرون أن الذي لا يخلو من الحوادث فهو حادث أيضا . فبقى أن نناقش معهم الفرض الثالث لنجد أنهم لو قالوا بأن الأفعال قديمة لكان ذلك رجوعا صريحا إلى الصعوبة التي رأيناها منذ قليل ؛ إذ كيف يكون الفعل قديما والمفعول حادثا . وتلك هي الصعوبة التي ألبأت فلاسفة المسلمين من أمثال الفارابي وابن سينا إلى تفسير الخلق بنظرية غريبة عن روح الدين ، وهي نظرية الفيض التي تتلخص في أن الله سبحانه يفيض عنه عقل ، وعن هذا العقل عقل آخر ، وهكذا حتى ينتهي الفيض إلى الأجسام التي يحتوى عليها الكون . وليس للأشاعرة فيما عدا ذلك أن يسووا بين الأفعال القديمة والإرادة القديمة ؛ لأننا نعلم أن الفعل شيء والإرادة شيء آخر ؛ إذ الإرادة شرط في وجود الفعل ، وليس هناك ما يميز لنا التسوية بين الشرط والشروط .

وأخيرا فإننا نجد هذه الصعوبات نفسها إذا قلنا بقدم الإرادة ؛ إذ ما الذي يوجب أن تكون الإرادة سببا في وجود فعل من الأفعال في وقت دون وقت آخر ؟ وإذا كانت سابقة للفعل فلا بد من وجود عزم أو تصميم على إيجاد نتيجة هذا الفعل . وهذا العزم أو التصميم شيء جديد لم يكن موجودا قبل ذلك . فكل هذه شكوك عويصة يعجز عن حلها علماء الكلام . فكيف يحق لهم أن يكلفوا الجمهور بفهمها ؟ إن هذا لنوع من التكليف بما لا يطاق ؛ في حين أن طريقة معرفة الله التي أرادها القرآن للجمهور أكثر وضوحا من طريقة الأشعرية ، وهي في الوقت نفسه طريقة

الحكماء والفلاسفة ، بمعنى أنهم لا يفترون عن العوام إلا من جهة درجة العلم والتعمق فيه . وتلك في الواقع فكرة حقة يعترف بها علماء عصرنا هذا عندما يقولون بأن للعرفة العلمية امتداد للمعرفة العادية لدى الجمهور ، وليست مضادة لها في جوهرها . (١)

وقد نجح إلى المرء أن ابن رشد يحاول أن ينكر حدوث العالم . لكن ليس الأمر كذلك ألبتة ؛ لأننا سنراه يبرهن على هذا الحدوث ، ويؤكد أن العالم خلق في غير زمن ومن غير مادة ، أى أنه خلق من العدم ، وأن فكرة الزمن لا تنطبق على أفعاله تعالى ؛ وإنما تنطبق على الأشياء المادية أو على أفعال الإنسان . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن خلق الله للعالم أمر ليس له مثل في عالم الحس . فإنه لم يكن هناك حركة قبل خلق العالم ؛ لأن الحركة إنما تكون للأجسام . ومتى لم توجد الحركة فلا وجود للزمن ؛ لأن الزمان مقياس الحركة : ألسنا نقدر السنين والحساب بناء على حركة الأجرام السماوية ؟ كذلك نرى أن ما خلقه الإنسان — أو يصنعه بعبارة أدق — يحتاج إلى مادة سابقة ، ومن الضروري أن يتم خلقه أو صنعه في زمن محدود ، طال أم قصر . ولا يستطيع الأشاعرة — كما يقول ابن رشد — أن يدركوا معنى الخلق في غير زمن ؛ لأنهم لا يحسنون التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة . وفيما عدا ذلك يرجع السبب في فساد نظريتهم إلى أنهم اعتمدوا على نظرية فلسفية غير برهانية وهى نظرية الجوهر الفرد .

---

(١) أنظر كتابنا « المنطق الحديث ومناهج البحث » .



## ب — برهانه الممكن والواجب :

وقد سلك أبو العالى طريقاً أخرى فى البرهنة على وجود الله . وتنحصر هذه الطريقة الجديدة فى التفرقة بين الواجب والممكن . فالعالم جائز الحدوث ، ومن الممكن أن يوجد على نحو آخر غير الذى يوجد عليه . وإذن . فلا بد من وجود سبب جعله على النحو الذى هو عليه الآن . لكن ليس هذا يبرهان فى نظر ابن رشد؛ فإن هؤلاء الذين يستقدون أن الكون ، بمجموع ما يحتوى عليه ، يمكن أن يوجد على نحو مخالف لما يوجد عليه حسب الواقع يشبهون هذا الرجل الجاهل الذى يفحص آله مصنوعة فيخيل إليه أنه من الممكن أن تركب بطريقة أخرى ، دون أن يطرأ أى تعديل أو تحوير على الغاية التى صنعت من أجلها — أو كهذا العالم الذى دفعه غروره فى القرن التاسع عشر إلى القول بأن العين الإنسانية أداة ناقصة للإبصار ، وإنه من الممكن أن توجد على وضع أفضل مما هى عليه ، وبأن الجسم العضوى يحتوى على أعضاء كان يمكن ألا توجد فيه — أو يشبهون فى جملة القول هؤلاء الذين ينكرون وجود غايات فى الطبيعة، ويمجدون وجود الأسباب الضرورية ، ويظنون أن الصدفة وحدها تكفى فى تحقيق أشد الغايات أو النتائج اختلافاً .

ومع أن فيلسوف قرطبة يرفض مثل هذا البرهان فإننا نجد خصمه اللدود توماس الأكوينى يستخدم هذا البرهان نفسه فى عرض مذهبه ، دون أن يفتن إلى أنه يناقض بذلك كثيراً من النظريات التى أخذها من فيلسوفنا ، وارتضاها لنفسه . وحقيقة سوف يحتل هذا البرهان مكاناً هاماً فى مذهب توماس الأكوينى ؛ فقد استخدمه ، على حد سواء ، فى البرهنة على خلق العالم وحرية الإرادة الإلهية . قفى رأيه ليس العالم الموجود بالفعل أفضل عالم يمكن أن يوجد ؛ بل يستطيع الله أن يوجد عالماً خيراً منه . وإذا كنا نرى هذا العالم غاية فى الكمال فذلك لأن الله خلقه .

لكن ابن رشد يرى عكس ذلك ؛ إذ يقول بأن هذا العالم إنما يوجد لأنه أفضل عالم

يمكن . وليس في ذلك إنكار للإرادة الإلهية كما ظن ابن تيمية ؛ لأن الإرادة الإلهية لا تشبه إرادة الإنسان في شيء . فهي أسمى من أن تتردد في اختيار أحد الجائزين ؛ إذ أن هذا شأن الإنسان الذي يجهل أى الجائزين أحق بالاختيار . وهذا هو السبب في أن فيلسوف قرطبة يقضى بأن التكميلين ، وبخاصة أبا المعالي صاحب هذا البرهان ، جماعة يجهلون حكمة الخالق الذى أحسن كل شيء خلقه ، والذى حدّد لكل شيء غايته . وكيف يمكن قبول هذا البرهان الذى ينفي فكرة الحكمة والتدبير الألهيين ؛ وأى حكمة هناك لو كان الإنسان يستطيع القيام بجميع أعماله وأفعاله بأى عضو اتفق . « أو بغير عضو حتى يكون الإبصار مثلاً يتأتى بالأذن كما يتأتى بالعين ، والشم بالعين كما يتأتى بالأنف . وهذا كله إبطال للحكمة وإبطال للمعنى الذى سمى به نفساً حكماً ، تعالى وتقدست أسماؤه عن ذلك . »

ومع هذا فقد كتب لبرهان أبي المعالي مجد عريض في علم الكلام وفي الفلسفة الإسلامية ، ثم في الفلسفة المسيحية في أثناء العصور الوسطى وحق الآن . وذلك أنه كان أساساً اعتمد عليه ابن سينا لوضع برهانه آخر أخذه عنه الأوربيون . فإن الرئيس ابن سينا يفرّق بين نوعين من الأمور الممكنة . فهناك نوع يقال عنه إنه يمكن في ذاته ، ونوع يوصف بأنه واجب بغيره ويمكن في حد ذاته . أما الأول فهو الممكن الذى لم تقتض الإرادة الإلهية إيجاداً بالفعل ، وأما الآخر فهو الممكن في ذاته بعد أن تحقق بالفعل ، فأصبح وجوده واجباً بناء على إرادته خالقه . وفي هذا الممكن الأخير نستطيع التفرقة بين شيئين هما : الماهية والوجود . أما الماهية فالمراد بها مجرد إمكان الشيء ، والوجود شيء يعرض لها من الخارج ويجعلها وجوداً ضرورياً بعد أن كانت مجرد إمكان .

لكن ابن رشد يرى أن هذه التفرقة لا معنى لها ، وأن رأى ابن سينا في غاية من الوهن والسقوط ؛ لأنه يبدأ بأن يفرق بين ماهية الشيء ووجوده تفرقة ذهنية منطقية ، ثم يعتقد أنها توجد بحسب الحقيقة . وهذه صورة من المذهب الفلسفي

الساذج الذى يظن أن وجود المصطلحات دليل على وجود ما يقابلها فى الخارج ، مع أننا نعلم أن الإنسان قد يضع ألفاظاً لكائنات خيالية أسطورية كالعنقاء . وفيما عدا ذلك نجد أن هذه التفرقة غير مجدية ؛ لأن الله يخلق الأشياء دفعة واحدة ماهية ووجوداً . لأننا لو قلنا بأن الماهية تسبق الوجود لكان معناها أننا نقول بأن العدم الذى تنشأ منه الأشياء ذات حقيقية . وهذا هو ما وقع فيه بعض المتكلمين ، وهم المعتزلة ، عندما قالوا : إن العدم ذات وإنه يحتوى على الجواهر والأعراض قبل حدوثها . وكأنهم ينفلون عما يؤدى إليه هذا الرأى من القول بوجود مادة قديمة مع الخالق ، وحقيقة لم يستطع هؤلاء المتكلمون أن يتغلبوا على تلك الصعوبة التى وقع فيها فلاسفة الإغريق من قبل من أمثال أرسطو وأفلاطون . (١) فكأنهم تدرجوا بطريقة خفية إلى التسليم بقديم المادة الأولى التى تخلق منها الأشياء . ويخيل إلينا أن ابن سينا عندما فرق بين الماهية والوجود تفرقة عقلية ظن أن هذا هو ما يحدث فعلاً عندما يخلق الله الأشياء ، أى كأن الله سبحانه يفكر على غرار الإنسان فيخلق الماهية أولاً ، ثم يضيف إليها الوجود بعد ذلك !

وحيث إننا إذا كان الحشوية أناساً بلغوا من بلادة القريحة وفدامة التفكير مبلغاً كبيراً يوجب الإشفاق أكثر مما يدعو إلى السخرية بهم فإن الأشاعرة — وإن كانوا أسمى مرتبة منهم ، وأكثر ذكاء — ليسوا بسبب ذلك أهلاً للتفكير النظرى البرهاني . ويعلل ابن رشد هذا الحكم الأخير بأنهم ربما مهروا فى طريقة الجدل وتفريع المسائل تفریباً قد لا يتبى عند حد ، وقد يدعو إلى سأم من يتابع أدلتهم ، ومع ذلك فإنهم يعتمدون على آراء ونظريات شائعة تبدو فى مظهر الحقيقة لكنها خاطئة فى أكثر الأحيان . ومهما يكن من شىء فإنهم يحاولون البرهنة على وجود الله اعتماداً على هذه الآراء والنظريات غير أنهم لا يحققون الغرض الذى

(١) قد عرضنا لهذه المسألة فى محاضراتنا بكلية دار العلوم . وسوف ننشر هذه المحاضرات

يهدفون إليه ؛ بل لا يفعلون سوى أن يثيروا شبهات يعجزون ، هم أنفسهم ، عن حلها لو تركناهم يتخطون فيها بمنهجهم وطرقهم الخاصة . هذا إلى أن هذه الشبهات لا تخفى عن أعينهم .

وربما قيل إن برهانهم الذى يعتمد على فكرة التفرقة بين الممكن والواجب لبس برهاناً معقداً كالبرهان الأول الذى يقول بمحدث الجوهر الفرد لحدوث الأعراض التى تطرأ عليه ؛ بل هو برهان أقرب إلى أذهان العامة ، وقد يصلح فى اقتناعهم بوجود الله . ويجيب ابن رشد على هذا الاعتراض بأنه على الرغم مما يبدو من بساطة برهان ابن سينا فإنه شديد الخطر ، وذلك لأنه يوشك أن يقود الجمهور إلى التردى فى الخطأ . فقد يتساءل الرجل الساذج فيقول : إذا أمكن أن يوجد العالم بجميع كائناته على نحو آخر فليس الله سبحانه حكماً . وليس بعجيب أن يتسرب الشك إلى قلبه ؛ لأنه يحس حسداً غامضاً بتلك الحقيقة العلمية التى تقول بأن الحكمة ليست أكثر من معرفة الأسباب الحقيقية الضرورية التى تؤدى إلى وجود الأشياء ، أى أنها تنحصر فى معرفة الغايات المحددة التى من أجلها خلقت . وهذه الأسباب لا تتضمن فكرة الاحتمال أو التردد فى الاختيار بين أحد أمرين . أو تقول بعبارة حديثة : إن الرجل العادى يفترض أن الطبيعة تخضع لنظام امام مطرد ، وأن هذا النظام يهدف إلى غايات محددة .

وهل هذا النحو ينتهى أبو الوليد بن رشد فى تقديمه لبرهان للتكلمين ، متقدمين ومتأخرين ، إلى هذه النتيجة وهى : أن طرقهم التى سلكوها فى البرهنة على وجود الله ليست برهانية وليست فى الوقت نفسه طرقاً شرعية ؛ لأن القرآن الكريم يحتوى على براهين أخرى تمتاز بعدم التعقيد وبأنها مشتركة بين الناس جميعاً ، مهما اختلفت ثقافتهم ومراتبهم فى الدكاء . فهى تصلح فى آن واحد للعامة والعلماء — وهم الناس حقيقة فى نظر ابن رشد — وهذا دليل واضح على أن الدين والعقل يسيران دائماً جنباً إلى جنب .

### ٣ — أدلة الصوفية

أما متصوفو الإسلام فقد سلكوا طريقة جديدة لا تشبه في شيء طريقة الجدل التي رأيناها لدى الأشاعرة ، ولا تمت بنسب إلى طريقة أهل الظاهر ؛ بل ربما كانت على طرفي نقيض مع هذه الأخيرة . كذلك لم يتبع أهل التصوف منهج العلماء والفلاسفة . ويرجع السبب في انفرادهم بمنهج خاص بهم إلى أنهم لا يبنون براهينهم على مقدمات يقينية ، كما يفعل العلماء ، ولا على مقدمات ظنية أو مشهورة ، كما يفعل أهل الكلام ؛ بل زعموا أنهم يستطيعون الوصول إلى معرفة وجود الله بنوع من الحدس الصوفي الذي يتلخص في أن الإنسان متى كبح جماح شهوته وانتهى إلى القضاء على رغباته للمادية والدينية فإنه قد يتاح له الاتصال بالله أو العروج إلى الملائكة الأسمى . وعندئذ تفيض في نفسه معرفة إلهية لا تجرى على السنن المعروفة أو الطبيعية . فليست المعرفة نوعا من الاكتساب أو نتيجة للتصحيح للصور المتشددة ؛ وإنما هي نوع من الفيض أو المعجزات ، أو الكشف الإلهي الذي ينبثق في نفس العارف دفعة واحدة ؛ فتفتح له آفاق العالمين : عالم الخلق وعالم الأسمى . وقد عضد المتصوفة رأيهم هذا بتأويل بعض الآيات القرآنية الكريمة وتأويلها ربما لم يشاركهم فيه كثير من المسلمين . فمن ذلك الآيات قوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . »

وقد كان ابن رشد أحد هؤلاء المسلمين الذين لم يرتضوا هذا التأويل ؛ لأننا لو فرضنا جدلا أنه صحيح لترتب على ذلك نتائج ذات خطر وشأن ، بمعنى أن الإسلام لن يكون في متناول الناس جميعا ؛ بل في متناول طائفة خاصة منهم تدعى لنفسها حقا تنسك على الآخرين . فهي وحدها التي تستطيع أن تفهم الشرع ، وأن تتوغل في الدين برفق — أو بغير رفق — وهي التي ستنصب نفسها حكما في تأويل الآيات وتأويلها لا تضبطه قواعد ولا يقف عند حدود . وليس للآخرين — من الذين حرموا

الوصول إلى هذه. المنزلة — إلا أن يأخذوا عنهم وأن يمشوا لهم ، وأن يحدوا سلوكهم في هذه الحياة تبعاً للأساليب التي يقررها هؤلاء . وكأننا نرى ظهور طبقة خاصة من الكهنوت في الإسلام ، أى طبقة تريد أن تحتكر التأويل وتبيح لنفسها أن تحقر العقل والنطق ، وأن تنادى بوجود حقائق باطنة مخفية ليس للعقل أن يضعها موضع البحث والمناقشة ؛ وإنما ينبغي له أن يخفض جناحه، وأن يحس ليفسح الطريق أمامها إلى القلوب والعاطفة . وتلك في الحقي فكرة غريبة عن روح الإسلام ؛ بل هي وليدة احتكاك المسلمين ببعض أصحاب الديانات الأخرى . أما أنها منافية لروح هذا الدين فذلك لأنها تتناقض تماماً مع الأدلة الصريحة التي اعتمد عليها القرآن في إثبات وجود الله . فنحن نعلم أن كتاب الله يدعو الناس في كثير من آياته إلى استخدام العقل والتفكير . كذلك نعلم أن جمهرة المسلمين يرون أن الرجوع إلى النصوص الظاهرة في مثل هذه المسألة أولى من اتباع آراء ينطرق الريب إلى مصادرها ومنابعها .

أما ما يزعمونه من أن القضاء على كل المطالب والارغائب اللهنيوية هو السبيل الوحيدة إلى المعرفة ففيه كثير من الادعاء . حقاً إن تهذيب النفس وأخذها بالفضيلة يساعد على تحصيل المعرفة . لكنه ليس شرطاً كافياً في ذلك ؛ كما أن سلامة الجسم شرط في صحة التفكير ، دون أن تكون السبب الوحيد الذي يؤدي إليها . فيجب إذن ألا نخلط ، غافلين ، بين السبب الحقيقي وبين بعض الشروط المساعدة التي تعمل على تحقيق هذا السبب . فهناك شروط ثانوية وشروط أساسية في المعرفة . وليس من الضروري أن يكون كل عالم فاضلاً أو متصوفاً ، كما أنه ليس من الواجب المحتوم أن يكون أهل التصوف علماء ؛ بل يدلنا الواقع على أن استعداد الشخص وذكاءه وبيئته هي الأمور التي تحدد اتجاهه العلمي ، وهي التي ستكون في نهاية الأمر سبباً في علمه أو في جهله . وحقائق لا نود الاستطراد في نقد رأي للتصوفة في هذه المسألة ؛ لأنه من الخطأ البين القول بأن الزهد والتعشق كافيان

في تحصيل المعرفة ، مع أن المقصود منهما هو تهذيب السلوك العملي . ولو أنصف المتصوفة وأعطوا للواقع نصيبا في ملاحظتهم لعلوا أن المعرفة النظرية لا تكتسب بنوع من الحدس الصوفي أو الفيض ، وإنما لها مناهجها ومعاملها وأساليبها الخاصة .

ومن الأكد أن موقف ابن رشد من آراء للتصوفة دليل على كذب تلك تلك الدعوى القائلة بأنه كان يؤمن بنظرية الاتصال الصوفي على النحو الذي فهمه أو تظاهر بفهمه فلاسفة المسلمين قبله ، كالغزالي وابن سينا والفارابي . وقد كان مسيحيو أوروبا منذ القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين — هم الذين نسبوا إليه هذه النظرية التي كان أبعد الناس عن تعييدها . ونؤكد — اختصارا للقول (١) — أن فيلسوف قرطبة لم يكن من الغفلة إلى هذا الحد الذي يجعله يوفق أو يجمع بين رأيين متناقضين تماما في تفسير المعرفة الإنسانية ؛ إذ كيف يتصور من الشارح الأكبر لأرسطو أن يقبل رأى المتصوفة الذي يرجع إلى نظريات أفلاطون وفلاسفة الإسكندرية — وإلى رواسب من المسيحية أيضا — إذا كان يعتقد من جانب آخر أن معرفة الله لا تكتسب إلا بالبحث النظري الذي يبدأ من المدركات الحسية ، أى من الأشياء التي توقفنا عليها حواسنا من سمع وبصر الخ ؛ ثم يرقى في مدارج المعرفة حتى يصل إلى أمسى مراتبها وهي المعرفة الفلسفية ، أى إلى تلك المعرفة النظرية التي تنحصر في معرفة الأشياء بأسبابها — كما يقول العلم الحديث — لا في الاتحاد الصوفي ، ويريدون به الفناء في الله سبحانه والاطلاع على أمور يعجز العقل عن إدراكها . وحقائقه لو كان الأمر كما يزعمون لكان الإنسان مساويا في ذاته لله ، جل وعلا عما يقولون علوا كبيرا . وهذا رأى لا يقبله العقل ، أو لا يرتضيه من يحترم تفكيره ، أو من يعلم أن حركة العلوم في العصر الراهن بعيدة عن التصوف .

وأخيرا لو كان رأى للتصوفة صحيحاً ، أو يمكننا على أكثر تقدير ، لكان وجود

---

(١) انظر تفصيل هذه المسألة في كتابنا « في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام » .

الأدلة الشرعية عبثاً، ولوجب تكليف الناس بما لا يطيقون؛ إذ ينبغي لهم أن يتصلوا بالله تعالى اتصالاً صوفياً — مشکوكاً فيه إلى أكبر حد — حتى يقفوا على وجوده !

## ٤ — أدلة ابن رشد على وجود الله

رأينا كيف رفض هذا الفيلسوف أدلة كل من أهل الظاهر والمتكلمين والنسوفة ووصفها جميعاً بأنها ليست شرعية، أى ليست بتلك البراهين التي جاء القرآن بها ونبه الجمهور على استخدامها؛ وأنها ليست برهانية، أى منطقية تلتزم المرء الحجج على النحو الذي نجد مثلاً في البراهين الرياضية. لذلك بقى عليه أن يهدينا إلى تلك الأدلة التي تقررها الفلسفة، والتي تنفق، في رأيه، مع ماجاء به الدين الإسلامي. وهذا هو ما فعله أبو الوليد عندما عرض هذه الأدلة في مواطن مختلفة من كتبه، وهذه الأدلة ثلاثة :

### ١ — دليل الحركة :

أخذ ابن رشد هذا الدليل عن أرسطو. فإن هذا الأخير — وإن اعتمد في كتب شبابه على برهان السببية أو برهان العناية الإلهية في السكون — فإن برهانه الأساسي على وجود الله هو الذي يتلخص في أن هذا العالم يتحرك حركة أبدية دأمة، ويتضمن وجود محرك أول لا يتحرك، وغير مادي، وهو الله في مذهبه. لكن فيلسوفنا لا يذهب منذهب أرسطو في القول بأن حركات الأفلاك السماوية في هذا العالم قديمة؛ بل يرى أن الأفلاك وحركاتها مخلوقة لله من العدم وفي غير زمان؛ لأن الزمان لا يمكن أن يسبق وجود الأشياء. فالحركة مادمنا قد اعتبرناه مقياساً لحركاتها. فالحركة تتطلب إذن محركاً أول، أو سبباً يخرجها من العدم إلى الوجود. حقا إن برهان الحركة الذي يعرضه أبو الوليد هنا برهان خاص بالعلماء؛ لأن العامة تقصر عن فهم فكرة الخلق، كبده مطلق، أى من غير مادة



سابقة وفي غير زمان . ومع ذلك فسبرى مهارة هذا الفيلسوف عندما يرجع هذا البرهان العلمي إلى أحد البرهانين الآخرين الذين يستوى أمامها العلماء والعامّة .

### ب — دليل العناية الإلهية أو الأسباب الفضائية :

قد أشار أرسطو إلى هذا البرهان في بعض كتاباته الأولى كما قلنا . وهو ينحصر لديه في أن الطبيعة تحتوى على آيات وعلامات تدل دلالة واضحة على وجود عناية إلهية في الكون . وهذه العناية في نظره تنسب إلى الله ، أو الآلهة أى إلى تلك العقول التى تحرك الأفلاك السماوية ، حسبما كان يعتقد هذا الفيلسوف الوثنى . لكنه رجع عن هذا الرأى فى أيام نضجه ، واكتفى بدليل الحركة ، قبدأ بإثبات أن الأفلاك السماوية تتحرك حركة دائمة أبدية ، وهذه الحركة لا بد أن ترجع إلى محرك أول لا يتحرك أو إلى عدة محركات من هذا النوع . وهى العقول السماوية التى سنهاها فيما بعد فى نظرية الفيض عند ابن سينا والفارابى .

فإننا كان ابن رشد يحرص على اتخاذ العناية الإلهية ووجود الغايات المحددة فى الطبيعة دليلا على وجود الله فذلك يرشدنا إلى أنه كان يريد التخلص من تأثير أرسطو ، بدليل أنه لم يتبعه فى تطور آرائه . وينبنى هذا البرهان الجديد عند فيلسوفنا على أساسين بديهيين لا يحتاج المرء فى إلزام الآخرين بهما إلى استخدام طريقة الجدل أو سلوك مسلك التفريع والتشعب الذى برع فيه أهل الكلام والفلسفة من المسلمين . أما الأساس الأول فهو أن نظام الكون يكشف لنا عن تناسق عجيب بين أجزائه وبين الكائنات والظواهر التى يحتوى عليها ، ويريننا أن هذا التناسق أو الاتساق نافع للإنسان ، ولكل كائن حى فى العالم . فاختلاف الليل والنهار وتتابع الفصول ، ووجود الشمس والقمر والنجوم والرياح والأمطار والحيوان والنبات وغير ذلك من الموجودات التى لا تدخل تحت حصر ملامم حياة البشر . وليست الغايات وقفا على الإنسان وحده ؛ بل إنها خير مشاع بين الكائنات جميعها . فإننا نجد

التناسق والتوافق الكبير في كل كائن حي ، سواء أكان نباتاً أم حيواناً ، أى أن كل شئ قد أحكم إحكاماً لا مزيد عليه ، بدليل النظام العجيب الذى رآه بين الأعضاء والأجزاء الداخلة للحيوان والنبات ، ثم ما نجد من تجانس بين هذه العوامل الداخلة الخاصة بتركيب الموجودات وبين العوامل الخارجية ، ونعني بها الظروف الطبيعية التى تعيش فيها هذه الكائنات . وقد قال ابن رشد في هذه النقطة الآخرة : « وكذلك أيضاً تظهر العناية فى أعضاء البدن وأعضاء الحيوان ، أعني كونها موافقة لغايته ووجوده » ومعنى ذلك أنه قد اهتدى إلى نفس الفكرة التى اهتدى إليها كانت الفيلسوف الألمانى بعده بسة قرون ، وهى تلك الفكرة التى تقول بوجود « غاية » داخلية فى الكائنات .

وإنما كان برهان العناية الإلهية أفضل من براهين الأشاعرة والفلاسفة لأنه يتجه إلى جميع العقول على حد سواء ، فهو يصلح للعامة التى ترى وجود الغايات فى مخلوقات رأى العين ، كما يصلح للعلماء الذين كلما زادوا تبحراً فى البحث والدراسة ، وكلما كشفوا عن حقائق وقوانين جديدة زاد إيمانهم بوجود حكمة وعناية إلهية فى الظواهر الطبيعية . وفيما عدا ذلك نجد — مع ابن رشد — أن هذا البرهان ديبى أيضاً ؛ وذلك لأنه أحد البراهين التى استخدمها القرآن الكريم ، فى كثير من آياته ، كقوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعا شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من السماء ماءً ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً . »<sup>(١)</sup> ومثل قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شققاً ، فأنبثنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم . »<sup>(٢)</sup> وكقوله :

(١) سورة البأ من آية ٥ إلى ١٥ (٢) سورة عبس من ٢٣ إلى ٣١

« يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون . » (٣)

فأين براهين الأشاعرة المعقدة من هذه الآيات الواضحة التى تنفذ إلى قلوب العامة ، وتحرك عقول الخاصة من العلماء ؟ وأين هذا التعقيد الذى رأيناه لدى المتكلمين ، حينما يقولون إن الجوهر الفرد حادث لأنه يقترن بالأعراض وهي حادثه ، من هذا البيان الذى ليس بعده بيان فى قوة إقناعه وإلزامه ؟

### ح - دليل الافتراء :

ويشبه هذا الدليل سابقه فى أنه برهان بديهى يفرض نفسه بقوة قاهرة على تفكير الإنسان ، سواء أكان جاهلا أم عالما فإن المرء إذا نظر إلى الكون وما يحتوي عليه من كائنات وظواهر ، ولم تكن تحجب نظره اليه بعض الاعتقادات الفاسدة للتوارث فإنه يجد أن تلك الكائنات والظواهر لم تحدث من تلقاء ذاتها ، ولا يمكن أن تكون وليدة الصدفة ؛ لأن هذه الصدفة لا يمكن أن توصف بالحكمة والدقة البالغة . وإذن فمن الضرورى أن يوجد صانع أوجدها على النحو الذى توجد عليه . فمثلا إذا نظرنا إلى الحيوان أو النبات وجدنا أن كلا منهما يتألف من العناصر الكيميائية التى تحتوى عليها الكائنات غير الحية ، غير أنه يحتوى إلى جانب ذلك ، على بعض العناصر الأخرى التى لا نرى لها مثيلا فى عالم الجباد ، ونعنى بذلك أن فى الحيوان النبات ظاهرة جديدة هى الحياة وما تستتبعه من وظائف محددة تزيد بارتفاع الكائن فى سلم الوجود . فالنبات حى وهو يتغذى وينمو ويثمر ، والحيوان حى وهو يحس ويتحرك وينمو ويتغذى ويولد المثل . ولو كانت مثل هذه الوظائف وليدة الصدفة أو توجد من تلقاء ذاتها - وكلا التعبيرين سواء - لوجب أن توجد للأجسام جميعها دون تفرقة . فوجودها إذن فى بعض الأجسام دون بعض دليل على وجود صانع اقتضت

إرادته أن تكون مخلوقاته بعضها أمسى مرتبة من بعضها الآخر . وينطبق هذا القول على الكون بأسره ؛ لأنه مجموعة عن الكائنات والظواهر التي تبدو فيها آثار الصنعة والاختراع ، والتي تختلف مراتبها في الوجود .

فإذا كان الإنسان يعترف بأن لكل شيء سبباً وأنه لا بد من الوقوف عند سبب أول لا يمكن الصعود بعده إلى سبب آخر أو جده ، بمعنى أنه يكون علة ومنشأ لكل الأسباب الثانوية الأخرى فذلك لأن فطرته توجب عليه التسليم ببدء السببية . وبديهي أنه لا يحتاج في التسليم بهذا المبدأ إلى مقدمات طويلة متشعبة تعتمد على آراء ظنية إلى حد كبير أو قليل . فالعامة تعترف بوجود صانع للكون بناء على ما تراه رأى العين من آثار الصنعة الواضحة . أما العلماء فهم أكثر إدراكاً لمعنى الاختراع في الكون لأنهم لا يعتمدون فحسب على ما ترشدهم إليه حواسهم ؛ بل يدركون هذا المعنى أيضاً بالبراهين العلمية . وهم أكثر تعمقاً في معرفة الأسباب : « فإن مثال الجمهور في النظر إلى الوجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعها . فإنهم يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط ، وأن لها صانعا موجودا ، ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى للمصنوعات التي عنده علم ببعض صنعها وبوجه الحكمة فيها . »

فهذا الدليل مشترك إذن بين العلماء والجمهور . ولا يختلف موقف كل من هذين الفريقين منه إلا بناء على درجة العلم والمعرفة . وهو إلى جانب ذلك دليل شرعي . فقد جاء به الذكر الحكيم : من ذلك قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وقوله : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » وقوله : « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلناكم أزواجا وما نحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير » وقوله : « يأبى الناس ضرب مثل فاستعوا له إن الدين تدعون من دون

الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » وقوله على لسان إبراهيم عليه السلام : « إنني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض » وقوله : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما أحد من بعده . »

وقد حاول أبو الوليد إرجاع هذا الدليل إلى برهان العناية أو الأسباب الغائية لأن كثيراً من مخلوقات الله إنما تهدف إلى غايات محددة تعود بالنفع على الإنسان والحيوان والنبات . كذلك فكر في إرجاع برهان الحركة إلى هذا البرهان أيضاً . وهذا دليل على عمق فكرته عن الحكمة الإلهية وعلى مخالفته لفلسفة أرسطو في هذه المسألة . فهو يسير إذن في الاتجاه العام الذي تقتضيه الروح الإسلامية ، لأنه لا يرى ، كابن سينا أو كأرسطو نفسه ، أن حركة الأجرام السماوية ترجع إلى نوع من الشوق إلى التشبه بالحرك الأول في كماله بأن تتحرك حركة دائرية وهي أكمل أشكال الحركة ، وإنما هي حركة أرادها الله لتحقيق غايات محددة تعود بالنفع على خلقه . كما أن وجود الأرض على النحو الذي توجد عليه ضروري لبقاء الكائنات الحية . حقاً إن ابن رشد ، كان يعتقد على غرار مفكرى العصور الوسطى ، أن الأرض ساكنة وأنها مركز الكون ، لكن هذا لا يقدح في برهانه لأنه من الواضح أن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي نعلم أنه يوافق حياة الإنسان والنبات والحيوان . كذلك لو رأى الإنسان شيئاً محسوساً فوجده قد خلق بشكل خاص ، ووضع في الكون وضعاً خاصاً محددًا ، بحيث لو وجد على نحو مخالف لما أمكن أن تتحقق المنفعة المرجوة منه — نقول لو رأى الإنسان شيئاً من هذا القبيل لعلم بالتأكد أنه لا بد من وجود صانع أوجد هذا الشيء ، وفكر تفكيراً مقصوداً في المطابقة بين شكله ووضعه وبين الغاية المقصودة منه . « مثال ذلك أنه إذا رأى إنسان حجراً موجوداً على الأرض فوجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ، ووجد أيضاً وضعه كذلك وقدره علم أن ذلك الحجر إنما صنعه صانع ، وهو الذي وضعه كذلك وقدره في ذلك المكان . وأما متى لم يشاهد شيئاً من هذه المواقفة للجلوس فإنه يقطع أن وضعه في ذلك المكان ووجوده بصفة ما هو بالاتفاق ، ومن غير أن يجعله هناك فاعل . »

وإذا نحن نظرنا إلى الكون ورأينا أن حركات أجرامه السماوية — وما يترتب عليها من اختلاف الفصول والليل والنهار — موافقة لحياة الكائنات التي توجد على سطح الأرض أدركنا أن هناك صانعاً حكماً دبر ما صنع بحيث لو اختلف شيء في هذه الصنعة المحسنة « لاختلف وجود المخلوقات التي ههنا ». وفي الواقع لا يرتضى أبو الوليد دليل الأشعرية لأنه يبطل حكمة الخالق ؛ إذ القول بجواز خلق العالم على نحو آخر يتناقض مع قوله تعالى : « الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ». (١) ويبان ذلك إننا نرى أن الأشياء التي أسيئت صنعها هي تلك التي يجوز للمرء يقول عنها بأنه كان يمكن أن تصنع على نحو أفضل مما هي عليه . وأكثر من ذلك فإننا نستطيع القول بأن رداءة الصنعة توحى بأن الأشياء قد وجدت من تلقاء ذاتها . وهذا ما يعبر عنه ابن رشد حينما يقول : « حتى أنه ربما أدت الحساسة الواقعة في كثير من المصنوعات التي بهذه الصفة أن يظن أنها حدثت عن الاتفاق . . . فإذا هذا الرأي من آراء للتكلميين هو مضاد للشريعة والحكمة » لأن القول بإمكان وجود المخلوقات على نحو آخر أقرب إلى نفى وجود الصانع ، فضلاً عن إنكار حكمته وعنايته . وما كان أغناهم عن ركوب هذا المركب الصعب لو جمعوا بين دليل الاختراع والعناية الإلهية ، واعترفوا مباشرة أن العالم مخلوق لله ، بدليل ما يظهر فيه من العناية بجميع الكائنات وبالإنسان على وجه الخصوص . هذا من جهة مخالفة دليلهم للشرع ، أما من جهة مخالفته للحكمة فذلك لأنه غير برهاني ولأنه يعتمد على فكرة ساذجة سبق أن أشرنا إليها عند ما قلنا إنهم يتخيّلون أن كل تفرقة عقلية بين معنيين من المعاني تطابق تفرقة حقيقية بين ما تدل عليه الألفاظ .

وقد استقى ابن رشد فكرة الجمع بين دليلي العناية الإلهية والاختراع من القرآن الكريم الذي أُلّف بينهما خيز تأليف ليزيد بدهاه كل منهما بسبب مجاورته للآخر فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ، وقال أيضاً : « الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار » وقال تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حياً فمنه يأكلون . » إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي نجدتها في القرآن ، والتي قد تفوق في عددها تلك الآيات التي تتضمن أحد الدليلين فقط . وقد ألحّ فيلسوفنا في القول بأن الطريقة التي جاء بها الكتاب العزيز هي الطريقة التي تصلح للعلماء وللعلماء على حد سواء . أما أنها تصلح للعلماء فذلك لأنها تنفذ مباشرة إلى حكمهم السديد وفطرتهم التي لا تميل إلى الجدل والمحاكة . أما أنها تصلح للعلماء فذلك لأن العلم يكشف لهم عن كثير من أسرار صنعه تعالى وحكمته .

ويمكننا القول في نهاية الأمر بأن هذا الفصل يعتبر مقالا أو دستوراً في المنهج الذي يرتضيه أبو الوليد في البرهنة على العقائد ، لأنه يرينا بطريقة واضحة أن البراهين العلمية هي البراهين الجدلية بهذا الاسم ؛ أما البراهين الجدلية أو الخطائية التي يستخدمها المتكلمون فإنها لا تصلح إلا لطبقة خاصة أي إلا لهم هم أنفسهم ؛ بينما لا تميل إليها إلا طبقة العامة ولا طبقة العلماء .

# الفصل السادس

## الوحدانية والصفات

### ١ - الوحدانية

لقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تنص نصاً واضحاً على العقيدة الكبرى في الإسلام ، ونعني بها عقيدة التوحيد ، تلك العقيدة التي توجد — باعتراف كبار علماء الاجتماع من الأوربيين لدى القبائل التي ما زالت على فطرتها والتي لم يشوّه التطور الاجتماعي عقائدها الأولى . ومن المعلوم أن الديانة الموسوية والديانة المسيحية جاءتا لتقرير هذه العقيدة . ثم حقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لكي تخلصها من الشوائب ورواسب الديانات الوثنية القديمة التي اختلطت بها في أثناء احتكاك الشعوب؛ بثقافتهم ودياناتهم المختلفة . (١)

أما تلك الآيات القرآنية التي جاءت تنفي تعدد الآلهة الذي تنسب به ديانات قديمة وحديثة فهي قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » وقوله : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » وقوله عز وجل : « قل لو كان مع آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا . »

وقد اعتمد الأشاعرة ، كما يقول ابن رشد ، على هذه الآية الأخيرة لاستنبطوا منها دليلاً متكلفاً يقوم على أساس طريقة الجدل التي لا ترقى إلى مرتبة البرهنة المنطقية

---

(١) انظر كتاباً ترجمناه مؤلف فرنسي . وهو كتاب مبادئ علم الاجتماع الديني لروجييه باستيد . وفيه يعرض المؤلف لتطور العقائد المسيحية .



والتي تقصر ، دون شك ، عن الوصول إلى ما يقرب من الوضوح الذي يتجلى من الدليل القرآني . فدليلهم ينحصر في تلك القسمة التي يحسبونها عقلية ، والتي يظنوها جامعة مانعة عند ما يقررون أنه لو كان هناك إلهان فمن الممكن عقلاً أن يختلفا فيما بينهما ، فيريد أحدهما شيئاً لا يريده الآخر . وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن الخلاف بينهما لا يمكن أن يتشكل إلا بإحدى الصور الثلاث الآتية : ذلك أنه من الجائز أن تتحقق إرادة كل منهما ، أولاً تتحقق إرادة أيهما على حد سواء ، أو تتم إرادة أحدهما وتمتعل إرادة الآخر . تلك هي الفروض الثلاثة التي تخيلها للتكلمون في شأن الخلاف بين إلهين اثنين . ثم أخذوا يرهنون على فساد الفرضين الأول والثاني . فلو قلنا ، بناء على الفرض الأول ، إن أحد هذين الإلهين يريد إيجاد العالم بينما يريد الآخر عدم إيجاده لترتب على ذلك أن يكون العالم موجوداً ومعدوماً في آن واحد ، أي موجوداً بالنسبة إلى من أراده ، ومعدوماً بالنسبة إلى ذلك الذي لم يرده . وهذا أمر تبدو شناعته في نظر العقل ؛ إذ كيف يكون العالم معدوماً وموجوداً في وقت واحد . أما الفرض الثاني فباطل في رأى الأشعرية أيضاً ؛ لأنه يؤدي إلى نتيجة لا تكاد تفرق في شيء عن نتيجة الفرض السابق . ويبان ذلك أنه إذا لم تتحقق إرادة كل من الإلهين فإن العالم سيكون في هذه الحال غير موجود وغير معدوم . وهذا تناقض صريح .

وكان هؤلاء للتكلمين قد حسبوا أن هذا الفرض مستقل عن سابقة استقلالاً جوهرياً ، مع أننا لسنا في حفيقة الأمر إلا أمام نوع من الخلاف اللفظي — إذ كيف يوصف هذان الإلهان بالألوهية في حالة عجزها معاً ؟ — وطى كل فهمي مباحكة لفظية لا تقدم ولا تؤخر في مسألتنا هذه ، فإن لنا أن نتساءل فنقول : هناك حقيقة خلاف كبير بين تلك النتيجة التي تقول إن العالم موجود ومعدوم ، وتلك النتيجة الأخرى التي تقرر أن العالم غير موجود وغير معدوم ؟ قد يكون الخلاف بينهما هو أننا نستطيع تحويل النتيجة الثانية — بعد الاستعاضة عن النفي بالإيجاب — إلى القول بأن العالم سيكون معدوماً وموجوداً في هذه الحال ، أي أن الفارق الوحيد بين هاتين النتيجتين

اللتين افتن الأشاعرة في الوصول إليهما ينحصر في أن إحداها تقدم الوجود على العدم بينما تعكس الأخرى ترتيبهما . وذلك في ظننا أمر يسير لا يستحق مثل هذا العناية كله ، أى أنه ليس بالأمر الذى له خطره ، أو بالذى يتناسب مع تلك القسمة العقلية التى يطيب لأصحابها أن يتخذوها سبيلا إلى بيان مهارتهم في البرهنة على العقيدة الكبرى التى تبلغ حداً من البدهاة بحيث يؤمن بها كثير من البدائيين الذين لم يعرفوا شيئاً عن منطق أرسطو ، ولا عن جدل أفلاطون أو قسمته العقلية .

ومهما يكن من أمر فإنه يبقى علينا أن نفحص الفرض الثالث والأخير وهو الذى تتحقق فيه إرادة الإلهين وتتعلل فيه إرادة الآخر . ففي هذه الحال يكون الإله الذى تتحقق إرادته هو الإله وحده حقيقة ؛ في حين يكون الآخر عاجزاً وعندئذ لا يجدر به أن يسمى إلهاً . وهكذا تثبت الوجدانية . وربما خطر بذهن المرء هذا السؤال وهو: لماذا أجهد هؤلاء للتكلمون أنفسهم في مثل هذه الفروض التى توجبها قسمتهم العقلية ، بينما نرى أنه كان فى إمكانهم تماماً أن يكتفوا بالفرض الأخير الذى قد لا يستطيع أحد إنكار وضوحه وبدهاته ؟ ومن يدرى فلعل هؤلاء كانوا يعتقدون أن أفضل البراهين ما كان متشعباً كثير الاحتمالات ؟

على أن أبا الوليد يرى أن هؤلاء الذين ينادون بأنهم هم الدين يعتمدون على العقل فى قسمتهم وفى البرهنة على العقائد لم يكونوا فى الحقيقة على كثير من الدقة التى يوجبها عليهم ما ينسبونه لأنفسهم من استخدام المنهج العقلى . فهم يقولون مثلاً إنه من الجائز أن يختلف الآلهة ، وإن هذا الاختلاف له صور محصورة معدودة . ولكن أليس لنا أن نجاريهم أو نأخذهم باحتيالهم التى تقوم فى الواقع على التشبيه بين عالم الأمر وعالم الخلق ، أى بين الله سبحانه وبين البشر — فنقول : أليس من الجائز أن يتفق هذان الإلهان بدلا من أن يختلفا ؟ فإننا نرى أن صانين أو أكثر قد يتفقون فيما بينهم اتفاقاً محكماً فيخرجون صنعة متينة ؛ بل نجد أن تقسيم العمل بين الأفراد كلما زاد تشعبا وتفرعا زاد ثمره وجوده . ولذا يقول ابن رشد يسخر من الأشعرية : « ووجه الضعف فى هذا الدليل أنه كما يجوز فى العقل أن يختلفا ، قياسا على المرئيين فى الشاهد،

بحوز أن يتفقا، وهو أليق بالآلهة من الخلاف ١ وإذا اتفقا على صناعة العالم كانا مثل صانعين اتفقا على صنع مصنوع ١» بمعنى أنهما، وإن انصبت أفعالهما على شيء واحد ، فإن ذلك أمر لا تسوء مغبته ؛ لأنهما يتعاونان أو ربما يعمل أحدهما بينما يستريح الآخر إلى غير ذلك من الفروض والشكوك التي تقود إليها طريقتهم في القسمة العقلية ، وهى الفروض والشكوك التي كان ينبغي لهم أن يفكروا فيها مرتين أو ثلاثة ، قبل أن ينجوا هذا النهج في التدليل على أكثر العقائد بداهة ووضوحا ١

وليس هذا الدليل الذى استخدمه المتكلمون برهانيا ولا شرعيا في نظر فيلسوفنا . أما أنه ليس برهانيا فذلك لمخالفاته للفريضة الجيدة ولأنه لا يجرى على أصول المنطق السليم . وأما أنه ليس بالدليل الذى أرادته القرآن الكريم فذلك لأن عامة الناس تعجز عن فهمه ، فضلا عن أن يكون سببا في اقتناعها بوحداية الله . وفي جملة القول يرى ابن رشد أن دليلهم هنا يشبه في تعقيد ذلك الدليل الذى استخدموه في موطن آخر للبرهنة على وجود الله . ويبدو هذا التعقيد جليا إذا علمنا أنهم فرّغوا المسألة إلى عدة فروع مستحيلة لاتضمنها الآية الكريمة : « وقد يدل على أن الدليل الذى يفهمه المتكلمون من الآية ، ليس هو الدليل الذى تضمنت الآية أن المحال الذى أفضى إليه دليلهم غير المحال الذى أفضى إليه الدليل المذكور فى الآية ، وذلك المحال الذى أفضى إليه الدليل الذى زعموا أنه دليل الآية هو أكثر من محال واحد ؛ إذ قسموا الأمر إلى ثلاثة أقسام ، وليس فى الآية تقسيم . فدليلهم الذى استعمالوه هو الذى يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطى المنفصل ، ويعرفونه فى صناعتهم بدليل السبر والتقسيم ، والدليل الذى فى الآية هو الذى يعرف فى صناعة المنطق بالشرطى المتصل وهو غير المنفصل ، ومن نظر فى تلك الصناعة أدنى نظريتين له الفرق بين الدليلين . » بل نقول من جانبنا إن القياس الشرطى المتصل هو الذى يعبر تعبيراً صادقا عن أكل ضروب البرهنة والاستدلال ، وهو الذى يتفق مع طبيعة التفكير المنهجي كما يقرره المناطقة المحدثون ؛ لأنه يضع فرضا واحدا ثم

يحاول البرهنة على صدقه. فإن أدى إلى نتائج صادقة كان صادقاً، وإن أدى إلى نتائج فاسدة وجب تركه والتخلي عنه. (١) وتلك هي حالته هنا في البرهنة على عدم وجود آلهة كثيرة؛ اذ لو وجد أكثر من إله لترتب على ذلك محال وهو أن يوجد أكثر من عالم واحد، كما سيذكر ذلك فيلسوف قرطبة بعد قليل.

لكن الذي يهمننا هنا هو أن الأشاعرة لما عجزوا عن معرفة الدليل المنطقي الصحيح لجأوا إلى طريقة الجدل، تلك الطريقة التي تثير من المشاكل أكثر مما ترشد إلى الحلول. وقد سبق أن رأينا كيف سخر منهم فيلسوف قرطبة بسبب تلك الصعوبات والشكوك التي أثارها عليهم، وذلك بأن استخدم مثلهم بعض اللقدمات الفاسدة واستنبط منها بعض النتائج التي لا يرتضونها محال ما. ومع ذلك فإننا لا نجد خصماً لهدوداً لا هم له إلى التضييق على خصمه وقهره والوصول به إلى مرتبة اليأس القاتل والشك الدائم. فإن ذلك، وإن كان أمراً سهلاً ميسوراً لكل إنسان قوى الحججة، فإنه يناقض أيسر مبادئ الإنسانية وأولها بالرعاية، ونعني به محبة الآخرين والإخلاص لهم. وهذا ما نظن أنه فعله مع للتكلمين؛ فإنه لم يشأ أو لم تطمئن نفسه إلى أن يتركهم في ظلام الحيرة؛ بل آثر أن يرشدهم إلى سبيل الخروج من تلك المأزق الصعبة والمسالك الوعرة التي ما كان أغناهم عن الانحدار إليها. وبيان ذلك أنه لم يرض عنهم بإرشادهم إلى طريق مستقيم يوجههم فيه دون زهو وفي رفق عند ما يبين لهم أن الاعتراض الذي وجهه إليهم يمكن رده على النحو الآتي: لو اتفق الآلهان على أن يخترع كل منهما جزءاً من العالم لكان لنا أن نقول: إن من يقدر على اختراع الجزء يستطيع اختراع الكل، وعندئذ نجد أنفسنا أمام هذه المسألة وهي قدرة كل إله على خلق العالم بأسره. فلو اتفقا على ذلك لوجد عالمان وهذا أمر يكذبه الواقع. أما إذا اختلفا فإن ذلك الذي تنفذ إرادته هو الإله حقيقة. بينما لا يوصف الآخر بالعاجز

---

(١) قد عاجلنا هذه المسألة بالتفصيل في كتاب آخر لنا. وهو المنطق الحديث ومناهج البحث.

بصفة الألوهية . أما القول بأنها يتبادلان العمل والراحة بينهما فذلك دليل على النقص في طبيعة كل منهما .<sup>(١)</sup>

من هذا نرى أن ابن رشد ما كان يريد حض آراء المتكلمين لأنه شديد الكلف بقهر الآخرين أو مخالفتهم والسخرية بهم لمجرد المخالفة والسخرية ، أو لأنه يطيب له أن يتركهم بعد ذلك في ظلام الحرية والشك ، وحقيقة ما كان أبعده عن أن ينهج معهم هذا النهج، وهو الذى رأيناه في معرض آخر يعجب للامام الغزالي كيف أحل لنفسه أن يقول فى أحد كتبه، وهو تهافت الفلاسفة، إنه لا يريد الوصول الى الحقيقة فى هذا الكتاب وإنما يريد أن ينقض آراء فلاسفة المسلمين وأن يشوش عليهم نظرياتهم، وأن يفحهم بيان تداعى مذاهبهم وتناقضها ، دون أن يهديهم مع ذلك إلى سبيل الرشاد . وقد وصف فليسوفنا هذا المسلك بأنه ما كان ينبغى للغزالي أن أن يرضاه لنفسه، لأنه يتنافى مع روح العلم، وذلك لأن الفيلسوف الحق هو الذى يبحث عن الحقيقة جهده، فإذا هو استطاع الاهتداء إليها، وظن أنه قد اهتدى إليها بالفعل، وجب عليه أن يعرضها على خصومه عرضا واضحا حتى يفيدوا منها هم الآخرون . وهذا هو المسلك الذى تبعه ابن رشد فى برهنته على وحدانية الله برهنة تدل على إخلاصه وعلى إيمانه العميق بالاتفاق بين الدين والعقل .

أما برهانه الذى يرتضيه لتقرير عقيدة الوحدانية فهو نفس الدليل الذى جاءت به الآيات القرآنية السابقة . فإن قوله تعالى : لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » يعبر عن معنى بديهي يكاد يكون فطرة مفروزة فى طباع الناس ، لأنهم يرون رأى العين أنه لو وجد ملكان فى مدينة واحدة لما أمكن أن يؤدى وجودهما الى صلاحها وبقائها ، اللهم إلا أن يكون أحدهما ملكا فعليا لا يلقى معارضة أو مقاومة

(١) « فإذا ينبغى أن يفهم قوله تعالى : ولعلا بعضهم على بعض ، من جهة اختلاف الأنفال فقط ؟ بل ومن جهة اتفاقها ؟ فإن الأنفال المتفقة تتعاون فى ورودها على المحل الواحد، كما تتعاون الأنفال المختلفة ، وهنا هو الفرق بين ما فهمناه نحن من الآية وما فهمه للتكلمون . »  
مناهج الأدلة ص ٥٢ .

من الآخر الذى يستكين له ، ولا يعمل عملاً يمكن أن يكون على غير ما يريد الأول . ومن الأكد أن العامة من الناس لاتقبل أن تطلق اسم الإله على مثل هذا الإله العاطل العاجز الذى يشبه ملكاً مزيفاً أو بحسب الاسم فقط . وأما الآية الثانية ، وهى قوله تعالى : « ما اتخذ الله له من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » فإنها تنكر الابن أولاً ، ثم تدل على استحالة وجود كثرة من الآلهة ، لكل إله منها أفعال تختلف عن أفعال صاحبه ؛ إذ لا يمكن أن تؤدى هذه الأفعال للتضاربة إلى موجود واحد تتجلى فيه الصنعة الدقيقة والحكمة العميقة . لكن هناك أمراً يفجأ الحس والعقل معاً ، ويناهض فكرة وجود آلهة كثيرة تختلف وتتضارب أفعالها وهو وجود عالم واحد قد أحكمت صنعته . وأما الآية الأخيرة وهى قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً » . فهى برهان على استحالة وجود إلهين أو عدة آلهة تتفق أفعالها ، بمعنى أن يكون فى استطاعة تلك الآلهة أن تخلق العالم . ولو أمكن ذلك لوجب أن تكون هذه الآلهة سواء فى الاستيلاء على العرش بما يؤدى إلى وجود عدد منها فى مكان لا يتسع إلا لواحد فقط من بينهم . وهكذا يؤكد لنا ابن رشد أن عقيدة تعدد الآلهة لا يمكن أن تنهض بنفسها ، لأنها تؤدى حتماً إما إلى الاعتراف بحجز هذه الآلهة جميعها عن خلق العالم والاحتفاظ له بوجوده الذى قدره ، وإما إلى التسليم بأن هذا العالم فاسد ، وهذا أمر مردود . « فكأنه قال لو كان فيهما آلهة إلا الله لوجد العالم فاسداً الآن ثم استثنى أنه غير فاسد فوجب ألا يكون هناك إلا إله واحد . » (١)

ففى جملة القول يعتقد فيلسوف قرطبة أن عقيدة الوحدانية بديهية للعالم والجمهور على حد سواء ، مع هذا الفارق وهو : أن العلماء هم الذين يقررون هذه البداهة بطريقة برهانية يقينية ، فى الوقت الذى يشعر بها العامة شعوراً فطرياً إجمالياً . وحقيقة يستطيع العلماء وحدهم فهم القياس الشرطى المتصل فهما صحيحاً على خلاف الأشاعرة الذين

وهموا عند ما حسبوه قياساً شرطياً منفصلاً، وعندما انزلوا من الدليل للنطق الحاسم إلى حجة جدلية معقدة . وهم وحدهم الذين يستطيعون تأويل آية العرش تأويلاً عقلياً يتناسب مع عظمته تعالى وقدرته وعدم مشابهته للحوادث أو المخلوقات . لقد وردت كلمة العرش في القرآن الكريم لثبوتها وتفتيحاً خيال العامة ، ولتقرب إلى أذهانهم الغضة حقيقة عظمة الله ، بناء على ما يعرفونه من أمرهم في عالمهم الدنيوي . أما العلماء فلا يفتنون عن المعنى الدقيق الحقيقي لهذا النوع من المجاز ، فإن العرش معناه القدرة الإلهية التي تمتد إلى جميع الكائنات . وإذن فمثل هذا اللفظ لا يتضمن معنى الجسمية بالنسبة إلى الله تعالى ؛ لأن «العرش يقوم به ولا يقوم بالعرش . ولذلك قال تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما . » (١)

## ٢ - الصفات الإلهية

لقد كانت مشكلة الصفات الإلهية من المشاكل الكبرى التي فرقت بين مفكري الإسلام ، وكانت موضع نقاش وصراع طويلين بين المتكلمين أنفسهم من أشاعرة ومعتزلة ، كما كانت مجال نزاع بين المتكلمين والفلاسفة . وكان لابن رشد في هذه المسألة موقف خاص يعترف جوتيه في كتابه الأخير عن فيلسوفنا (٢) بأنه موقف فذ يأتي في المرتبة الثانية بعد موقفه في محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، تلك المحاولة التي خصص لها كتاب « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . وقد اتفق المسلمون ، رغم اختلافهم في بعض التفاصيل — اختلافاً لفظياً أكثر منه حقيقياً — على أن الذات الإلهية لما كانت لا تتضمن أي نوع من التركيب أو التعدد فإنه من المستحيل إذن أن يستطع امرؤ تعريفها بالجنس والفصل ، أي أنه

(١) نفس المصدر ص ٥٠ .

(٢) ابن رشد طبعة سنة ١٩٤٨ ، باللغة الفرنسية ص ١٤٧ .

لا يمكن تعريفها تعريفاً تاماً على النحو الذى يقرره علماء المنطق عند ما يعرفون الإنسان مثلاً بجنسه وهو الحيوانية وبالصفة التى تفرقه عن غيره من الأنواع ، وهى المنطق أو العقل . كذلك لا يمكن أن يوصف الله سبحانه بصفة تكون مشتركة بينه وبين غيره . ومعنى هذا أنه من المستحيل أن يندرج فى جنس من الأجناس . ولذا لم يكن أمام المفكرين المسلمين سوى أن يستخدموا نوعاً آخر من التعريف ، وهو التعريف بالرسم ، بأن قالوا مثلاً إن الله ذات ، أو هو الوجود الأول ، أو واجب الوجود بذاته ، أو العلة الأولى . ويوجد هذا التعريف لدى جميع الفلاسفة ولدى المتكلمين أيضاً .

وعلى الرغم من الاتفاق التام على التوحيد المطلق لدى المسلمين جميعاً فإننا نرى لديهم فروقاً يسيرة فى مسألة الصفات علواً هم فى إبرازها ، ثم غللاً للمستشرقون من بعد فى اتخاذها سبيلاً إلى التدليل على وجود فروق عميقة بين الفرق الإسلامية . حقاً وجد فى صدر الإسلام جماعة يعترفون بعدد لا بأس به من الصفات الإلهية التى تشبه صفات الإنسان كإثبات اليمين والوجه . وقد خلط جوتيه عند ما اتخذ ذلك دليلاً للقول بأن جميع المسلمين فى صدر الإسلام كانوا من المشبهة ، أى من هؤلاء الذين يرفضون تأويل الآيات التى قد توهم التجسيم . أما المعتزلة ، وهم أكثر الناس سعياً وراء الأدلة العقلية ، فقد نفوا الصفات الإيجابية ، وقالوا بأن الصفات التى ورد ذكرها فى القرآن إنما هى اعتبارات ذهنية ، وإن الصفة الإلهية بمعنى الكلمة هى القدم ، وإن الاعتراف بصفات قديمة معناه الاعتراف بما نهى الإسلام عنه ، وهو تعدد القدماء أو تعدد الآلهة ، على نحو ما وقع فيها النصارى عند ما فرقوا بين الصفات التى يطلقون عليها اسم الأقانيم ، وهى صفات العلم والوجود والحياة . فآله فى رأى المعتزلة وحدة مطلقة لا تقبل انقساماً ، ولا توصف بصفات تشعر بالتعدد أو التركيب . أما الأشاعرة فقد لجأوا إلى حل وسط بين رأى أهل الظاهر أو الحشوية وبين رأى المعتزلة الذين يصفهم بعضهم بأنهم من المعطلة ، أى من الذين يتكرونها الصفات الإلهية . وهذا



الموقف الذى ارتضاه الأشعرية هو أنهم يثبتون الصفات الإيجابية ، ويقولون إنها قائمة بالذات فى الوقت الذى يعترفون فيه كغيرهم من المعتزلة وأهل الظاهر بالوحدة المطلقة . فهم يقولون بصفات الحياة والعلم والإرادة والقدرة ويحظرون البحث فى علاقة هذه الصفات بالذات الالهية . أما موقف الفلاسفة فهو قريب من موقف المعتزلة . فهم يبدؤون بالقول بأن الله ذات غير مركبة ، وأن الاعتراف بوجود صفات إيجابية مستقلة يؤدي إلى الاعتراف بالتعدد ، وهذا يتنافى مع وحدانية الله تعالى . فالله إذن وجود محض ، وهو واجب الوجود لذاته .

هذا هو مجمل آراء المسلمين قبل ابن رشد فى مسألة الصفات الإلهية وسوف نعود إلى هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد . ويكفى أن نشير هنا إلى أن فيلسوف قرطبة كان أصرح هؤلاء المفكرين جميعاً فى الاعتماد على حقيقة إسلامية كبرى وهى التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ؛ إذ يرى أنه لا يمكن معرفة الصفات الإلهية إلا بإحدى طريقتين هما: طريقة التشبيه وطريقة التنزيه . وهذا هو نفس الرأى الذى أخذته عنه كبير مفكرى المسيحيين فى العصور الوسطى توماس الأكوينى ونسبه إلى نفسه فيما نسب . أما الطريقة الأولى فهى التى تستخدم فى إثبات بعض الصفات الإيجابية إلى الله تعالى ، وهى الصفات التى تعد كمالاً فى مخلوقاته ؛ إذ كيف تنكر وجود مثل هذه الصفات عنده إذا كان سبحانه مصدرأ وسبباً فى وجودها عند غيره؟ وتفضى الطريقة الثانية إلى تقرير مخالفته تعالى للحوادث من أوجه النقص التى تنطوى عليها ؛ ولهذا سميت بطريقة التنزيه .

وقد كانت صفة العلم هى أولى الصفات الإيجابية التى عرض ابن رشد لتقريرها . فاستخدم فى إثباتها لله كلاً من الطريقتين السابقتين ، أى ليقرر وجودها أولاً ثم لينفى عن الله أوجه النقص فى العلم الإنسانى . ذلك أننا نعلم أن هذه الصفة تعتبر كمالاً لدى الإنسان ؛ ولما كان الله سبحانه هو الوجود المطلق الكامل الذى لا يدانيه فى كماله أى وجود آخر فن الضرورى أن يتصف بالعلم . ولكنه ينبغى أن ينسب

إليه علم أسمى من علم الإنسان ومن نوع آخر مخالف له كل للخالفة . فعلم الإنسان ليس إلا علماً نسبياً ؛ لأنه يكتسب على مراحل ، فيبدأ بالإحساسات ثم ينتقل إلى الإدراكات الحسية ومنها إلى التصور والخيال ؛ ومن الصور الخيالية الجزئية تنتزع أو تجرد المعاني الكلية . وقد تستخدم هذه المعاني الكلية بدورها في استنباط بعض المعاني الجزئية . غير أنها تؤدي مع ذلك إلى نتائج ناقصة أو خاطئة . وليست هذه القضية الأخيرة في حاجة إلى برهان ؛ لأننا نرى أن العلم يتقدم مع الزمن ، وأن بعض الآراء التي كان يظن أنها صادقة قد بدت خاطئة مناقضة لما يقضيه العقل الذي شب عن الطوق .

وتقول في جملة الأمر إنه علم ناقص في جوهره ، ويرجع نقصه إلى أنه يتخذ المدركات الحسية نقطة بدءه ، لكي ينتقل منها إلى المعاني العقلية المجردة . ولما كانت نقطة البدء مضطربة ونسبية وتختلف اختلافاً كبيراً باختلاف الأفراد فمن الطبيعي بعد ذلك أن تكون نتائجها مضطربة ونسبية أيضاً . وليس ذلك شأن العلم الإلهي ، فهو يرى من كل ضروب النقص التي نجدها في علم الإنسان . فمن الضروري إذن أن يستخدم الفلاسفة طريقة التنزيه حتى يفرقوا بين هذين العلمين . وهذا ما حاول تحقيقه بعض فلاسفة العصر القديم من أمثال أرسطو الذي لما أراد تنزيه علم الله عن نقائص علم البشر انتهى بأن عدّه جاهلاً . وتفصيل الأمر هنا هو أن ذلك الفيلسوف الإغريقي كان يرى إن الإله عقل محض ، أي مجرد من كل مادة . ولما كان هذا الإله عقلاً محضاً وجب أن يكون عاقلاً ، وأن ينصب تفكيره على موضوع معين . ولكن ليس من الممكن أن ينصب تفكيره على شيء خارج عن ذاته ؛ لأن كل ما عداه ينطوي على النقص . ومعنى ذلك أن أرسطو كان يرى أنه من الأفضل لإله ألا يرى الأشياء الناقصة على أن يراها . ويتبين لنا من هذا أنه يصف إلهه بأنه غريب عن العالم وجاهل به . ومن الأكيد أن هذه نقطة ضعف في مذهبه لأنه يصف الإله بأنه عقل وغاية في الكمال ثم ينتهي بأن يجعله جاهلاً وعاجزاً إذا كان الأمر خاصاً بصلته

بالعالم . فهو مجردة كما ترى من القدرة والإرادة والحكمة ، ولو قال إن الله هو العلة الأولى فإنه يخلق العالم عن علم وإرادة لاستطاع أن يثبت له القدرة والعلم وأن ينزله في الوقت نفسه عما تحتوى عليه مخلوقاته من نقص ، على نحو ما سيفعل أكبر شراحه فيما بعد .

ولا ريب في أن فكرة الإسلام تعتبر على طرفي تقيض مع فكرة أرسطو .  
فإنه تعالى يقول في كتابه الكريم : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . » (١)  
ويقول : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . » (٢) كذلك قال تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (٣) ، وقال : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم . » (٤)

ويقول جوتيه الذي يعترف بورود هذه الآيات وغيرها في القرآن بأن فلاسفة المسلمين ظلوا متشبعين بروح دينهم وإن كانوا يدينون بثقافتهم للاغريق . لكن هذا لا يحول - في رأينا - دون أن يكون بعضهم ، من أمثال الفارابي وابن سينا ، شديد التأثر بفلسفة أرسطو مما أدى إلى نشأة تلك المشكلة الكبرى في تفكير

(٢) سورة سبأ آية ٣ .

(٤) سورة المجادلة آية ٧ .

(١) سورة يونس آية ٦١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٥٩ .

المسلمين ، ونعني بها مشكلة العلم الكلي أو الجزئي . فإن الفارابي وابن سينا تابعا أرسطو في قوله إن الله عقل محض ، وإنه لا يدرك إلا ذاته . ثم حاولا أن يوفقا بين هذا الرأي وبين ما جاء به الدين ، فقالا إن معرفة الله لذاته سبب في وجود كل شيء لأنه إذا أدرك ذاته فاض عنه عقل أول وهذا العقل يدرك ذاته ويدرك المصدر الذي فاض عنه؛ ويؤدي هذا الإدراك المزدوج إلى نشأة عقل ثانٍ وجسم فلك ونفس سماوية إلى آخر ما جاءت به نظرية الفيض لدى المسلمين ، تلك النظرية التي تعد سببا في تاريخ تفكيرهم ، والتي تناولها عن أفلوطين . ومهما يكن من شيء فإن هذه النظرية تجعل علم الله سبحانه أقل من علم مخلوقاته ؛ لأنه يعلم ذاته فقط ، أما العقول التي تفيض منه فإنها تعلم ذاتها وللمصدر الذي فاضت عنه .

وقد رأى ابن سينا مدى مجازاة هذه النظرية لروح الإسلام فقال مخففا من حديثها : إن الله يعلم الأشياء الجزئية بعلم كلي ، أي أنه يعلم القوانين العامة فقط ، دون أن يتعلق علمه سبحانه بكل حادثة جزئية على حدة . وقد أراد تبرير هذا الرأي الغريب فقال : إن علمه تعالى لا يمكن أن يتعلق بالأمور الحادثة لأن كل ما لا يخاو عن الحوادث فهو حادث كذلك . وليس بعجيب بعد هذا الخلط أن يرى الإمام الغزالي يتخذ مسألة العلم الإلهي لدى فلاسفة المسلمين سبيلا إلى الحكم بتكفيرهم ورميهم بالخروج عن مبادئ الإسلام ، تلك للمبادئ التي تقرر وتؤكد خير تأكيد أن الله قد أحاط بكل شيء علما .

تلك هي مشكلة العلم الإلهي كما وصلت إلى علم ابن رشد؛ فسلك في حلها مسلكا فريداً عندما بين أنها مشكلة مزعومة لأن الفلاسفة السابقين لم يفرقوا تفرقة حاصمة بين العلم الإلهي والعلم الإنساني ، أي لم يستخدموا طريقة التنزيه على النحو الذي كان ينبغي لهم أن يفعلوه . ولما لم يفتنوا إلى ضرورة هذه التفرقة أخذوا يطبقون على العلم الأول بعض أوصاف العلم الثاني مما زاد المشكلة غموضاً وأدى إلى اضطراب تفكيرهم فيها . كذلك لم يكن التكمون أسعد حظاً من الفلاسفة ، فقد أرادوا تنزيه علم الله

عن الحدوث فقالوا إن الله يعلم الأشياء التي يخلقها علماً قديماً . وهذا حق لكن عرضه على النحو الذي تبعه الأشاعرة وبما قاد العامة إلى الخطأ ، وإلى البدعة تبعاً لذلك . والسبب في هذا هو أن هؤلاء للتكلمين إذا كانوا يقولون من جانب بأن علم الله للأشياء الحادثة قديم فإنهم يقولون من جانب آخر بأن ما يقارن الحوادث فهو حادث مثلها . وإذا جمع الرجل العاى بين هاتين للمقدمتين فلربما غلب على ظنه حدوث علم الله ، أو بداله في الأقل أن هناك تناقضاً بين هذين الرأيين . وإذا اضطرب في فهم آرائهم فله العذر كل العذر لأن التكلمين لم يحرصوا على التفرقة له بين علم الله وعلم الإنسان مما قد يدعوه إلى اعتقاد أن العلم الأول يتغير بتغير الموضوع الذي ينصب عليه ، أى أن علمه بالشئ قبل حدوثه يختلف عن علمه به وقت حدوثه أو بعد حدوثه . وقد خفي على الأشاعرة أن فكرة تقسيم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل إنما هي أكثر مناسبة لعلم الإنسان الناقص ، وأنها لا تنطبق على علمه تعالى .

وإذن يبدو مسلك للتكلمين هنا في مظهر البدعة . وهذا هو السبب الذي من أجله يتهمهم ابن رشد بأنهم مبتدعون ؛ بل مضلون أيضاً لأنهم يصرحون للعامة بنظريتهم هذه التي توشك أن تقود إلى البدعة والضلال . فمن الواجب ألا يصرح للجمهور بأن علم الله قديم أو حادث ، وإنما ينبغي أن يقال لهم إنه لاسييل إلى المقارنة بين عالم الغيب وعالم الشهادة . « فإذن الواجب أن تقرأ هذه القاعدة على ما وردت ، ولا يقال إنه يعلم حدوث المحدثات . . . لا يعلم حديث ولا يعلم قديم ، فإن هذه بدعة في الإسلام » . أما العلماء فإنهم يعرفون حق العرفة ، وعن طريق البرهان ، أن عامه تعالى قديم لأنه لا يخضع للزمن ؛ إذ للماضى والحاضر والمستقبل كلها سواء بالنسبة إليه ، كما جمع الزمان في لحظة واحدة فانكشف للخالق كل ما يخلق دون حاجة إلى تجديد علمه ، كما يحدث للانسان الذي يعلم أشياء كان يجربها .

وحقيقة ليست مشكلة العلم الإلهي ، كما وضعها الفلاسفة وكما حاول المتكلمون حلها ، إلا مشكلة أسوأ وضعها ؛ إذ كيف يجوز للانسان أن يتساءل إذا كان علم الله خاصاً

أم عاماً وإذا كان قديماً أم حادثاً مادام هذا العلم يخالف اختلافاً جوهرياً عن علم الإنسان ، لأنه السبب في وجود كل شيء ، بينما نرى العلم الآخر مسبب عن وجود الأشياء ؟ فبأي حق ومنطق نقارن بين علمين بينهما هذا التضاد التام ؟ إن القول بأن العلم الإلهي لا يوصف بالعموم ولا بالخصوص معناه إنه لا سبيل إلى المقارنة بينه وبين علم الإنسان . وإذا لم يكن بد من وصف العلم الإلهي بإحدى هاتين الصفتين كان الوصف الوحيد الذي يتناسب مع كمال هذا العلم هو أن نقول إنه أشبه بالعلم الخاص أي للمعرفة التي تتعلق بإدراك الأمور الجزئية ، لا للمعرفة العامة . وإنما كان ذلك أولى لأن علمه تعالى لا ينتقل من الجزئيات إلى الكليات شيئاً فشيئاً . وكيف يتخيل بعضهم أن الله يدرك القوانين العامة فقط وهو يقول : «الأي علم من خالق وهو اللطيف الخبير» ؟ لقد كان يكفي في رد ما قد يعرض للجمهور من شبهة في هذا الموضوع أن يقال له إنه من الواجب تنزيه علم الله عن كل ما يعد نقصاً في علم الإنسان تلك هي فكرة ابن رشد في العلم الإلهي ، وهي نفس الفكرة التي قررها توماس الأكويني في العالم الليحي عندها جعل فلسفة ابن رشد الدينية أهم مصدر يعتمد عليه . وقد بينا فيما مضى كيف انتقلت إليه آراء فيلسوف قرطبة في هذه المسألة بصفة خاصة عن طريق أحد رجال الدومنيكان في القرن الثالث عشر<sup>(١)</sup> . ونقول هنا إن توماس قلده ابن رشد أيضاً في الاعتماد على التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة لكي يجد حلاً مناسباً لمشكلة العلم الإلهي : أيوصف بالعموم أم بالخصوص ، بالقدم أم بالحدث ؟ ومن العجب العجائب أن الحل كان متفقاً تمام الاتفاق مع أن التفرقة بين العالمين التي تعتبر أساساً لذلك الحل أكثر قبولاً في الإسلام منها في المسيحية ، وذلك بناء على ما يسلم به المسلمون والمسيحيون على حد سواء . ومما يدعو إلى العجب أكثر مما عجبنا أن توماس الأكويني يتظاهر بأنه ينقد آراء ابن رشد ويهدمها ويبرهن على فسادها ويزعم أن فيلسوفنا كان ينكر علم الله للجزئيات.

وحسبنا في الرد على هذه الأباطيل أن ندع الحديث لابن رشد نفسه حيث يقول : « فإذا العلم القديم [ علمه سبحانه ] يتعلق بالوجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث [ علم الإنسان ] . . . وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به . . . فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر لا يكيف وهو العلم القديم سبحانه . »

\*\*\*

وقد سلك أبو الوليد نفس المسلك السابق في إثبات صفة الإرادة لله تعالى . فأشار أولاً إلى خطأ الأشاعرة في تحديد هذه الصفة عندما اعتمدوا على طريقة التشبيه وحدها ، فجعلوا الإرادة نوعاً من الاختيار بين الضدين أو المتشابهين مما يورث النقص فيها . ثم بين هذا الفيلسوف أن الإرادة الإلهية لا تشبه إرادة الإنسان في شيء ، بمعنى أنه إذا نسبنا هذه الصفة إلى الله وإلى الإنسان وجب ألا يغيب عن خاطرنا أن نسبتها في كلتا الحالتين ليست واحدة ؛ بل لا بد من تنزيه إرادة الله تعالى عن التردد والنقص اللذين تنطوي عليهما إرادة الإنسان . وليس معنى أن إرادة الله لا تتردد بين أمرين أنها تشبه الضرورة التي تنسم بها الظواهر الطبيعية ؛ فإن ضرورة الطبيعة عمياء بينما إرادته تعالى غاية في الحكمة والتدبير . وحقيقه يسوي ابن رشد بين الإرادة والعلم في حقه تعالى ، ويقول ليس للإنسان ذى الفكر المحدود أن يعرف كنهه هاتين الصفتين إذ لو أراد معرفة حقيقتهما لوجب أن يعلم حقيقة الله أولاً ، وهذا هو المستحيل بعينه .

وقد أساء كثير من مؤرخي الفلسفة فهم هذا الرأي وزعموا أن فيلسوفنا ينكر الإرادة الإلهية ، أو أنه يقول بأن الله يفعل الأشياء بالضرورة ؛ إذ لا يختار بين عدة أشياء ممكنة . وقد كان رينان أشهر هؤلاء الذين نسبوا هذه الفكرة الغربية إلى ابن رشد، وهي نفس التهمة التي وجهها الغزالي من قبل إلى الفارابي وابن سينا . ويمكننا أن نزيد الأمر وضوحاً إذا ذكرنا أن مفكرى الإسلام قد انقسموا في مسألة

الإرادة إلى فريقين . فالفريق الأول يضم المتكلمين والغزالي من ناحية ، ويشمل الفريق الثاني الفلاسفة ومعهم ابن رشد . أما رأى المتكلمين فيتلخص في أن الإرادة الإلهية تشبه الإرادة الإنسانية في الاختيار بين عدة أمور ممكنة ، ولها أن تختار أيّ هذه الممكنات دون تفرقة ، أي أنها مستقلة تماماً عن العلم . أما رأى الفلاسفة وهو الذى ارتضاه أبو الوليد فينحصر في أن العلم والإرادة شيء واحد ، وأن الله سبحانه إنما يخلق شيئاً يريد لأنه يعلم أنه أفضل شيء يمكن إيجاداه . وهذا الرأى شبيه برأى فيلسوف غربى هو « لينتز » الذى يوصف مذهبه بأن مذهب تافؤل ؛ لأنه يرى أنه ليس من الإمكان أن يوجد أحسن مما كان . وبديهي بعد ذلك أن أنصار مذهب من هذا القبيل لا يمكن أن يوصفوا بأهم ينكرون الإرادة الإلهية . وكل ما هنالك هو أنهم يقررون أن هذه الإرادة أكمل وأسمى من أن تشبه إرادة الإنسان الناقصة ، تلك الإرادة التى تحاول اختيار أفضل الحلول الممكنة .

وقد أخذ ابن رشد على الأشاعرة أيضاً أنهم فصلوا القول في الإرادة الإلهية على نحو لا يجدى ؛ بل بطريقة ربما أثارت الشبهات العويصة . فقد تساءلوا : هل يريد الله سبحانه الأشياء التى يخلقها بإرادة قديمة أم بإرادة حديثة . ثم برهنوا على استحالة نسبة الإرادة الحادثة إليه . ومع ذلك فقد رأينا فيما مضى أنهم يعجزون عن إثبات قدم الإرادة التى تتعلق بالأمر الحادثة ؛ إذ للمرء أن يتساءل: ما الذى دعا إلى وجود نتيجة الإرادة القديمة في ذلك الوقت دون غيره . وهذا هو السبب الذى يدعو أبا الوليد إلى وصفهم بالإبتداع عندما يقول : « فأما أن يقال إنه مرید للأمر المحدثه بإرادة قديمة فبدعة وشيء لا يعقله العلماء ، ولا يقع الجمهور . . . بل ينبغى أن يقال إنه مرید لكون الشيء وقت كونه وغير مرید لسكونه في غير كونه كما قال تعالى ( إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) فإنه ليس عند الجمهور ... شيء يضطرم إلى أن يقولوا إنه مرید للمحدثات بإرادة قديمة إلا ماتوهمه المتكلمون من أن الذى تقوم به الحوادث حادث . » وهذا دخول في مسائل جدلية لا تبدو



بمظهر البدهاءة في نظر العامة من الناس ؛ وإنما تدعو من باب أولى إلى تسرب الشك في قلوبهم . وقد كان من الممكن رفع هذه الشكوك دفعة واحدة لو سلك المتكلمون معهم مسلكاً آخر ، وفرقوا لهم ، منذ أول الأمر ، بين عالم الغيب والشهادة ، وأفهموهم أن إرادة الله سبحانه لا تشبه إرادة الإنسان في شيء ، وأنها لا تخضع لفكرة الزمن .

أما صفة الحياة فيعترف ابن رشد بأن الأشاعرة قد أصابوا فيها وجه الحق ؛ وذلك لأنه ليس من خلقه أن ينكر على خصومه ما يهتدون إليه من حقائق ؛ وإنما اهتدى المتكلمون هنا إلى الحقيقة لأن الحياة تمد شرطاً في وجود العلم سواء أكان الأمر خاصاً بعالم الغيب أم بعالم الشهادة . ويترب على ذلك أنه يجب على كل مسلم أن يصف الله بالحياة ؛ وأن يزهه في الوقت نفسه عن كل نقائص الحياة الإنسانية . وبالمثل تنسب إلى الله تعالى صفة الكلام . ويراد بالكلام هنا الفعل الإلهي الذي يتكشف به للأنبياء والرسل ما يريد الله أن يوحى به إليهم . وهذا الكشف له طريقه . فإما أن يكون بوساطة الألفاظ التي يخاطبها الله في نفس النبي . وإما عن طريق الملك ، أو دون وساطة ما ، ويكون الكلام ، في هذه الحال الأخيرة ، كلاماً حقيقياً ، وهو ما اختص الله به موسى عليه السلام ، فقال تبارك وتعالى « وكلم الله موسى تكليماً » .

وقد اختلفت الأشاعرة والمعتزلة في مسألة القرآن : أهو قديم أم مخلوق ؟ وكان اختلافهم هذا عننة شديدة في تاريخ المسلمين . فقال الأشاعرة إن كلام الله قديم ، وقالت المعتزلة إنه مخلوق . والحق في رأى ابن رشد ، أن كلا الرأيين بدعة ، وكان أحرى بالمؤمنين جميعاً ألا يثيروا مثل هذه الشبهات التي تضطرب لها عقول العامة . أما وقد وقع المحذور بالفعل فلا بد من رفعه . وهذا ما يقرره الفيلسوف القرطبي عندما يبين لنا أن كل طائفة من هاتين الطائفتين قد جمعت في رأيها بين الصواب والخطأ ؛ لأنها لم تعتبر إلا جانباً واحداً من القرآن الكريم . ومعنى ذلك أن الأشاعرة نظرت إلى المعاني القرآنية ، وأهممت بالألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني .

أما المعتزلة فقد فعلت العكس . فإذا جمعنا بين الحق في رأى كل منهما اهتدينا إلى حل سليم يتلخص في أن المعاني قديمة ؛ لأنها ثبتت في علم الله منذ الأزل . أما الألفاظ التي تعبر عنها فهي مخلوقة لله تعالى .

وقد فسر ابن رشد صفتا السمع والبصر عن طريق التشبيه والتنزيه أيضاً . فقال إن الله يبصر ويسمع كل شيء لأنه يحيط بكل شيء علماً . لكنه لا يسمع ولا يبصر بأعضاء حسية على غرار ما يفعل الإنسان ؛ إذ ليس الله بجسم ولا يستعمل أعضاء جسمية ، وإلا كان مشابهاً للحدث وحادثاً مثلها .

### ٣ - الصلة بين الذات الإلهية وصفاتها

وتلك مشكلة أخرى قسمت المتكلمين فبا بينهم إلى فريقين متضادين يخطيء كل منهما الآخر ويكفره ، أو يصفه في الأقل بالابتداع ومجافاة طريق الشرع . أما المعتزلة وهم الذين يصفون أنفسهم بأنهم أهل التوحيد فقد أرادوا أن يجنبوا المسلمين ما وقع فيه النصارى من تعدد الصفات . فإن أصحاب هذه الملة حاولوا تبرير عقيدة التثليث عندما قالوا بأن الأقانيم الثلاثة ، وهي الإله والإبن وروح القدس عندهم ، هي صفات قديمة تقوم كل صفة منها بذاتها وتؤلف وحدة هي الله سبحانه وتعالى عن ذلك ، وهذه الصفات لديهم هي الوجود والعلم والحياة . فهذا إذن هو الدافع الذي حفز المعتزلة إلى نفي بعض الصفات الإلهية كالعلم والحياة والقدرة ، وقد قيل إن هذه الطائفة من المسلمين معطلة أى منكرة للصفات . لكن ينبغي لنا ألا نسارع إلى التسليم بهذا الرأى فإننا نعتقد أنهم لا ينفون الصفات جملة ، وإنما يهدفون إلى نفي وجود شبه ما بين الإنسان والله سبحانه ؛ ذلك أن صفات الإنسان تختلف فيما بينها كما تختلف عن ذاته ، بمعنى أن العلم غير الحياة ، والقدرة غير الإرادة ، والإرادة غير السمع ، وهذه الصفات وغيرها تختلف عن ذات الانسان وجوهره . أما صفات الله فليست

في رأيهم شيئاً مخالفاً لداته تعالى . وقد اعتمد المعزلة في تقرير مذهبهم على قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » . وقد احتجوا لذلك ببعض البراهين كقولهم مثلا : إن العلم الإلهي إما أن يكون صفة أزلية كالقدرات وإما أن يكون صفة حادثة . فإذا كان صفة أزلية فكيف يمكن إذن أن تحمل هذه الصفة في الذات ؛ إذ لو حلت فيه لرتب على هذا وجود أزليين في وقت واحد ، أي أن هذا القول يؤدي ، لا محالة ، إلى تعدد القدماء . أما إذا كانت حادثة ثم حلت في الذات فذلك معناه أن القديم يقترن بالحوادث وما يقترن بالحوادث حادث مثلها ، وذلك أمر مستحيل في حقه تعالى . ويمكن تكرار مثل هذا القول بالنسبة إلى بقية الصفات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وهي الصفات التي يرى المعزلة أنه لا يمكن أن تكون زائدة على الذات أو حادثة أو قديمة . فما معنى هذا الرأي ؟ إنهم يجحدون أن تنزيه الله سبحانه عن مشابهة الحوادث يقتضي القول بأن الذات الإلهية هي علم وهي قدرة وهي إرادة وأن تعدد الصفات هنا ليس حقيقياً وإنما هو تعدد اعتباري ، لأن الإنسان لا يتخيل الصفات الإلهية إلا على أساس نمط معروف عنده ، وهو الصفات الإنسانية .

أما الأشاعرة فيرون في تلك المسألة رأياً مختلفاً جد الاختلاف ؛ فالصفات الإلهية في نظرهم زائدة على الذات وقائمة بها في الوقت نفسه على الرغم مما يبدو في ذلك من التناقض . وإنما اضطروا إلى نفي قيام كل صفة بنفسها حتى يجتنبوا بطبيعة الحال ما وقع فيه النصارى . وإذن نجد الهدف مشتركاً بينهم وبين المعزلة لأنهم ينزهون الله عن كل صفات البشر . ولم يخرج على إجماع المسلمين في هذه المسألة سوى طائفة لا خطر لها ولا شأن ، وهم الرافضة الذين قالوا إن الله جسم ذو هيئة وصورة ويتحرك ، وسوى طائفة المشبهة التي أخذت بعض الآيات على حرفيتها فنسبت لله سبحانه يداً ووجهاً ، وقالت إنه يستوى على العرش حقيقة . ولكن عامة المسلمين ، فيما عدا هؤلاء السذج يجمعون على أن هناك هوة سحيفة بين عالم النيب والشهادة . ومن ثم نجد من جانبنا أن الخلاف بين التكلمين في مسألة نسبة الصفات إلى الذات ليس جوهرياً ،

ولا يتجاوز أن يكون نوعاً من التعمق في البحث على نحو لاجدوى فيه مادام الفريقان يتفقان في الأصل وهو مخالفة الخالق لخالقه . كذلك ليس بصحيح ما زعمه بعض مؤرخي الفلسفة الإسلامية في عصرنا الراهن من أن المعتزلة أخذوا فكرتهم في الصفات الإلهية عن أرسطو مادام الأساس الأول والأخير لديهم هو الرجوع إلى آية الكرسي سالف الذكر ، ومادام جمهور المسلمين يؤمن بأن لا سبيل إلى الشبه بين الله وبين أي شيء من صنعه وخالقه .

وقد ذهب فلاسفة الإسلام من أمثال الفارابي وابن سينا رأياً قريباً بما ذهب إليه المعتزلة . فالفارابي يقرر مثلاً أن الصفات ليست زائدة على الذات أو مستقلة عنها ، وإنما هي عين الذات وهي اعتبارات ذهنية . ومع ذلك فقد انحرف الفارابي عن الروح العامة للتكبير الإسلامي عندما أراد تحديد طبيعة الذات الإلهية . وكان يكفيه أن يعترف كبقية المسلمين أن هناك هوة فاصلة بين عالم الغيب وعالم الشهادة . لكنه آثر أن يتبع أرسطو فيؤكد على غرار هذا الفيلسوف اليوناني أن الله عقل محض وأنه يفكر في ذاته وهذا هو ما عبر عنه بأن الله عقل وعقل ومعقول . وقد كانت هذه الفكرة أساساً بنى عليه أبو نصر تفسيره لكيفية صدور الأشياء عن الله سبحانه بطريق الفيض مما لا مجال للحديث عنه في هذا المقام .

أما ابن رشد فيرى أن الصفات التي وردت في القرآن على أنها أسماء لله أو صفات ذاتية أو صفات أفعال لا يمكن أن توهم تعدداً في الذات الإلهية بحال ما ، والسبب في ذلك أنها تفضى دائماً إلى نفي صنوف النقص ، أو تدل على وجود صلة محددة بين الخالق والمخلوق . وينتهي أبو الوليد من ذلك إلى القول بأنه لا فارق بينها وبين الذات ، وبأن هذا هو ما كان يريد الفلاسفة عندما خالفوا رأى الأشاعرة ، فهم لا ينكرون تعدد صفات السلب ، ولا ينفون وجود علاقات مختلفة بين الله وعباده . فمثلاً يسمي الله سبحانه بأنه الأول إشارة إلى أن وجود الكائنات يأتي بسببه لأنه هو العلة في وجودها . وإذن تدل صفة الأول على وجود

صلة بين العلة ونتائجها . أما صفة القدم فتدل على نفي وجود سابق له ؛ بينما تعبر صفة البقاء على نفي انقطاع وجوده . ويمكن تفسير قولهم إنه وجود ضرورى بأنه ليس له سبب سابق له . أما قولهم بأنه عقل فالمراد به أنه مجرد من المادة ، أى ليس جسماً ولا حالاً فى جسم . كذلك يفسر العلم والإرادة بأن الله لا يجهل ما يخلق ولا يحدث عنه شئاً قسراً . وهكذا تنتمى كل الصفات إلى الذات .

وإعجاب الخلط فى هذه المسألة بين الأشاعرة والمعتزلة من أنهم غفلوا عن أمر هام جداً وهو ضرورة الاعتماد هنا على التفرقة بين عالم الغيب والشهادة على النحو الذى ينبغى أن يكون . فثلا يرى ابن رشد أنه لا يمكن قبول رأى الأشاعرة ، فضلاً عن الدفاع عنه ، لأن الموجود الذى يوصف بصفات زائدة على ذاته يشبه النفس الإنسانية ضرورية ؛ فإن هذه الذات غير جسم ، وهى توصف بالحياة والعلم والمعرفة والقدرة والكلام والسمع والبصر . وعلى هذا النحو يفضى رأى الأشاعرة ، رغمًا عنهم وبناء على مبدأ المقارنة بين الله والإنسان ، إلى القول بوجود مبدأ للوجود يشبه أن يكون نفساً كلية تحمل فى الكون . لكن ليس الله سبحانه نفساً بل هو فى نظر ابن رشد عقل محض ، أى مجرد عن كل مادة . وقد ارتضى الأشاعرة وجهة نظرة مضادة لرأى الفلاسفة ، كما يفهمه فيلسوف قرطبة ، لأنهم عجزوا عن التفرقة الحاصمة بين عالم الغيب والشهادة . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ضعف منتهبهم يرجع إلى أنهم جهلوا تلك الحقيقة وهى أن صفات العلم والحياة والقدرة وبقية الصفات الأخرى لا تنسب إلى الله وإلى الإنسان إلا باشتراك الاسم ، فإذا قال إنسان بتعدد صفات الله فذلك لأن عقله يقصر عن معرفة حقيقة الذات الإلهية وحقيقة صفاتها ؛ إذ لو علم حقيقة صفة من صفاته كالعالم مثلاً لكان عالماً مثله ، أو لكان إلهاً كما يقول ابن رشد إنساناً أزلياً !

ومن جانب آخر لا يرضى فيلسوفنا وجهة نظر الأشاعرة لنفسه رأياً ؛ لأنها لا تتفق ، فى ظنه ، مع الشرع ، ولأنها توشك أن تعود الجمهور إلى البدعة والشك .

والمقصود بالجمهور هنا هؤلاء الذين يجزون عن معرفة البراهين العقلية . وحقيقة لوقلنا للرجل العامى إن الصفات زائدة على الذات الإلهية فربما خيل إليه أن الله جسم . ومع أن الأشعرية يشيرون مثل هذه الشبهة التى تناقض العقائد الإسلامية مناقضة الظلمة لوضح النهار فإنهم لا يستطيعون البرهنة على أن الله ليس بجسم . ومن ثم قد ينبت المشك في نفس من يرى رأيهم في الصفات الإلهية .

وليس فيلسوف قرطبة أكثر إبقاء على المعتزلة منه على الأشاعرة ؛ فإن هؤلاء أيضاً ، وإن رأوا رأياً قريباً من الصواب ، فإنهم لا يعلمون كيف ينبغي لهم أن يفرقوا بين الصفات الإلهية والصفات الإنسانية . هذا إلى أن حججهم جدلية ومعقدة وتوشك أن تقود الجمهور إلى التعطيل ، أى إلى تجريد الله سبحانه من صفاته ، وتلك بدعة كبرى .

وفي جملة القول لم يصب كل من هذين الفريقين الحقيقة في هذه المسألة . وليس هناك من يدرك الصفات الإلهية سوى أهل العلم والبرهان ، فهؤلاء وحدهم هم الذين يعلمون ، كما يقول ابن رشد ، أن الصفات الإلهية التى تبدو متعددة من وجهة نظرنا الإنسانية ليست كذلك في حقيقة الأمر بالنسبة إلى الله تعالى .

وهنا يجد ابن رشد نفسه أمام مشكلة يجب عليه أن يبت فيها برأى قاطع ، أوجب التصريح بحقيقة الصفات الإلهية للعامة أم الأولى بنا أن نردم عن البحث في أمرها ؟ لقد رأى من قبل النتائج التى ترتبت على مسلك الأشاعرة والمعتزلة عند ما أشركوا جمهور المسلمين في نقاشهم الجدلى ، وعلم كيف كان اختلاف هاتين الطائفتين منبعاً لشور لا حصر لها . ولذا لا يتردد في الإجابة بالسلب ؛ إذ ينبغي أن يصرف الجمهور عن مثل هذه الشبه ، وأولى به أن يؤمن بظاهر الشرع « فإذن الذى ينبغي أن يعلم الجمهور من أمر هذه الصفات هو ما صرح به الشرع فقط ، وهو الاعتراف بوجودها دون تفصيل الأمر فيها هذا التفصيل ؛ فإنه ليس يمكن أن يحصل عند الجمهور في هذا يقين أصلاً . » ومعنى هذا أن من واجب المؤمن الذى لا يشتغل بالعلم ولا بالجدل

في العقائد أن يقول بتعدد الصفات الإلهية . وهذا يفسر لنا لماذا احتوى القرآن على صفات عديدة لله ؟ إذ لما كان هذا الدين يتجه إلى الناس كافة فإنه لا يكفهم من أمرهم عتاً ، ولا يطلب إليهم الإيمان إلا بما تطيقه الغالية الكبرى منهم . فكيف له إذن أن يفصل أمر الصفات على النحو الذي فعله الأشاعرة والمعتزلة ، إذا كانت جمهرة المسلمين تعجز عن تتبع هاتين الطائفتين في المسالك والشعاب الوعرة التي قادها الجدل واللحج إليها ؟

ذلك هو رأى أبو الوليد بن رشد ، وهو هذا الرأى الذى اقتبسه توماس الأكويني فيما اقتبس عندما قرر أن الصفات الإلهية لا يمكن إلا أن تعبر عن حقيقة واحدة أو ذات لا تعدد فيها . أما تلك الصفات العديدة التي ينسبها المرء إلى الله سبحانه فإنها لا احدوا أن تكون وجهة نظر إنسانية .

وقد استطاع توماس الأكويني أن يدعى هذه الوجهة من النظر لنفسه ، كما استطاع ، هو وكثير من المسيحيين من قبله ومن بعده ، أن ينسب إلى فيلسوف قرطبة نظرية صوفية كان أبعاد الناس عن الإيمان بها . فهم يقولون إن هذا الفيلسوف كان يعتقد إمكان رؤية الإنسان لحقيقة الله في هذه الحياة الدنيا أو الاتحاد به ، على غرار ما يقول أصحاب الهوس الصوفى . ولسنا في حاجة إلى القول بأن هذه التهمة قد بلغت من الشناعة ومن سوء القصد مبلغاً لا يكاد يبلغه الخيال الجامع المريض . ولنا أن نتساءل إذا ما كان خصوم ابن رشد أو تلاميذه الأدياء من الأوروبيين يخرفون بما لا يعرفون ، ويرمون غيرهم بما هو فيهم أصيل ودفين ؟ ومن العجب أن يكون توماس الأكويني أحد هؤلاء الذين يوجهون إليه هذه التهمة البشعة ، ذلك أن هذا المفكر المسيحي الذى اعتاد قومه أن يسموه بالدكتور الملائكى آخر من يستطيع توجيه هذه الفرية إلى أستاذه ومنبع آرائه ومصدر شهرته . فإن ابن رشد عندما يقرر ويؤكد أننا لا نستطيع معرفة الصفات الإلهية إلا عن طريق التشبيه أو طريق التنزيه فإنه يريد بذلك أن الدات الإلهية لا يمكن أن تكون موضع معرفة

أو رؤية لعيني إنسان ، أفليس بمجيب إذن ؟ بل أليس مما يثير الاستمزاز والاستهجان حقيقة ، أن يأتي توماس الأكويني فيدعى لنفسه هذا الرأي ، ثم يزعم متجنباً أن ابن رشد كان من أنصار التصوف ، وأنه كان يؤمن بالاتحاد الصوفي مع الله سبحانه ؟ فهل يظن أن الشارح الأكبر قد بلغ من فدامة العقل وبلادة اللهن وكرال الطبع حداً يقول معه إن الإنسان لا يعلم صفات الله إلا عن طريق التشبيه والتنزيه ، ثم يقول في الوقت نفسه ، ودون أن يقطن إلى هذا التناقض الذي يفجأ البداهة : إن الإنسان يستطيع رؤية الله والاتحاد به ؟ وكيف لنا أن ندافع عن فيلسوفنا في هذا الموضوع إذا كان قد دافع عن نفسه من قبل بأبلغ عبارة وأقوى بيان فقال : « وذلك أن حال وجوده من عقول العلماء الراسخين في العلم عند النظر إليه بالعقل ، هي حال الأبصار عند النظر إلى الشمس ؟ بل حال عيون الحفائش » — تقول ليس لنا أن ندافع عنه أمام مثل هذه القرية التي يعد التصدي للرد عليها هواناً وصغاراً لا يليق بمن يريد الدفاع عن رجل في عظمة ابن رشد وتواضعه .



## الفصل السابع

### مخالفته تعالى للحوادث

إن السبب في كثير من الخلاف بين الطوائف الإسلامية في مسألة الصفات الإلهية يرجع ، كما سبق أن أشرنا إلى أنهم لم يضعوا نصب أعينهم ضرورة التفرقة بين عالم الغيب والشهادة ، وهي تلك التفرقة التي تعد من الأسس والمبادئ الأولى في الإسلام . وهذه التفرقة هي التي يعرفها الناس جميعاً بتزييه الله عن مشابهته للحوادث . وقد قررها القرآن الكريم بصورة واضحة في قوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ثم فسرها بقوله عز وجل : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » .

حقاً إن هناك صفات مشتركة بين الخالق والمخلوق لأنها تعد صفات كمال عند الثاني ، وهذا هو شأن صفات العلم والحياة والإرادة والقدرة والسمع والبصر . وطبيعي أنه يجب علينا أن نثبتها لله تعالى ، وإلا لترتب على نفيها أننا نجرده مما يمد كمالاً في خلقه . ومع ذلك فيجب أن توجد لله سبحانه على نحو يختلف عما توجد عليه لدى الإنسان ، أي أنه من الضروري أن ننفي المماثلة بين الخالق والمخلوق حتى في هذه الحال التي تشترك فيها صفاتهما ، بمعنى أن صفات الإنسان إذا وجدت لدى الله فيجب « أن توجد فيه . . . على جهة أتم وأفضل بما لا يتناهى في العقل . »

أما صفات النقص في الإنسان فلا يعقل أن تكون موجودة لله سبحانه ، مثال ذلك صفات اللوث الذي يخترم الصغير والكبير ، ويضع حداً للقدرة ، ويقطع السبيل أمام أنبل للقاصد ؛ وكالسهو الذي يعيب إدراكنا وملكاتنا ، وكالخطأ والنسيان . فمثل هذه الصفات لا يجوز أن تنسب إلى الحي القيوم الذي لا يفغل عن خلقه وعن عباده . وقد كان القرآن الكريم صريحاً في نفي هذه النقصات عن الله لأن كل إنسان عنده قدر يسير من صحة الحكم يعلم يقيناً أن معبوداً يموت أو ينسى أو يخطيء

لا يجدر به أن يكون إلهاً . وقد وردت في نبي تلك الصفات آيات كثيرة منها قوله تعالى: « وتوكل على الحى الذى لا يموت. »<sup>(١)</sup>، وقوله « لاتأخذه سنة ولا نوم. »<sup>(٢)</sup> وقوله : « قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . »<sup>(٣)</sup>

وهناك صفات نقص لا تبدو كذلك فى الوهلة الأولى . وهذه هى التى وردت فيها آيات تعد من الآيات للتشابهة . وقد اختلفت آراء المسلمين فى تفسيرها: فبعضهم نقاها عن الله سبحانه ، وبعضهم لم يجدها صفات نقص فأثبتها له تعالى . وأظهر ما يكون هذا الخلاف فى مسائل ثلاث ، وهى مسألة الجسمية ، والجهة ، والرؤية . وسنذكر كلمة مختصرة عن كل مسألة من هذه المسائل ، وسنعرض رأى أبى الوليد ابن رشد فيها .

## ١ — الجسمية

لما كنا لا نستطيع معرفة الله أو تحديد صفاته إلا إذا سلكنا طريقة التشبيه أو طريقة التنزيه فمن واجب العلماء أن يعترفوا بأنه لا يليق بالإله أن يكون جسماً ، على نحو ما نراه من مخلوقاته. غير أننا إذا رجعنا إلى الشرع وجدنا أنه يلتزم الصمت فى هذه المسألة فلا ينص صراحة على نفي الجسمية عنه تعالى . فما السبب فى ذلك ؟ إن العامة ، وهم الجهمرة الغالبة من الناس فى كل عصر وأمة ، لا يتصورون أنه من الممكن أن يوجد موجود غير جسمي ؟ إذ أن كل ما ليس بجسم يبدو فى نظرهم كأنه العدم سواء بسواء . وحقيقة لا يستطيع الرجل المعادى أن يصرف النظر عن الشروط الحسية والمادية للموجودات ؛ لأنه لا يعلم الأشياء إلا عن طريق الحواس أو الخيال . ويختلف أمره فى ذلك تماماً عن العالم أو الحكيم الذى يجيد استخدام

(١) سورة الفرقان آية ٥٨ (٢) سورة البقرة آية ٢٥٥ (٣) سورة طه آية ٥٢

النظر العقلي ، ويحسن استعمال البراهين للمنطقية ، فيصل إلى مرتبة يتصور فيها وجود موجود ليس بجسم .

وإذا نحن تصفحنا آيات القرآن الكريم رأينا أنها لاتشير إلى نفي الجسمية ؛ بل ربما كانت أكثر ميلا وأشد قربا إلى إثباتها ؛ فهي تثبت كما تعلم لله يدا ووجها . وربما كان هذا هو السبب في أن بعضهم يفهم من ورود هذه الآيات أن الجسمية إحدى الصفات التي يفضل فيها الله سبحانه عباده ومخلوقاته . وقد ذكر ابن رشد أن كثيراً من المسلمين يعتقدون هذا الرأي فيقولون بأن للخالق جسما لا يشبه بقية الأجسام ؛ وأن ابن حنبل وأتباعه من أصحاب هذا الرأي . ومع ذلك فالأحرى بنا ، — كما يقول أبو الوليد — أن سلك مسلك الشرع نفسه ، وألا نسير على هدى هذه الجماعة التي تثبت الجسمية لله سبحانه ؛ بل نكتفي بالأنا نصرح بنفيها أو إثباتها . فإذا سألتنا الرجل العاى عن حقيقة الأمر : أسبحانه جسم أم غير جسم قلنا له : « ليس كمثل شئ » وهو السميع البصير » ثم نهيناه عن الإلحاح في هذا السؤال لأن إدراك الحقيقة هنا ليس من الأمور البديهية أو القرينية إلى فهمه . والدليل على ذلك أن المتكلمين لما أرادوا البرهنة على أنه سبحانه ليس بجسم سلكوا مسلك الجدل فقالوا : ليس يمكن أن يكون جسما لأن كل جسم محدث . ولما أرادوا البرهنة على هذه القضية الأخيرة قالوا إن الأجسام تطرأ عليها أعراض مختلفة ، وهذه الأعراض حادثة لأنها توجد بعد أن لم تكن موجودة بالفعل . كذلك يعلم للراء من جانب آخر أن ما يقترن بالحوادث فهو حادث أيضا . تلك هي طريقتهم في نفي الجسمية عنه تعالى ، وهي الطريقة التي وصفها فيلسوف قرطبة فيما مضى بأنها غير برهانية ولا شرعية . (١) ولو فرضنا أنها برهانية لما استطاع الجمهور تتبعها . هذا إلى أن قولهم بأن الصفات زائدة على الذات يتعارض مع برهانهم هذا ؛ لأن هذا القول أقرب إلى إثبات الجسمية منه إلى نفيها ؛ فإن الإنسان — وهو ذوجسم — يختلف فيه الصفات عن الذات .

زد على ذلك أن التصريح بنفي الجسمية يفضى إلى شبهات تزعزع عقيدة الجمهور . فكيف للعامّة أن توفق بين عدم جسميته وبين ما ورد في القرآن من ذكر أحوال الحشر ورؤية الله يوم الحساب ، يوم يجي ربك والملائكة صفا صفا ؟ وكيف لها أن تعترف بوجود الله إذا قيل لها إنه سبحانه لا يوجد خارج العالم ولا داخله ولا في أعلاه أو في أسفله ؟ وكيف يمكن أن تعتمد إمكان رؤيته تعالى في اليوم الآخر ؟ وقد عرضت هذه الشبهة الأخيرة للمتكلمين فانقسموا في طريقة التخلص منها . أما المعتزلة فقد كانوا أكثر منطقاً مع أنفسهم ؛ لأنهم لما نقوا صفة الجسمية انكروا إمكان الرؤية التي تترتب عليها . أما الأشاعرة فقد أرادوا أن يجمعوا بين هذين الأمرين في الوقت نفسه ، أى أنهم حرصوا على إنكار الجسمية وإثبات الرؤية في آن واحد . ولما بدا لهم التوفيق بين هذين الأمرين عسيرا اضطروا إلى الاعتماد على بعض الحجج السوفسطائية التي سيشير إليها أبو الوليد فيما بعد .

ومن الشكوك التي يثيرها إنكار الجسمية أن هذا الإنكار يفضى أيضاً إلى نفي الجهة بالنسبة إلى الله تعالى . وهذا يتعارض مع ما جرى به اعتقاد الناس عامة من أن الوحي يهبط على الرسل وأنه ينزل إليهم من السماء . وذلك ما يقرره القرآن الكريم بقوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » . كما يتناقض مع الإيمان بأن الملائكة تنزل من السماء وتصعد إليها ، فقد قال تعالى : « نخرج الملائكة والروح إليه » ؛ وبأن الله في السماء فقد جاء في القرآن : « أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » . ومن المعلوم أن كل الشرائع أو الديانات الموحى بها تؤكد ، دون خلاف بينها ، أن الله في السماء . وبالجملة لا يتفق إنكار الجسمية مع نصوص كثيرة كحديث نزول الله إلى السماء إلى الأرض في كل ليلة ، وغير ذلك من الآيات والأحاديث . ولذا يرى ابن رشد أن من واجب العلماء ألا يخرجوا عما رسمه لهم كتاب الله ، بمعنى أنه ليس من شأنهم أن يصرحوا للجمهور بنفي هذه الصفة ، على غرار ما فعل الأشاعرة والمعتزلة من قبل ، وإلا وقع المحذور بأن يتأول الناس كثيراً من الآيات

التي يجب عليهم أن يعموها على ظاهرها . وبدوي أن تأويل هذه الآيات للجمهور ينتهي إلى تشويه الدين وتمزيقه وإلى افتراق أتباعه وتناحرهم . كذلك لا يحق للعالم أن يجيب العامة إذا ما سألوه عن حقيقة هذه الآيات بأنها من الآيات المتشابهة التي لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم لأن « هذا كله - كما يعترف ابن رشد - إبطال للشرعة ومحو لها من النفوس من غير أن يشعر الفاعل لذلك بعظيم ما جناه على الشرعة . » ومن الأكد أن الشرع لم يشأ التصريح بنفي الجسمية عنه سبحانه لأن ذلك يفوق مدارك العامة . والدليل على ذلك أنه لم يصرح لهم أيضا بنفي الجسمية عن النفس إذ قال : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فإن الجمهور لا يستطيع أن يدرك أن النفس كائنٌ روحي ، وأنها ليست بجسم وأنها مستقلة وقائمة بذاتها . وهذا هو السبب أيضاً في أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن يردّ على الدجال الذي ادعى الربوبية لنفسه بأن يقول له : أنت جسم والله ليس بجسم ؛ وإنما اكتفى بأن نفي عن الله سبحانه بعض صفات النقص الظاهرة التي توجد لدى هذا الدجال فقال : إن ربيك ليس بأعور . فالبدعة كل البدعة هي أن تفتح على الجمهور باباً ينبغى أن يظل مغلقاً ، وأن تثير لديه جدلاً وقلقا ما كان أغناه عنهما ، وذلك عندما تفصل له القول في أن الله جسم أو غير جسم ؟

أما إذا أُلحّ الجمهور بعد ذلك كله لكي يهتدى إلى حقيقة الأمر : الله جسم أم غير جسم ، وإذا أصرّ على إلحاحه بعد ما وقع من النقاش والخلاف بين الفرق الإسلامية فليس لنا أن نجيبه إلا بما سبق أن وصف الله به نفسه ، فنقول له : « إن الله نور السموات والأرض » وهو نور لا تدركه الأبصار لأنه أسمى من كل نور في هذا العالم الحسى . كذلك تقف العقول - مهما بلغت درجة صفائها - عاجزة عن معرفة كنهه تعالى وحقيقته . ومعنى ذلك أن العلماء ليسوا في هذه السبيل أكثر حنظاً من الجمهور ؛ بل يستون معهم في المعجز عن معرفة اللات الإلهية . وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك إذا كان الأنبياء أنفسهم ، وهم أقرب إلى الله من كل بشر ، لم يروا ذاته

سبحانه . فإذا ينبغي أن يجاب على من يبالغ في السؤال عن هذا الأمر بأن الله نور « وينبغي أن تعلم أن هذا المثال شديد المناسبة للخالق سبحانه ؛ لأنه يجتمع فيه أنه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه ، وكذلك الأفهام مع أنه ليس بحس . وللوجود عند الجمهور إنما هو المحسوس ، والمعدوم عندهم هو غير المحسوس . والنور لما كان أشرف المحسوسات وجب أن يمثل به أشرف الموجودات . . . وإذا قيل إنه نور لم يعرض شك في الرؤية التي جاءت في المعاد . »

ذلك هو رأى أبو الوليد في مسألة الجسمية ، ويتلخص في أنه ينكر هذه الصفة ، ومع ذلك يرى أنه من الأولى بنا ألا نصرح بنفيها للجمهور لأن هذا الأمر ليس من أطواره ، بل يقف فهمه عند حد أدنى من ذلك . وإنما يقبل هذا الرأى الذى يرتضيه ابن رشد من كان يعلم أن في عالم الشهادة موجودات غير جسمية كالأرواح الإنسانية ، وأن ما يصدق على هذا العالم أولى أن يكون حقاً بالنسبة إلى عالم الغيب . أبعد ذلك يقال إن ابن رشد أراد البرهنة على العقائد الإسلامية نفاقاً ورياء ، وتقرباً إلى العامة ؟ وهل من أساليب التلقح أن ينص هذا الفيلسوف على عجز الجمهور وقصور تفكيره وضرورة صرفه عن البحث في العقائد ؟

## ٢ - الجهة

من للعلوم جيداً أن غالبية المسلمين يشبتون وجود الجهة بالنسبة إلى الله تعالى فيقولون إنه في السماء . وقد خرج على هذا الرأى الذى يكاد يكون إجماعاً طائفة المعتزلة ، وقد قفا على آثارهم - كما يقول ابن رشد - بعض المتأخرين من الأشعرية ومنهم أبو العالى . ولكن لماذا نفي هؤلاء الجهة ؟ ذلك أنهم وجدوا أن إثباتها معناه القول بوجود مكان يحل فيه الله سبحانه ، وهذا يفضى إلى القول بأنه جسم ؛ ذلك لأن الأجسام هى التى تشغل حيزاً من الفراغ أى مكاناً .

ولم يرتض أبو الوليد أن يتبع المعتزلة فيما ذهبوا إليه ؛ بل أوجب الرجوع إلى الآيات القرآنية التي تدل حسب ظاهرها الذي لا يجوز تأويله على إثبات الجهة . فمن ذلك قوله عز وجل : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . » (١) وقوله : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرحم إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » (٢) وقوله : « تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٣) وقوله : « أؤمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » (٤) . كذلك يحتمى القرآن الكريم على آيات أخرى كثيرة نص على أن السماء مكان للملائكة ، وأنها الموضع الذي تنزل منه للملائكة بالوحي ؛ فمن ذلك قوله تعالى : « إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . » (٥) ولنا بصدد إحصاء جميع الآيات والأحاديث التي تثبت الجهة لله تعالى فهي كثيرة . كذلك لا يجوز صرفها عن ظاهرها والقول بأنها كلها من المنشابهات . فإن كل الديانات متفقة على أن الله وملائكته في السماء ، وقد اتفق كل الحكماء على ذلك كما يقرره ابن رشد في كتابه مناهج الأدلة .

وقد حاول أبو الوليد أن يبرهن على وجود الجهة بالنسبة إلى الله تعالى وذلك بالتوفيق بين الآيات القرآنية وبين فلسفة أرسطو . فبدأ أولاً بالترقية بين الجهة والمكان حتى يستطيع تجنب الشبهة التي آثارتها المعتزلة وهي : إذا كان الله غير جسم فكيف يمكن أن يكون في جهة معينة ؟ . فقال تبعاً لنظرية أرسطو

(١) سورة الحاقة من آية ١٣ إلى آية ١٨ (٢) سورة السجدة آية ٥

(٣) سورة المارج آية ٤ (٤) سورة الملك آية ١٧

(٥) سورة النجم آيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

إنه لا وجود لفرغ أو مكان خارج الفلك الأقصى ، وهو آخر الأفلak السماوية  
أى الفلك الذى يحتوى على بقية الأفلak الأخرى ؛ إذ لو كان هناك مكان  
خارج هذا الفلك لوجب أن يوجد مكان ثان يحيط بهذا المكان وهكذا دواليك  
إلى ما لا نهاية له . (١) فإذا ثبت أنه لا وجود للمكان خارج العالم ترتب على ذلك  
أن الله الذى يوجد فى هذا الاتجاه ليس جسا لأنه لا يحل فى مكان . فالقول بأن الله  
يوجد فى هذا الاتجاه لا يتضمن الاعتراف بجسميته ؛ بل ذلك دليل على عدم جسميته .  
وهكذا يتبين لنا أن فيلسوف قرطبة يحاول جهده التقريب بين الفكرة الإسلامية  
وبين فلسفة أرسطو . ففى رأيه - كما فى رأى هذا الفيلسوف الإغريقى - لا يمكن  
أن توجد صلة مادية بين الله وبين السطح الخارجى للفلك الأقصى . وقد توسع  
ليون جوتيه فى تفسير أوجه الشبه بين الفيلسوفين فى كتابه الذى خصصه لدراسة  
نظرية ابن رشد فى التوفيق بين الدين والفلسفة . (٢) ففى وراء العالم لا يوجد مكان  
ولا يمكن تطبيق معايير الزمن ، لأن المكان والزمان إنما يصدقان على الأجسام . وهذا هو  
السبب فى أن الجهة التى يوجد بها الله وملائكته لا توصف بأنها مكان . وينتهى ابن رشد  
من ذلك إلى القول بأن إثبات الجهة لله سبحانه ليس واجباً حسب الشرع وحده  
فحسب ؛ بل تتطلبه البراهين الفلسفية أيضا .

ومع ذلك فإنه يشعر بشيء من الحرج فى التسليم بهذا الرأى ، ويحس أن هناك  
صعوبة حقيقية فى محاولة الجمع هنا بين الدين والفلسفة ، لهذا نراه يعود مرة أخرى إلى

---

(١) قال ابن رشد يمرض هذا الرأى فى مناهج الأدلة ، وأما سطح الفلك الخارج فقد  
تبرهن أنه ليس خارجه جسم لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون خارج هذا الجسم جسم وعمر  
الأمر إلى غير نهاية . فإذا سطح آخر أجسام العالم ليس مكانا أصلا ؛ إذ ليس يمكن أن يوجد  
فيه جسم لأن كل ما هو مكان يمكن أن يوجد فيه جسم . فإذا إن قام البرهان على وجود  
موجود فى هذه الجهة فواجب أن يكون غير جسم . انظر طبعة الحامبى ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) ارجع إلى هذا الكتاب : صفحة ٧٥ ملاحظة ٢ فى الهامش :



الشبهة التي تترتب على إثبات الجمة ، تلك الشبهة التي أراد المعتزلة تجنبها من قبل : وهي كيف نستطيع إثبات الجمة لله مع أننا ننكر الجسمية ؟ لكنه عاد إليها هذه المرة لكي يبين السبب في نشأتها : إن تلك الصعوبة إنما تثبت في الدهن من جهة أن الجمهور لا يجد في عالمه الحسى مثالا يقرب إليه فهم هذا الأمر . وهو كيف يمكن أن يوجد وجود غير جسمي في جهة معينة ؟ فلو كان لهذا مثال في عالم الحس لما دب الريب إلى قلبه . مثال ذلك أنه يثبت العلم لله لأنه يجد أن هذه الصفة مما يوجد للانسان وما يمد كمالا فيه . أما إذا لم يجد في عالمه الحسى شيئا يرر أو يفسر له ما نطلب إليه الإيمان به فإنه يشعر بالاضطراب والتناقض . وهذا هو السبب الذي من أجله ينبغي للعلماء أن ينهوا الجمهور عن البحث في مسألة الجمة ، وبخاصة إذا كانت معرفة الحقيقة فيها ليست ضرورية في شأنهم ؛ إذ هي لا تقدم ولا تؤخر ولا تتصل بحياتهم وسعادتهم في هذه الحياة الدنيا . وهذا هو ما يقرره الواقع . فإن العامة لا تحس حاجة إلى التعمق في هذه المسألة ، فضلا عن أنها لا تشعر بالشبهة التي شعر بها للمعتزلة من قبل « ولا سببا إذا لم يصرح لهم بأنه ليس بجسم . فيجب أن يمثل في هذا كله فعل الشرع ، وألا يؤول ما لم يصرح الشرع بتأويله »

وبالاختصار يرى ابن رشد أنه ليس ثمة باعث يوجب هذه الشبهة بالنسبة إلى العلماء والجمهور . ذلك لأن الأولين يتصورون ، دون مشقة ، وجود موجود غير جسمي في جهة معينة من غير أن يكون شاغلا لحيز من الفراغ . وهذا هو ما يقرره أرسطو ؛ ولأن الآخرين لا يشغلون أنفسهم بالبحث في هذا الأمر وعلى هذا النحو الذي قد نجد لدى بعض الفلاسفة ؛ وهم لا يرغبون ، من جانب آخر ، في اتباع طرق الجدل كتلك التي تراها لدى للتكلميين . فلا غرو إذن إذا اتخذت عقيدتهم مع عقيدة العلماء ؛ ولا عجب إذا كان هذان الصنفان هم الناس على وجه الحقيقة ، لأنهم من ذوى الفطر السليمة ، أي هم هؤلاء الذين تأسسهم الشريعة سواء أكانوا ممن يجب عليهم الوقوف عند حد الآيات الظاهرة ، أم من هؤلاء الذين يحق لهم

تأويل ما خفي من المعاني الدينية تأويلاً يتفق مع ما يقرره البرهان . أما المتكلمون فهم هؤلاء الذين لا يترقب بهم فيلسوف قرطبة ، ولا يمتلقهم ولا يدهانهم عندما يصفهم بأنهم مرضى وأنهم أقلية بين المسلمين . ثم لا يتورع عن اتهامهم بأنهم هم الذين يتبعون ما تشابه من القرآن فيؤولون كثيراً من آياته ويصرفونها عن ظاهرها، ثم يدعون بعد ذلك أن هذه الآيات إنما جاءت متشابهة وغامضة ابتلاء من الله بعباده . ثم يقول في حقيهم آخر الأمر : « ونعوذ بالله من هذا الظن بالله ؛ بل نقول إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان . »

\* \* \*

ولقد أخطأ المتكلمون خطأ كبيراً عندما ركنوا إلى التأويل في الشرع على نحو لا تضبطه قاعدة مما أدى إلى تعدد التأويلات وتضاربها وتعارضها . وسحب ذلك بطبيعة الأمر أن تزعزت عقائد كثير من الناس، واتسم المسلمون إلى طوائف متنافرة ، كما تنبأ بذلك الرسول عليه السلام فقال : « ستفترق أمتي على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » . وهنا يفسر ابن رشد هذا الحديث فيقول إن المراد بالطائفة الواحدة هي التي اتبعت ظاهر هذا الشرع والتي إذا أولته لم تصرح بتأويله للناس . وقد ضرب لنا هذا الفيلسوف مثالا يوضح لنا به كيف كانت إباحة التأويل لكل من هب ودب سببا في هذه الفرقة والشحناء بين أبناء اللثة الواحدة . فقال لنفرض أن طبيا ماهراً ألف دواء فيه شفاء للناس - كما أن الشرع يعتبر دواءً للنفوس - فخرج من بين عامة القوم رجل وجد أن هذا الدواء العظيم لم يكن ناجعا في علاج مرضه لفساد مزاجه وطبعه لا لنقص في طبيعة الدواء ؛ فأتخذ ذلك ذريعة إلى القول بأن هذا الدواء يتألف من عناصر معينة ، ولكن الأسماء التي سجلها الطبيب للاهر للدلالة على هذه العناصر لا يراد بها المعنى المتبادر إلى الذهن ؛ بل معنى خفيا آخر . ثم بدأ يخرج بعض هذه العناصر ويضع مكانها عناصر أخرى وقال للناس : « هذا هو الذي قصده الطبيب الأول . » فلما تناولوا هذا الدواء الجديد بعد تعديل تركيبه اضطربت له صحة كثير من الناس . فجاءهم رجل آخر أراد إصلاحه فأخرج بعض عناصره

واستعاض عنها بعناصر أخرى . ثم قدمه إلى الناس على أنه الدواء الذى كان يريد  
الطبيب الماهر الأول . فأدى ذلك المزج أو الخلط الجديد إلى نشأة أمراض جديدة .  
ثم جاء رجل ثالث ورابع وخامس كل يعدّل الدواء ويتصرف فى تركيب عناصره  
حتى انتهى الأمر بأن بعدت الشقة تماما بين الدواء الأول والأخير ، وبأن بطلت  
الفائدة المرجوة لجميع الناس باستعمال هذا النوع من العلاج « وهذه - كما يقول  
ابن رشد - هى حال الفرقة الحادثة فى هذه الطريقة مع الشريعة . وذلك أن كل فرقة  
منهم تأولت الشريعة تأويلا غير التأويل الذى تأولته الفرقة الأخرى وزعمت أنه  
الذى قصده الشرع حتى تمزق الشرع كل تمزق ... وإذا تأملت ما فى هذه الشريعة فى  
هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبين أن هذا المثال صحيح . » (١)

وقد بدأ هذا البلاء الأعظم فى الشريعة الإسلامية بظهور الخوارج وما تبع ذلك  
من انقسام المسلمين إلى طائفتين كبيرتين هما المعتزلة والأشاعرة . وزاد البلاء شدة  
فى رأى ابن رشد عندما صرح الإمام الغزالي بكثير من التأويلات للجهمور فى كتبه .  
فهو يأخذ على الغزالي أنه دوّن فى هذه الكتب كثيرا من التأويلات الفلسفية  
الفاصلة ؛ بل التى قد تكون متناقضة أحيانا . من ذلك أنه يحارب الفلاسفة ويحكم  
بتكفيرهم فى بعض من المسائل ثم يأخذ عنهم رأيهم فيها . مثال ذلك أنه يقول فى كتاب  
مشكاة الأنوار إن سائر الناس محبوبون ماعدا هؤلاء الذين اعتقدوا أن الله سبحانه  
ليس هو محرك السماء الأولى ؛ بل إن محرك هذه السماء عقل صدر أفاض عن الله سبحانه .  
وهذا هو مذهب بعض الفلاسفة وبالأخص الفارابى وابن سينا ، مع أنه يقول فى كتابه  
« المنقذ من الضلال » إن علومهم الإلهية هى أمور تخمينية . وقد كان لتصريحه بتأويلات  
عديدة فى مختلف كتبه أثر فى البلبلة والتشويش اللذين لحقا العقول ، مما أدى إلى  
انقسام المسلمين بصفة عامة إلى جماعتين متنازعتين انبرت احدهما لمد الفلسفة وتكفير  
الفلاسفة ، وحاولت الأخرى أن تؤول كل شىء فى الشرع على نحو تجعله موافقا لمختلف

الآراء الفلسفية . وقد أخطأ هذان الفريقان خطأ فاحشاً في حق الدين والفلسفة على حد سواء .

وعلا لاريب فيه أن صراحة ابن رشد في نقد المتكلمين والنزالي كانت سبباً في نفور كثير من المسلمين من فلسفته ؛ لأن النزالي يعد من أكبر أئمة المسلمين ومفكرهم . ومع ذلك فلم يحاول أحد من المتكلمين أن يقف من نقد ابن رشد موقف العالم واسع الصدر ، ولم يحاول أن يفهم وجهة نظره ومعرفته البواعث الحقيقية التي دفعته إلى تقريرها ، وهى - فيما نعتقد - بواعث تنسم بالإخلاص والرغبة في رفع الخلاف وفي القضاء على العداء والصراع للزعميين بين الدين والعقل . وقد بذل المتكلمون جهداً ليس بالضئيل في تشويه سمعة ابن رشد لدى المسلمين ؛ إذ كانوا يرون فيه خصماً قوياً وشديداً الحظر على مناهجهم ونظرياتهم . وهكذا اتهموه بالمروق ووصموه بالإلحاد لأن ذلك سلاح يستطيع استخدامه كل انسان، ولا يحتاج في استخدامه إلى مهارة كبيرة أو عناء ؛ ولأن العامة ربما تجد نوعاً من تجديد إيمانها في محاربة هؤلاء الذين يرمون بالكفر أو بالانحراف عن الدين . ومع ذلك لا يحفل فيلسوف قرطبة بعداء المتكلمين ولا بسخط هؤلاء الذين يعتمدون على التقليد أكثر مما يعتمدون على عقولهم ؛ فيصرح دون قلق أو خشية أنهم قد أساءوا إلى الديانة الإسلامية إساءة بالغة . ذلك أنهم استطاعوا ، بفضل آرائهم الظنية وطرقهم الجدلية ، أن يعرفوا بين المسلمين تفرقة بعيدة الغور وأن يقسموهم إلى طائفتين تلعن الأولى منهم الفلسفة والفلاسفة ؛ بينما تنظر الأخرى إلى الدين كما لو كان يعجز عن تحقيق وإشباع مطالب النظر العقلى . فليس بعسير علينا إذن أن نفهم السبب الذى من أجله تنور نفس أبى الواليد حقناً وغضباً على هؤلاء الذين احتكروا تأويل النصوص الدينية ، وزعموا أنهم وحدهم هم الذين يفهمون الشرع وأنهم أحق وأولى الناس بأن يفرضوا آراءهم على الآخرين .

وينبئنا لنا ألا نضع إخلاص ابن رشد موضع شك أو سؤال وإلا لوجب القول

بأنه أكثر الناس نفاقاً وسوء طوية ؛ لأنه يبدو ، في هذه الحال ، بمظهر الرجل الذى يغضب ويثور لدينه في نفس الوقت الذى يبذل فيه وسعه وقدر قوته لكي يفرر بيني ملته ، ويعمل معاول الهدم في الدين . وفي رأينا أن فيلسوفنا ينتمى إلى طبقة من الفلاسفة لا تبيح له التفرير بالآخرين ، أو التظاهر بالغضب الكاذب . فإذا غضب ابن رشد فإيما يغضب للحق ؛ ذلك لأنه يريد أن يبقى للعامة على عقائدهم ، وأن يقيم آراء المتكلمين التي تثير الريب أكثر مما تحفز إلى الاقتناع وشدة الإيمان . ولكنه لا يهاجم المتكلمين ولا يريد القضاء على آرائهم حتى يعرض على العامة آراءه الخاصة ، وحتى يلزمهم أو يفرض على عقولهم طريقته في تأويل بعض النصوص الدينية التي تتضمن معنى غير ذلك الذى تدل عليه بحسب ظاهرها ؛ وإنما الأمر على خلاف ذلك تماما . لأنه يهيب بالجمهور أن ينصرف إلى النصوص الظاهرة التي جاءت بها الشريعة ، ولأنه بحث أصحاب التفكير النظري أو الجدلي في العقائد أن يتقوا الله في إخوانهم في الدين . وألا يصرحوا بتأويلاتهم للعامة ، لأن ماحل بالمسلمين إنما يرجع ، في التحليل الأخير ، إلى التصريح بهذه التأويلات المتضاربة المتناقضة . كذلك لا يفتأ هذا الفيلسوف يردد القول بأن الفلسفة الحقمة لا يمكن أن تتنافى مع الدين ؛ لأن الحكمة هي صاحبة الشريعة وأختها الرضية ، ولأن هؤلاء الذين يحاربون إحداها باسم الأخرى ليسوا في الحقيقة إلا أصدقاء جهال لهما . أما هؤلاء الذين يجزمون باستحالة التوفيق بين الدين والفلسفة فهم هؤلاء الذين لم يفهموا الدين على حقيقته ، أو الذين أساءوا فهم الفلسفة ، ونسبوا أنفسهم إليها عدوانا وادعاء .

### ٣ - الرؤية

ويترب على المشكلة السابقة مشكلة أخرى وهي : أمن الممكن رؤية الله في اليوم الآخر؟ وقد اختلفت آراء المتكلمين في هذا الصدد ؛ إذ مالت طائفة للعزلة إلى إنكار الرؤية فاضطروا إلى تأويل الآيات والأحاديث الواردة فيها ، وذلك على الرغم

من كثرة هذه النصوص وشهرتها . وقد بنوا تفهيم لهذه الروية على الأساس الآتي وهو: أن الله لما لم يكن جسماً ولما كان لا يوجد في جهة معينة فمن غير الجائز أن يكون موضعاً للرؤية ؛ لأن كل ما يرى لا بد أن يكون جسماً موجوداً في جهة معينة . وقد عضدوا رأيهم هذا ببعض آيات القرآن كقوله تعالى: « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . » (١) وينبغي لنا أن نعترف بأنهم منطقيون مع أنفسهم فقد جمعوا بين إنكار الجهة وإنكار الرؤية .

أما الأشاعرة فقد حاولوا التوفيق بين نفي الجسمية وإثبات الرؤية الحسية لله تعالى في اليوم الآخر . وقد اعتمدوا في تعضيد رأيهم على حجج موهبة سوفسطائية تبدو في مظهر الصدق لكنها فاسدة ؛ إذ تقوم عادة على أساس المغالطة وإنكار الواقع . وقد رأوا أن يبدأوا بنقض آراء المعتزلة والتدليل على تهافتها . فقالوا إن المعتزلة ينفون الرؤية لأنهم يعتقدون أن كل شيء مرئي لا بد من أن يكون موجوداً في جهة مقابلة للعين البصرة . ولكن هذا الشرط ، وإن كان ضرورياً في عالمنا الحسي عالم الشهادة ، فهو ليس كذلك بالنسبة إلى عالم الغيب . وإذن فليس من الجائز أن نمائل بين هذين العالمين ؛ إذ من الممكن أن يرى الإنسان في الحياة الآخرة موجوداً ليس في جهة معينة . وقد أراد الأشاعرة تأكيد هذه القضية الأخيرة فقالوا إنه من الجائز أن يرى الإنسان الله بالقوة المبصرة ، دون أن يستخدم العين ذاتها . ولكن هذه الحجة تبدو تافهة في نظر أبي الوليد ، وهي تقوم على مغالطة بينة . ذلك بأن الأشاعرة يماننون ، خطأ ، بين العين والعقل . فبينما تتطلب الروية البصرية شروطاً معينة نجد أن العقل يرى أو يتصور الموجود الذي لا يحتل مكاناً ولا يوجد في جهة خاصة . وإذن يرى ابن رشد أن حجة هؤلاء المتكلمين غاية في العراية ، وأنه يكفي في ردها وبيان ضعفها أن نقول إنها تتناقض مع ما ترشدنا إليه للملاحظة والتجربة . فإن للرؤية الحسية شروطها الخاصة ، وهي أن يكون الشيء المرئي في جهة محددة بالنسبة إلى الشخص الذي

براه . كذلك لا بد من وجود الضوء ووجود جسم شفاف يتخلل المسافة بين العين والشيء الذي تراه . فإنكار الأشاعرة لهذه الأمور معناه إنكار الأمور البديهية نفسها ، وإبطال لما يقرره الواقع . وقد ذهب الإمام الغزالي إلى رأى الأشاعرة عندما قرر أنه ليس من الضروري أن يكون الشيء المرئى في جهة معينة مقابلة للعين . واستخدم لذلك مثالا وهو أن الإنسان يستطيع رؤية نفسه في المرآة وليست ذاته أو نفسه حالة في المرآة التي توجد أمامه . وإذن فهو يبصر ذاته في غير جهة . ولا ريب في وضوح المغالطة هنا . ذلك لأن المرء إنما يبصر خيال ذاته ، وهذا الخيال يوجد في جهة مقابلة له دون ريب .

ولما ظن الأشاعرة أنهم برهنوا على فساد رأى خصومهم من المعتزلة جعلوا يبرهنون على إمكان رؤية الله سبحانه رأى العين في غير جهة فقالوا إنه الشيء المرئى إنما تراه العين إما لأنه جسم وإما لأن له لونا معيناً . ثم أخذوا يبرهنون على فساد هذين الفرضين حتى يقرروا أنه من الممكن رؤية ما ليس بجسم وما ليس له لون . أما أن الفرض الأول فاسد لديهم فذلك لأننا لو قلنا إن الشيء يرى من جهة أنه جسم لكان معنى ذلك أننا لا نستطيع رؤية الألوان وهذا غير صحيح . كذلك لا يجوز أن تكون رؤية الشيء ممكنة بسبب لونه ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما أمكنت رؤية الأجسام . فلما ثبت فساد الفرضين تبين لنا أنه الشيء إنما يرى بسبب وجوده بحسب .

ولسنا في حاجة إلى نقد هذه الحججة التي تشبه عبث الأطفال والتي تزعم أنها تعتمد على طريقة القسمة العقلية أو طريقة التنفيذ ، وهي منها براء في حقيقة الأمر . وذلك لأننا نعلم أن الأشياء إنما ترى بسبب اجتماع عدة شروط سبق أن أشرنا إليها . وقد أراد ابن رشد أن يجادل الأشاعرة تبعاً لأسلوبهم الغريب في البرهنة على آرائهم فقال: لو كانت الأشياء إنما ترى فقط بسبب وجودها لكان من الواجب أن تستوى الحواس جميعها في هذه الناحية ، بمعنى أنه من الممكن أن تدرك العين المسموعات وأن تدرك الأذن الألوان ما دامت المسموعات والألوان موجودة وما دام وجودها

كافياً في إدراكها: « ولو كان الشيء إنما يرى من حيث هو موجود فقط لوجب أن تبصر الأصوات وسائر المحسوسات الخمس . فكان يكون البصر والسمع وسائر الحواس الخمس حاسة واحدة وهذه كلها خلاف ما يعقل . وقد اضطر المتكلمون لمكان هذه المسألة وما أشبهها أن يسلوا أن الألوان ممكنة أن تسمع ، والأصوات ممكنة أن ترى . وهذا كله خروج عن الطبع وعمما يمكن أن يعقله إنسان . » (١)

وقد اعتمد الأشاعرة على حجة ثانية في إثبات إمكان رؤية الخلق لله سبحانه يوم القيامة وهي الحجة التي تنسب إلى أبي العالى . وهي لا تختلف في الواقع عن الحجة السابقة؛ لأنها تنحصر في التذليل على أن الحواس إنما تدرك ذوات الأشياء لا الحالات الخاصة التي تتشكل بها ومعنى ذلك أن الحواس تدرك الشيء من حيث هو موجود . وقد ناقض فيلسوفنا هذه الحجة بأن قال لو كانت العين تدرك ذوات الأشياء لما كان في استطاعتها أن تفرق بين اللون الأبيض واللون الأسود ، ولو كانت الحواس تدرك الوجود فقط لعجزت عن التفرقة بين الأصوات والأطعمة والروائح ، أى أن الأمر ينتهي بنا إلى تلك الفكرة الخاطئة التي رأيناها بصدد الحجة الأولى ، وهي أن تستوى الحواس جميعها فلا يوجد فرق بين ما يدركه السمع وبين ما يدركه البصر « وهذا كله غاية في الخروج عما يعقله الإنسان . . . ولولا النشأ على هذه الأقاويل ، وعلى التعظيم للقائلين بها لما أمكن أن يكون فيها شيء من الإقناع ، ولا وقع بها التصديق لأحد سليم الفطرة . » (٢) ولما فطن بعض للتكلمين إلى ما تفضى إليه مثل هذه الحجج من التخليط والتشويش جنحوا إلى رأى سليم فقالوا ليس للمقصود بالرؤية هو الرؤية الحسية المعروفة لدينا في هذه الحياة ؛ بل المراد بها رؤية من نوع آخر وهي مزيد علم بالله تعالى .

وحقيقة ما كان أغنى المتكلمين جميعا عن الخوض في أمور ما كان لهم أن يخوضوا فيها ، وبخاصة عندما صرّحوا للجمهور بنفي الجسمية ؛ إذ أن نفي الجسمية



صراحة جعل من العسير عليهم أن يبرهنوا للعامة على إمكان رؤية موجود ليس بحجم ؛ لأن العامة لا تتصور أنه من الممكن رؤية شيء آخر سوى الأجسام . ولما كان الشرع يعلم عقلية الجمهور لم يشأ أن يثبت الجسمية لله سبحانه أو ينفيها عنه ؛ وإنما أراد أن يقرب حقيقة الذات الإلهية إلى أذهان الناس عامة فقال : « الله نور السموات والأرض » . فهذا الوصف يمتاز بأنه لا يثير شبهة ما ، كما أنه لا يتعارض مع الآيات ولا مع الأحاديث التي وردت في أمر البعث والحشر « لأنه إذا قيل . . إنه نور وإن له حجاً بآ من نور ، كما جاء في القرآن والسنن الثابتة ، ثم قيل إن المؤمنين يرونه في الآخرة ، كما ترى الشمس ، لم يعرض في هذا كله شك ولا شبهة في حق الجمهور ، ولا في حق العلماء ، وذلك أنه قد تبرهن ، عند العلماء ، أن تلك الحال مزيد علم . لكن متى صرّح لهم به ، أعنى للجمهور بطلت عندهم الشريعة كلها ، أو كفروا المصرّح لهم بها » فليس بالجمهور حاجة إلى التعمق في بحث ههذه المسألة بل الأولى به أن يكتفى بظاهر الشرع . أما العلماء فلما كانوا يستطيعون التفرقة على أكل وجه بين عالم الغيب والشهادة فإنهم يقررون ، على غرار ابن رشد ، أنه من المستحيل أن يرى الإنسان الذات الإلهية على حقيقتها في الحياة الآخرة . وكل ما هنالك أن المؤمنين يستطيعون رؤية هذه الذات على النحو الذي تستطيع معه العين أن ترى جوهر الشمس . فالرؤية إذن رمزية وليست شبيهة بالرؤية الحسية التي نعلمها . ومعنى ذلك أن الله يجود على المؤمنين ، في الحياة الآخرة ، بعلم من نوع لم يألفوه ، فيزيدهم قرباً إليه دون أن يروا حقيقته أبداً .

أبعد ذلك يزعم الزاعمون أن فيلسوف قرطبة كان من أتباع النظرية الصوفية التي تقول بإمكان رؤية الذات الإلهية حتى في هذه الحياة الراهنة ؟

# الفصل الثامن

## العالم والإنسان

عرض فيلسوف قرطبة في الفصل الأخير من كتابه مناهج الأدلة إلى عدة مسائل لكي يكمل بها برهنته على صدق نظريته الخاصة بالاتفاق التام بين الدين والعقل . وهذه المسائل هي : خلق العالم ، وبعث الرسل ، والقضاء والقدر ، والعدل والجور ، والبعث . ويمكن القول بأن آراءه في هذه المسائل الخمسة تعد ردًا حاسمًا على جميع تلك التهم التي وجهها إليه كل من لم يرع في خصوصته وجه الحق ، سواء أكان من بني ملته أم من الأوروبيين . كذلك تعد تكذيبًا لنظريات كثير من مورخى الفلسفة المسيحية في العصر الراهن .

### ١ - خلق العالم

ترتبط فكرة العالم بفكرة الإله لدى جمهرة الفلاسفة ، حتى هؤلاء الذين ينكرون خلق العالم ؛ فاتهم يقولون بأن هناك مادة أولى قديمة يقترن وجودها بوجود الإله منذ الأزل . كذلك نجد هذه الصلة بين الله والعالم من باب أولى لدى من يقول بالخلق . وقد كان فلاسفة الإغريق الذين أخذ عنهم فلاسفة الإسلام ممن يقولون بقدم المادة ، وأشهر هؤلاء أفلاطون وأرسطو . فأفلاطون يقول إن الله يخلق الأشياء الحسية على غرار المعاني الأبدية . ولكنه يخلق هذه الأشياء من مادة سابقة تسمى بالمكان الأبدى أو للمستودع الذي تخرج منه الأشياء . وهى مادة قديمة في حالة فوضى فينقلها الخالق من هذه الحالة إلى حالة النظام والاتساق . أما أرسطو فيرى أن المادة الأولى قديمة كالإله نفسه ، وأن العالم يتحرك منذ القدم حركة لا نهاية لها ، وأن الله هو المحرك له ، ولكنه لا يحركه بطريقة مباشرة ؛ بل لما كان الإله مثال الكمال حاول العالم التشبه

به عن طريق أكل أنواع الحركة وهي الحركة الدائرية . وبالجملة ينكر أرسطو فكرة الخلق ؛ بل يذهب إلى حد أن يصف إله بأنه مجهل العالم . وتلك نقطة ضعف في مذهبه إذ أنه أراد أن يزه إلهه عن إيجاد ضروب النقص في الكون فلم ينجح إلا في أن يجرده من الحكمة والإرادة والقدرة . وكان أولى به أن يتجنب الوقوع في مثل هذا التناقض أى القول بوجود قديمين أحدهما علة للآخر بصفة عرضية ؛ وذلك لأنه كان يفهم العلة على أنها سابقة للمعلول — ومعنى ذلك أنه كان في وسعه القول بأن الإله علة أولى وإنه علة مطلقة لا تشبه العلل الطبيعية ؛ ولذلك فإنه يخلق العالم من غير مادة سابقة وفي غير زمن .

فلما جاء أهل الكلام من المسلمين حاولوا التغلب على هذه الصعوبات ، فقال المعتزلة إن الله يخلق العالم من العدم . لكنهم انتهوا كما قلنا (١) إلى أن وصفوا العدم بأنه ذات وأنه محتوى على الجواهر والأعراض التي ينقلها الله من العدم إلى الوجود . ويمكن القول على نحو ما بأنهم لم يتخلصوا من تأثير أرسطو وأفلاطون ، وذلك لأن فكرتهم عن العدم ليست فكرة مجردة من كل مضمون ؛ وإنما تعبر عن الشيء للمعدوم الذي يمكن وجوده وإلا كان ممتنعاً . وقد اعترفوا صراحة بأن الشيء للمعدوم الذي يجوز أن يوجد بعد ذاتاً أو حقيقة تنتقل من العدم إلى الوجود . وفي الواقع نجد صلة قوية بين آرائهم هذه وبين رأى أفلاطون الذي كان يعتقد أن المادة الأولى تنتقل بفعل الخالق من حالة عدم التحديد إلى حالة النظام والاتساق . ويعيب فكرتهم أنها تعتمد على أساس واه ، وهو أنهم اعتقدوا أن كل فكرة أو لفظ لابد أن يكون مقابلاً لشيء يوجد بحسب الواقع . فكلمة عدم تدل على وجود ذوات وأعراض يتعاقبها علم الله القديم ؛ بل لقد ذهب بعضهم إلى أن نص صراحة على قدم العدم .

وقد أراد فلاسفة الإسلام الأولون — باستثناء الكندي الذي ظل في الاتجاه العام

للروح الإسلامية<sup>(١)</sup> - أن يجدوا لأنفسهم مخرجاً من هذه الشكوك فنجحوا نحو رأي لم يكن أقل إثارة للريب والشبهات، ونعني به نظريتهم في الفيض. فقال الفارابي - وهو من الفلاسفة الأول الذين اتبعوا الأفلاطونية الحديثة - إن الأشياء المتعددة التي تراها في الكون لا يمكن أن تصدر عن الله سبحانه دفعة واحدة وبطريقة مباشرة. ولذا اعتمد على إحدى النظريات الأفلاطونية الحديثة، تلك التي تقول بأن الواحد لا يمكن أن يصدر عنه إلا واحد مثله، وهذا هو ما أطلق عليه الفارابي اسم للعول الأول، وهو عقل يفيض عن الله سبحانه، ثم تفيض عنه جميع الموجودات الأخرى شيئاً فشيئاً. ولسنا في حاجة إلى التأويل حتى نبين أن هذا الفيض التدريجي لا يعد حلاً لمشكلة قدم العالم؛ إذ لا يبدو أن يكون تسليماً بهذا القدم. لأن لعائل أن يقول: لما كان الله قديماً فمن الواجب أن يكون الفيض قديماً وإلا لاقرن القديم بمحدث، مما لا يتفق مع الأصول والقواعد التي يسلم بها الفارابي ومن تبعه من فلاسفة المسلمين. وهكذا نفهم الحافظ الذي دفع النزالي إلى اتهامهم بأنهم يقولون بقدم المادة التي خلق منها العالم.

وقد بدأ ابن رشد بنقد نظرية الفيض لدى الفلاسفة السابقين، ولم يجد حرجاً في التسليم بصدق اعتراضات النزالي عليهم. فهو يرى معه أنه ليس ثمة ما يبرر قول الفلاسفة من أن التفرقة بين الماهية والوجود في العقول، التي يفيض بعضها من بعض، تؤدي إلى فيضان أجسام الأفلاك السماوية. ثم يزيد على ذلك شيئاً جديداً وهو أن يبين لنا الأساس الحاطيء الذي قامت عليه نظرية الفيض. فقد زعم الفارابي أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، كما ذكرنا منذ قليل، مع أن رأي الفلاسفة القدماء، أي رأي أرسطو وأتباعه، يختلف عن ذلك تماماً. فهم يقولون إن الواحد تصدر عنه أشياء كثيرة وهي قضية صادقة؛ إذ ليس ما يحول مطلقاً دون أن تصدر المخلوقات كلها دفعة واحدة بإرادة الله، ومن غير أن تكون هناك حاجة إلى توسط عقول خالقة

(١) كما بينا في محاضرتنا لطلبة دار العلوم، وهي محاضرات لم ننشرها بعد.

إلى جانبه سبحانه وتعالى كما زعم الفارابي ومن تبعه . والحق أن فلاسفة الإسلام خالفوا ما جاء به الدين وما قرره أرسطو . فالخلاف في مسألة قدم العالم لا يجوز أن يكون بين المتكلمين والفلاسفة ؛ بل يجب أن يكون قائماً بين المتكلمين وأتباع فلسفة أرسطو دون غيرهم . وهنا يحاول فيلسوف قرطبة أن يقرب بين هذين الرأيين للضاريين : رأى المتكلمين الذين يقولون بحدوث العالم من العدم ، ورأى أرسطو القدي يقول بقدم العالم .

لكن ينبغي أن نعلم أن التقريب بين هذين الرأيين لا يتم حقيقة إلا على حساب فلسفة أرسطو، تلك الفلسفة التي يحورها ابن رشد تحويراً عميقاً حتى تتفق مع ما جاء به الدين . ذلك أنه يرى أن الخلاف بين المتكلمين وأرسطو ليس إلا خلافاً لفظياً فقط ؛ « فقد اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الوجودات » . أولها للوجودات التي لا يمكن أن توجد إلا إذا اجتمعت عدة شروط ، وهي أن توجد مادة وسبب فعال وزمن سابق . وهذا هو شأن الكائنات الحسية الجزئية ؛ فإننا نعلم أنها تنشأ من مواد سابقة وأن لها سبباً وأنها تسبق بالزمن : « فهذا الصنف من الوجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعرين على تسميتها محدثة » وهناك وجود مناقض تماماً للنوع السابق وهو الوجود الذي لا يحتاج إلى مادة سابقة أو علة فاعلة ولا يسبقه زمن ، وهو الله سبحانه . « وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً وهذا للوجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى الذي هو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره . » أما النوع الثالث من الوجودات فهو الذي يعد وسطاً بين الوجودين السابقين فهو يوجد بسبب علة أرادت وجوده ، لكنه يوجد من غير مادة وفي غير زمن ؛ إذ قبل وجوده لم يكن هناك معنى للزمن ، وهذا الوجود هو العالم الذي خلقه الله من العدم والذي كانت حركته أساساً لتقدير الزمن . وعلى هذا ففيه شبه بكل من الوجود الحادث والوجود القديم ، فلما غلب المتكلمون أحد الجانبين قالوا إنه محدث ، ولما غلب الفلاسفة الجانب الآخر قالوا إنه قديم . لكنه في الحقيقة ليس محدثاً ولا قديماً

بالمعنى الحقيقي « فإن المحدث الحقيقي فاسد والقديم الحقيقي ليس له علة . »

وإذن فما كان ينبغي للمسلمين أن يتخذوا هذا الخلاف اللفظي سبباً في تكفير بعضهم بعضاً . كذلك كان يجدر بالمتكلمين ألا يتأولوا الآيات الظاهرة في القرآن، فيقولوا إن العالم خلق من العدم . فإن تلك الآيات توحى بوجود مادة وزمن سابقين لوجود العالم . من ذلك قوله تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء » فإن هذه الآية تدل حسباً يقتضيه ظاهرها على أن العرش والماء كانا سابقين لوجود العالم ، كما أن قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » يوحى بأن العالم خلق من مادة سابقة .

وليس معنى ذلك أن ابن رشد يخطئ المتكلمون لسكى ينحاز إلى جانب الفارابى وابن سينا ؛ وإنما يريد القول بأن التصريح بهذه الآراء قد يفضى إلى الشك لدى الجمهور على نحو لا موجب له ؛ إذ الأولى أن يكفى هؤلاء بظاهر الآيات . ولكن هؤلاء الذين يستطيعون تتبع البراهين العلمية يجب عليهم أن يعلموا أن العالم خلق من العدم وفي غير زمان . وإنما جاءت الآيات بما يوحى بعكس ذلك لأن العامة من الناس لا يستطيعون التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة في هذه النقطة . فهم يرون أنه لا يمكن أن توجد الأشياء إلا من مادة سابقة . فإذا قلنا لهم إن الله يخلقها من العدم وفي غير زمان عسر عليهم تصور ذلك ؛ إذ لا يجدون شيئاً يشبه فيما ألعته حواسهم « فيجب ألا يتأول شيء من هذا للجمهور . . فأما أن يقال لهم إن عقيدة الشرع في العالم أنه محدث وأنه خلق من غير شيء وفي غير زمان فذلك شيء لا يمكن أن يتصوره العلماء فضلاً عن الجمهور ، فينبغى — كما قلنا — ألا يعدل في الشرع عن التصور الذى وصفه للجمهور ، ولا يصرح لهم بغير ذلك . »

وقد أساء المتكلمون أساءة كبرى عندما صرحوا بذلك للجمهور، وعندما تساءلوا فقالوا: هل يريد الله خلق العالم بإرادة حادثة أم بإرادة قديمة . فكان ذلك سبباً في

الشبهات والشكوك التي عرضت للعامة في أمر دينهم على ما فصلنا من قبل . (١) ولذا لا يجد ابن رشد حرجاً في وصفهم بالبدعة حينما يقول إن المتكلمين ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين الصادقين ؛ وإنما هم من الذين في قلوبهم زيغ وفي قلوبهم مرض . فإنهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم . وسبب ذلك العصية والمهبة . وقد يكون الاعتیاد لأمثال هذه الأقاويل سبباً للانخلاع عن للعقولات ، كما نرى يعرض للذين مهروا بطريق الأشعرية وارتاضوا بها منذ الصبا . فهؤلاء لا شك محجوبون بحجاب العادة والنشأ . » (٢)

ويجدر بنا أن نعلم أن العامة إذا كانت لا ترقى إلى فهم مشكلة الخلق من العدم فإن العلماء يقفون في فهمها عند حد معلوم ، بمعنى أنهم إذا كانوا يرون إمكانها بعقولهم فإنهم يعجزون عن معرفة كنهها على وجه الحقيقة . فعلمية الخلق إذن سر من الأسرار الذي يقف العقل الإنساني أمامه عاجزاً . ولكنه ليس سرّاً بالمعنى المألوف لدى أصحاب الديانات التي تعتمد عقائدها على الأسرار كالديانة المسيحية . وقد فطن ليون جوتييه إلى هذا المعنى ، فاعترف بأنه لا سبيل إلى المقارنة بين الإسلام والمسيحية من هذه الناحية ؛ وذلك لأنه يقول في كتابه الأخير عن ابن رشد عند كلامه عن الخلق من العدم : « ولنلاحظ بصفة عابرة ، أنه ينبغي لنا ألا نخطئ الفهم فليس الأمر هنا بصد سر بمعنى الكلمة كما هي الحال في سر التجسد . . . لدى المسيحيين ؛ فإن العقل لا يعجز عن فهم كيفية هذا السرّ عجزاً مطلقاً فحسب ؛ بل لا يستطيع تصوره ، فيضطر العقل الإنساني إلى التسليم به بناء على عقيدة عمياء . . » (٣) ولكننا سنرى بعد قليل أن جوتييه يرجع عن إنصاف ابن رشد لكي يشوّه آراءه . والحق أننا أصبحنا نألف منه هذا المسلك حيال فيلسوفنا ؛ لأنه لا يكاد ينصفه إلا لكي يبادر إلى التحامل .

(١) أنظر صفحة ١٠٣ وما بعدها .

(٢) مناهج الأدلة ص ٩٢ .

(٣) كتاب جوتييه عن ابن رشد ص ١٦٥ . .

عليه بأن ينسب إليه آراء هو أبعد الناس عن التفكير فيها .

ومهما يكن من أمر فإن نظرية ابن رشد الحقيقية في مسألة الخلق قد انتقلت إلى أوروبا المسيحية في القرن الثالث عشر، وظهرت بوضوح سافر في فلسفة توماس الأكويني الذي لما اطلع على آراء فيلسوف قرطبة عدل عن نظرية الفيض التي كان يدين بها أساتذته من المسيحيين مثل ألبرت الأكبر ، وارتضى نظرية الخلق من العدم وفي غير زمن؛ فقال إنه من المستحيل أن نبرهن على حدوث العالم، أي على أنه قد وجد بعد زمن ، وإنما الأولى أن نقول بأنه خلق ضربة واحدة وأن الزمن يحدث مع حدوث العالم لأنه مقياس لحركته . وهذا هو رأي ابن رشد ورأي الكندي من قبل . ومع ذلك فإننا نجد أكبر المتخصصين في دراسة فلسفة «الأكويني» ، وهو « جلسون » ، يخلط خلطاً عجيباً عند ما يقارن بين فيلسوفه وفيلسوفنا فيقول جازماً : « إن توماس الأكويني يقرر إمكان البرهنة على خلق العالم من العدم ، وإنه يناقض في ذلك ابن رشد وتلاميذه مناقضة تامة ، ولكنه يسلم مع موسى بن ميمون بإمكان خلق العالم منذ الأبد [ أي في غير زمن ] . » وعلى رغم ذلك فإننا نلتمس العذر لهذا المؤرخ الذي تخصص في دراسة توماس الأكويني فنقول: إنه لوعنى بالاطلاع على قليل من نصوص ابن رشد في كتاب تهافت التهافت أو في مناهج الأدلة أو في فصل المقال لما اشتط في تأكيداته على هذا النحو الذي يدعو إلى الابتسام والعجب ، ولعلم مثلنا أن توماس الأكويني لا يستطيع مناقضة ابن رشد مناقضة أكيدة لهذا السبب اليسير، وهو أنه يأخذ عنه وجهة نظره بمخذاً فيراها وتفصيلها . وإذا كان هناك مجال يستطيع أن يجول فيه هذا للمفكر ويصول فلن يكون له سبيل إلى ذلك إلا مع أبناء ملته من الذين زعموا أنهم تلاميذ ابن رشد ، أي مع هؤلاء الذين شوخوا مذهب أستاذهم المزعوم تشويهاً كاملاً . وإذا سلم الأكويني لأحد بإمكان خلق العالم في غير زمن فمن الأكيد أنه لن يسلم بذلك لابن ميمون وإنما لابن رشد ؛ لأن ابن ميمون ربيب الفلسفة الإسلامية وتلميذ غير مباشر لابن رشد ؛ فقد اطلع على



كتبه . ويكفينا بعد ذلك ، في الرد على جلسون ، أن نقول إنه لم يكن مبتكراً لهذا الرأي الخاطيء ، وإنما يدين به لقوم أخطأوا من قبل كيونك ورنان . فرينان يؤكد في كتابه عن ابن رشد أن هذا الفيلسوف يعضد النظرية القائمة بقدوم المادة الأولى التي نشأ منها العالم ، أي أنه يتبع أرسطو في هذه المسألة . ومن الأكيد أن رينان لم يطلع على النصوص التي أشرنا إليها من قبل . ومن ثم فليس خطؤه قائماً على سوء الفهم بل يرجع إلى قلة الاطلاع . أما مونك فقد أخطأ في فهم آراء أبي الوليد فذهب إليه القول بقدوم العالم ، لكنه اعتمد في تعضيد وجهة نظره على نص يقول إنه أخذه من تفسير كتاب ما وراء الطبيعة . ونقول من جانبنا إنه من الممكن أن نرى هذا الرأي في كثير من شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو وليس في ذلك ما يعيبه ؛ بل هو أمر يذكر له بالفضل لأنه دليل على أمانته في تفسير أرسطو . أما نصوص كتبه الخاصة فهذا هو ما أغفله مونك معتقداً أنه لا يصح الاستشهاد بها مع أن ابن رشد يعرض آراءه في هذا الكتاب عرضاً حراً غير مقيد فيه بآراء أرسطو . ويمكن القول بأن فيلسوف قرطبة يعمل لحسابه الخاص إذا أجزئ لنا هذا التعبير . وإذن فليس عليه حرج في أن ينتكر لفلسفة أرسطو ، وليس هناك تناقض ألبتة بين أن يعرض نظرية قدم العالم مدعومة بحججها في أحد شروحه لأرسطو ، وأن يبرهن على الخلق من العدم في كتبه الخاصة .

وليس لنا أن نعجب أكثر مما ينبغي عندما نرى أن مونك قد حرص على نسيان نصوص نهافت التهافت ؛ وذلك لأنها تهدم رأيه ، ولإن ابن رشد لا يتكلم في هذه النصوص عن إله أرسطو ، أي عن المحرك الأول الذي لا يتحرك ؛ وإنما يتحدث عن الله سبحانه كما وصف نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن ؛ فهو إله بخلق العالم وكل ما يحتوي عليه من كائنات ، وهو يسيطر على هذا العالم الذي خلقه ويمسكه ويحفظ عليه وجوده . أي أنه خلقه من العدم وفي غير زمن ، ولا تفتر عنه عنايته لحظة واحدة ؛ إذ لو انفك عن العناية به لانعدم ضربة واحدة وفي غير زمن أيضاً

على حد ما يقول الكندي فيلسوف العرب .  
أما جوتيه - وهو آخر من سيسى فهم أبي الوليد فيما نرجو - فقد ناقض نفسه  
لأنه بعد أن اعترف بأن هذا الفيلسوف يقول بخلق العالم من العدم عاد يدعى أنه  
يقول بقدم العالم والمادة . وهنا لم يعتمد جوتيه على نصوص من كتب ابن رشد .  
وكأنه أحس بتعسفه وتعامله فأراد أن يدعم رأيه بافتراء آخر فقال إن هذا  
الفيلسوف كان من أنصار نظرية الفيض ، لكن دون أن يعتمد على نصوص صريحة ،  
مما يحملنا على اعتقاد أنه يريد أن يحتفظ لتوماس الأكويني بشرف العثور على نظرية  
الخلق من العدم .

### ٣ - بعث الرسل

لقد زعم رينان في كتابه عن ابن رشد أن هذا الفيلسوف كان أحد هؤلاء  
الذين لا يحفلون بالديانات ويذهبون إلى القول بأنها إنما اخترعت من أجل العامة .  
وقد اعتمد في رأيه هذا على الأسطورة التي اخترعها ملحدو أوروبا في العصور الوسطى  
ونسبوا إلى الشارح الأكبر . وجاء بعد رينان جماعة من مؤرخي الفلسفة فلم  
يكلفوا أنفسهم مشقة البحث واكتفوا بما قاله رينان ، وهكذا أكدوا رأياً قديماً  
خاطئاً . غير أننا لسنا من هؤلاء الذين يحترمون القديم لمجرد قدمه ، أو من هؤلاء  
الذين يخالفون الآخرين للذة المخالفة ، وإنما نستوثق من صدق حكمنا قبل أن نصدره  
على الآخرين ، وذلك بأن نستعرض جميع الاحتمالات الممكنة وأن نناقشها لكي نتبين  
أيها أكثر رجحاناً وأقرب إلى الحق . وهذا مانظن أننا فعلناه حتى الآن في دراسة  
آراء ابن رشد .

فهل كان حقاً أن هذا الفيلسوف ينكر الرسائل كما نسب إليه أعداؤه المعاصرون  
له أو دارسوه في العصرين الوسيط والحديث ؟ إننا نجده يعرض لهذه المسألة في أحد  
كتبه ؛ فيبدأ فيها بتقد آراء الأشاعرة وحججهم في البرهنة على هذه العقيدة . لقد

استخدم هؤلاء للتكلمون طريقة القياس فقالوا : لما كان الله متكلماً ومريداً ولما كان من الجائز للمتكلم المرید أن يرسل رسولا إلى عباده ، كما يشهد بذلك ما نراه من إرسال الحكام رسلا إلى رعاياهم ، فمن الجائز إذن أن يبعث الله رسولا . غير أن هذا القياس لما كان يفضى إلى نتيجة احتمالية فقط لم يكن رهاناً كافياً . وهذا ما شعر به الأشاعرة أنفسهم فأرادوا أن يدعموه بقولهم إن الشخص الذى يدعى الرسالة لا بد من أن تظهر على يديه علامة تدل حقيقة على أنه مرسل من قبل الله تعالى إلى عباده ، وهذه العلامة هي المعجزة .

غير أن المعجزة ليست في نظر ابن رشد إلا علامة خارجية تؤكد وجود الرسالة فقط ؛ إذ هناك سبب آخر يبررها وهو التشريع الذى أراده الله لعباده فأرسل أنبياءه لتبليغه إليهم . فالرسالات إذن شرائع قبل أن تكون سبيلا إلى عرض الأمور الحارقة للعامة على الناس . ومع ذلك فليست طريقة الأشاعرة في البرهنة على الرسالات عن طريق المعجزات رديئة أو تفضى إلى سوء ؛ بل هي مقنعة للجمهور ولافتة به ، على الرغم من الضعف الذى تنطوى عليه كما بينا .

أما فلاسفة الإسلام من أمثال الفارابى وابن سينا فقد ربطوا آراءهم في النبوة بآرائهم في نظرية المعرفة الأشراقية ، فجعلوا نظرية الاتصال بالعقل الفعال أساساً للبرهنة على إمكان النبوة . وتتلخص آراؤهم في هذه المسألة في أن المعرفة الحقة نوع من التصوف والمشاهدة ، لأنها تتيج للنفس الإنسانية أن ترى عظمة الله وجلاله وتدرك أموراً لا تتفق عليها بحواسها وخيالها . ولما كانت حظوظ الناس تختلف في التدرج بمسارح التصوف لم يكن اتصالهم بالعقل الفعال أو روح القدس - كما يزعم الفارابى وابن سينا - أمراً مشاعاً بينهم وعلى غلط واحد ، وذلك لاختلاف استعداداتهم وقوامهم . فهؤلاء الذين وهبوا قوة الخيال هم أكثر الناس حظاً في المشاهدة والقدرة على الصعود إلى عالم الأمر والانخراط في سلكه . وهم يختلفون إلى جانب ذلك فيما بينهم ؛ فقد يتلقى بعضهم الفيض ويدرك أمور الغيب في أثناء اليقظة ، وقد تبدو له هذه الحقائق

على هيئة صور خيالية ، وهؤلاء هم الأنبياء . وتأتى من بعدهم طبقات متفاوتة أدناها تلك التى يتشكل الفيض عندها بصورة الرؤية الصادقة فى أثناء النوم . وفى ذلك المعنى يقول أبو نصر الفارابى : « ولا يتمتع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته المتخيلة الكمال فيقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها عن المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية . فهذا هو أكل المراتب التى تنتهى إليها القوة المتخيلة . . . ودون هذا من يرى جميع هذه فى نومه فقط . وهؤلاء تكون أقاويلهم التى يعبرون بها أقاويل ورموزاً وألغازاً وتشبيهات ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كبيراً . » (١) وإذن يتبين لنا أن فلاسفة الإسلام الذين يقولون بنظرية الفيض يفسرون النبوة تفسيراً تصوفياً ، ويحملون جبريل عليه السلام عقلاً فعالاً . على أننا نعلم كل العلم أن نظرية الفيض هذه غريبة عن روح التفكير الإسلامى .

ولما كان فيلسوف قرطبة لا يسلّم بنظرية الفيض بل يقول بالخلق المباشر المستمر فمن الطبيعى أن يكون تفسيره للنبوة مخالفاً لما درج عليه الفلاسفة المسلمون من قبل . فهو لا يتحدث هنا عن العقل الفعال ولا عن مراتب الناس فى الاستعداد لقبول الفيض على هيئة صور خيالية أو رموز أو تشبيهات ، وإنما يتهج نهجاً آخر فى البرهنة على ضرورة مجىء الرسل . ويعتمد البرهان العقلى الذى يرتضيه على حقيقتين : إحداهما أن الوحي ظاهرة تاريخية لا سبيل إلى إنكارها بحال ما . فقد توارت أنباء الرسل على نفس النمط الذى جاءتنا به أخبار الفلاسفة والحكماء وغيرهم ممن تركوا وراءهم أتراً واضحاً فى تاريخ الجنس الإنسانى ، أى من هؤلاء الذين يصنعون التاريخ عادة ويوجهون الإنسانية وجهات خاصة مستمرة . وأما الحقيقة الثانية فهى أن عناية الله بخلقه اقتضت أن يرسل رسلاً يحملون إلى الناس الدين الذى يشرع لهم أمور

ديانهم ويهديهم إلى سبيل السعادة في آخرتهم . فلا سبيل إلى نفي هذه الحقيقة وهي أن هناك طائفة محتاجة من أكرم البشر اصطفاها الله وأطلعهم على الغيب وجعلهم مشرعين بما يوحيه إليهم . وبديهي أن كل شريعة من هذه الشرائع الكبرى تقتضى معرفة خارقة للعادة تفوق أى نوع من أنواع المعرفة حتى للمعرفة الفلسفية ؛ إذ لا بد للرسول من معرفة السعادة والشقاء الإنسانيين ، والوقوف على حقيقة النفس وجوهرها وأصلها وغايتها التى تهدف إليها والوسائل التى ينبغى اتباعها للوصول إلى هذا الهدف ، أى لا بد من معرفة ما إذا كانت لها سعادة أو شقاء أخرويين أم لا ، وإذا كان الأمر كذلك فينبغى معرفة السبل إلى إدراك السعادة وتجنب الشقاء . وأخيرا فإن كل شريعة تتضمن تقرير قواعد للسلوك فى هذه الحياة الدنيا وتصف أحوال البعث والحساب ، وتقرر وجود الخالق وتبين صفاته وجلاله وعظمته . وكل هذه معارف لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوحي ؛ إذ ما زالت المعرفة الإنسانية تتعثر فى الطريق إلى معرفة الحق . والعلماء الذين يعرفون نسبة المعلومات التى يهتدون إليه أكثر الناس إحساسا بضرورة معرفة من نوع آخر تأتى عن طريق الرسل . كذلك يعلم المشرعون أن مهمة وضع القوانين ليست من اليسر بالقدر الذى قد يتصوره الجاهلون ، وأن أسمى القوانين الوضعية تحتوى على عيوب لا يتنبأ بها مشرعوها . ومن الأكيد أن معرفة الإنسان تقصر عن بيان هذه الأمور الغيبية وعن تقرير هذه الشرائع السماوية « وقد يعرف ذلك على اليقين من زاول العلوم ، وبخاصة وضع الشرائع والقوانين والإعلام بأحوال العباد . »

وحينئذ يتبين لنا أن ابن رشد لا يندرج فى زمرة هؤلاء الذين زعموا أن الفلسفة أسمى مرتبة من الوحي . فإن الفلسفة الحققة هى المعرفة البرهانية التى لا يمكن إلا أن تكون على وفاق مع ما جاء به الوحي ، والفلسفة الجديرة بهذا الاسم لا يمكن أن تكون على خلاف مع الحقائق الموحى بها ؛ لأن كلا من الوحي والفلسفة الحققة يعبران عن حقيقة بعينها . والأنبياء يدركون هذه الحقيقة بفضل من الله ودون

مقدمات ؛ بينما قد يصل الفلاسفة إلى معرفة شيء منها بعد دراسات طويلة وأجيال متتابعة وأخطاء متكررة . وبهذا المعنى يمكن النظر إلى المعرفة الفلسفية كما لو كانت إلهاماً يخص الله به العلماء عندما يرشدهم إلى الأدلة البرهانية ، وبهذا المعنى أيضاً يقال إن العلماء ورثة الأنبياء . ولما كانت معرفتنا الإنسانية ناقصة وجب أن يوجد الوحي الذى يرشدنا إلى أمور ديننا وآخرتنا . فالدين إذن ضرورى للعلماء والجمهور سواء بسواء . فهو ضرورى للعلماء لأن هناك نوعاً من المعرفة الحارقة للعادة ؛ إذ كل نبي فيلسوف وليس كل فيلسوف نبياً . وهو ضرورى للعامة لأنه يرشدهم إلى طرق السعادة التى يعجز الفلاسفة عن الاتفاق فيما بينهم لتحديدتها تحديداً نهائياً .

وهكذا يخلص أبو الوليد بن رشد إلى القول بأن المعجزة الحقيقية التى تعد علامة أكيدة على الرسالة هى وضع الشرائع المثالية . أما المعجزات الأخرى كقلب الصحاحية أو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فهى قرائن خارجية لا تكفى وحدها . والقرآن معجز باعتبارهِ وحياً ؛ لأنه كتاب دينا ودين . ودلالته فى الإعجاز من هذه الناحية تفوق دلالة أى معجزة أخرى . وقد مثل فيلسوفنا لذلك بمثال طريف ؛ فقال لوجاء شخصان وادعى كل منهما الطب فقال الأول : إني طبيب لأتى أبرئ المرضى وقال الثانى : إني طبيب لأننى أسير على الماء فإن الأول منهما هو الأحق بأن يسمى طبيباً ؛ لأن شفاء المرض فعل من أفعال الطبيب . أما المشى على الماء فإنه ليس صفة ذاتية فى الطبيب ، على الرغم من أنه يعد فعلاً خارقاً للعادة ، وليس فى طاقة كل البشر . كذلك الأمر فى معجزات الرسل ، بمعنى أن الكتب السماوية معجزات فى ذاتها ، وأما الأفعال الحارقة للمألوف فهى براهين ثانوية وليست دلائلها قطعية ، وإن كانت تستخدم فى اقناع الجمهور .

ومما يدل على أن القرآن معجزة المعجزات أنه أنزل على نبي أمى فى أمة بدوية لم تعرف فى التاريخ بمزاولة العلوم ولا بالبحث النظرى كما هى الحال مثلالدى أمة كالإغريق أو غيرها من الأمم القديمة . هذا إلى أنه لا سبيل إلى المقارنة

بين القرآن والكتب الساهوية الأخرى من جهة التشريع . وفي ذلك يقول ابن رشد الذى يرمونه بهتا بأنه عدو للديانات الثلاث : « ولو ذهبنا لنبيين فضل شريعة على شريعة وفضل الشريعة المشروعة لنا ، معشر المسلمين ، على سائر الشرائع المشروعة لليهود والنصارى وفضل التعليم الموضوع لنا فى معرفة الله ، ومعرفة المعاد ، ومعرفة ما بينهما ، لاستدعى ذلك مجلدات كثيرة مع اعترافنا بالقصور عن استيفاء ذلك . » ولعل الله يعيىض رجلا من المسلمين بمحقق أمال هذا الفيلسوف المفترى عليه .

### ٣ — القضاء والقدر

لقد اختلف المتكلمون اختلافاً ليس باليسير فى هذه المسألة : وهى هل الإنسان مجبر على أفعاله أم هو حر فى اختيارها وتنفيذها ؟ ويرجع سبب هذا الخلاف إلى أن كلام من الشرع والعقل يرشدنا إلى حجج متعارضة يؤكد بعضها الجبر ويقرر بعضها الاختيار . أما فى الشرع فإننا نجد آيات متعارضة . فمثلا يبدو الجبر أمراً مقررأ فى مثل هذه الآيات وهى قوله : « إنا كل شئ خلقناه بقدر » (١) ، وقوله تعالى : « وكل شئ عنده بمقدار » (٢) ، وقوله : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . » (٣) كذلك نجد آيات عديدة أخرى تعضد رأياً مضاداً ، أى تؤكد حرية الإنسان فى كسبه لأفعاله . فمن ذلك قوله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » (٤) ، وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٥) ، وقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى . » وأحياناً نجد أن الآية

(٢) سورة الرعد آية ٨

(٤) سورة الشورى آية ٣٠

(١) سورة القمر آية ٤٩

(٣) سورة الحديد آية ٢٢

(٥) سورة البقرة آية ٢٨٦

الواحدة تجمع بين هذين الرأيين المتعارضين. من ذلك قوله تعالى : « أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير » (١) ، فإن قوله « أصابكم مصيبة » يوصي إلى وجود قدر سابق ، أما قوله : « قل هو من عند أنفسكم » فصريح في إرجاع السبب إليهم . ومن هذا القيل أيضا قوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (٢) ، وقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » (٣) . ولا نعدم أن نجد هذا التعارض في الأحاديث النبوية . فما يدل على الكسب قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » . وما يدل على أن الجبر وأن الإيمان والكفر مقدران للانسان في الأزل قوله عليه السلام : « خلقت هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون ، وخلقت هؤلاء للنار وبأعمال أهل النار يعملون » ولن نذهب إلى تقصى أمثال هذه الآثار والنصوص لتوضيح تعارض الأدلة الشرعية ، فإن أمر هذا التعارض ظاهر لا يحتاج إلى كل هذا الجهد .

أما كيف تعارض الأدلة العقلية في مسألة الجبر والاختيار فذلك لأن للانسان أن يقول : لو كان المرء هو الذى يخلق أفعاله لكان معنى هذا أن مشيئة الله سبحانه تقف عند حد محدود ، أى أنها لا تنصب على نوع معين من الأفعال . وهذا مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أنه لا خالق إلا الله لكن إذا قلنا من جانب آخر بأن الإنسان لا يخلق أفعاله بل تقدر له ويجبر على القيام بها كان لنا أن نتساءل فنقول : وإذن كيف يعقل أن يكون هذا الإنسان أهلا للتكليف مع أننا نعلم أن الاستطاعة أو القدرة شرط لتكليف العباد ؟ وكيف يعقل أيضاً أن يكون مجبراً على فعل ثم يعاقب أو يثاب عليه ؟

(٢) سورة النساء آية ٧٩

(١) سورة آل عمران آية ١٦٥

(٣) سورة الرعد آية ١١



وقد كان هذا التعارض في الأدلة الشرعية والعقلية على حد سواء ، سبباً في انقسام المسلمين أولاً إلى فريقين هم أهل الجبر والمعتزلة . أما الأولون فذهبوا إلى أن الإنسان لا حرية له على وجه الإطلاق ، وأن كل فعل من أفعاله ليست من كسبه ؛ بل هو مفروض عليه فرضاً . أما المعتزلة فقالوا بجزية الإنسان واستقلاله في القيام بأفعاله مما يجعله مسئولاً عنها وأهلاً لأن يماقب أو يثاب عليها . فهم يريدون إذن أن يرفعوا التناقض الذي يقع فيه أهل الجبر ، وهو أن يكون المرء مجبراً وأهلاً للعقاب والثواب في الوقت نفسه . وبديهي أن رأى الجبرية رأى ضعف وتخاذل وتواكل ، وفيه إقرار بتكليف الإنسان بما لا يطاق . ولو كان الأمر كذلك لفقدت القواعد الأخلاقية قيمتها ولوزع الثواب والعقاب بطريقة قائمة على التعسف . ولا يخلو رأى المعتزلة من الشطط والغلو لأنه يفضي لا محالة إلى إنكار تدخل الإرادة الإلهية .

لذلك حاول الأشعرية التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين فقالوا إن الله يخلق الفعل الإنساني ونتيجته في آن واحد ، ثم جهدوا أنفسهم ، بعد ذلك ، لكي يفرقوا تفرقة وهمية بين العمل غير الإرادي كعرشة اليد والعمل الإرادي كحركتها المقصودة . وإنما كانت تفرقتهم هذه وهمية لأنهم يقولون بأن الحركتين مخلوقتين لله سبحانه . وإذا كان الأمر كما يرون فلا فرق بينهما إلا باعتبار اللفظ . ونحن نعلم أن الاختلاف في اللفظ لا قيمة له ؛ لأنه شيء آخر غير الاختلاف في الجوهر والحقيقة ؛ أو نقول بعبارة أخرى إنهم إذا سلموا بأن الله يخلق الأفعال ، إرادية كانت أم غير إرادية ، فإنهم يعترفون صراحة أو ضمناً ، بأن الإنسان مجرد من الحرية وأنه لا يستقل بأفعاله ، ومن ثم يمكن القول بأنهم يتبعون آثار أهل الجبر ؛ بل لقد ذهب القدماء منها فعلاً إلى جواز التكليف بما لا يطاق ، حتى لا يضطروا إلى التسليم بحجة المعتزلة القائلة بأن هذا التكليف قبيح في العقل . أما المتأخرون منهم فقد خالفوا هذا الرأي لأنه لو كان حقاً أن الإنسان لا يكتب أفعاله لما كان هناك معنى لأمره بالسعى وراء الخير والفرار من الشر . وقد كان ابن المعالي من هؤلاء الذين قالوا بأنه لا يجوز التكليف بما لا يطاق .

ككيف السبيل إذن إلى التوفيق بين هذين الرأيين المتناقضين ، وبخاصة إذا علمنا أن النصوص الشرعية تبدو متناقضة أيضاً ؟ لقد وجد أبو الوليد بن رشد أن التناقض الظاهري الذي تنطوى عليه هذه النصوص الشرعية لم يوجد عبثاً ؛ بل لحكمة وعناية إلهية ، لأنه يوحى إلى العلماء بالحل العقلي لمشكلة القضاء والقدر . وطبيعي أنه يعد نفسه أحد هؤلاء العلماء . فما هو الحل الذي ارتضاه هذا الفيلسوف ؟

إن الله وهبنا قوة نستطيع بها فعل أحد المتضادين وهي قوة غير محدّدة ، وهي تلك التي نطلق عليها اسم الإرادة . وهذه الإرادة مخلوقة لله سبحانه في حين أن النتائج التي تؤدي إليها هذه القوة تعتبر نتائج إنسانية بمعنى الكلمة . ومع هذا فليس لهذه القوة غير المحدّدة حريتها الكاملة ؛ ذلك لأنها تتأثر بالأسباب الخارجية التي وضعها الله في متناول أيدينا . فهذه الأسباب تساعد على تمام أفعالنا أو تحول دون نفاذها . وهي التي تحدّد اختيارنا لأحد الحلول المختلفة ؛ بل يمكن القول بأن تلك الأسباب الخارجية تدفعنا في كثير من الحالات إلى عمل من الأعمال على نحو اضطراري . وهذا هو ما يحدث في أفعالنا المنعكسة ، أي في تلك الأفعال التي تتم دون أن تتدخل الإرادة كالسعال أو التثاؤب أو الهرب أمام خطر محقق أو ضيق الحديقة عند اشتداد الضوء . كذلك تتوقف الأعمال الإرادية على الأسباب الخارجية . لكننا متى اخترنا فعلاً معيناً ونفذناه فإننا نسترد حريتنا كاملة ونصبح مسئولين عن أفعالنا . ومعنى هذا أن أفعال الإنسان ليست اختيارية تماماً ولا إجبارية تماماً ، وإنما هي تجمع ، كما نرى ، بين الاختيار والجبر في آن واحد ؛ لأنها تتوقف على عاملين هما إرادتنا والأسباب أو العوامل الخارجية . وهذه العوامل تتبع نظاماً عاماً مطرداً لا يتخلف . وهذا النظام العام هو ما نسميه في عصرنا الراهن بالاحتمية في الطبيعة .

وهكذا يعترف ابن رشد بهذه الحقيقة التي يظنها بعضهم كشفاً علمياً حديثاً ، فهو يقول : « ولما كانت الأسباب التي من خارج تجري على نظام محدود وترتيب

منضود لا تخل في ذلك بحسب ما قدّرها بارئها عليه ، وكانت إرادتنا وأفعالنا لا تتم ولا توجد بالجملة إلا بموافقة الأسباب التي من خارج فواجب أن تكون أفعالنا تجري على نظام محدود ، أعنى أنها توجد في أوقات محدودة ومقدار محدود . وإنما كان ذلك واجبا لأن أفعالنا تكون مسببة عن تلك الأسباب التي من خارج . غير أن هذه الحتمية ليست حتمية مطلقة صارمة في نظر فيلسوفنا ؛ بل هي تفسح في صدرها جانبا للإرادة الإنسانية ، وذلك لأن هناك نوعا من التضامن بين الأسباب الخارجية والأسباب الداخلية .

وما يدعو إلى العجب حقيقة أن « إرنست رينان » يخطئ خطأ واضحا في فهم فكرة ابن رشد في مسألة القضاء والقدر ، وذلك عندما ينسب إليه الإيمان بنوع من الحتمية المطلقة في الطبيعة . فهو يعتقد إذن أن فيلسوف قرطبة ينبغي أن يحتفظ له بمكان ملحوظ في مقبلة الفلاسفة الذين ينكرون العناية الإلهية ، ويرفضون إرجاع الأسباب في الكون إلى الله تعالى . غير أننا نفهم السبب الذي تردى من أجله رينان في هذا الخطأ . وذلك لأنه ، كعادته - لا يفعل شيئا سوى ما ارتضاه في كثير من المواطن الأخرى ، وهو أن يتبع تلك الأسطورة التي كانت ترى في ابن رشد أفضل نموذج للفيلسوف الملحد المبتدع . وقد غاب عن رينان أن هذا الفيلسوف يصرح في أكثر من موضع بأن الله هو الذي يخلق الأسباب في الكون وهو وحده الذي يعلمها . لذا نراه يقول : « فسبحان من أحاط اختراعا وعلمنا بجميع أسباب جميع الموجودات . وهذه هي مفاتح الغيب المعنية في قوله : وعندده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . »

فالحتمية في الكون عند ابن رشد هي ما يطلق عليه المسلمون اسم القضاء والقدر أي علم الله بالأشياء واختراعها أو إيجادها وفقاً لهذا العلم . وهكذا يتبين لنا بوضوح أنه لا وجود للتناقض أو التضاد بين الاختيار والجبر ، أي بين الإرادة الإنسانية والأسباب الخارجية . ذلك أن أفعالنا لا تتم ، حقيقة ، إلا باجتماع هذين

الأمرين معا . وهذا يفسر لنا كيف تجرى أفعالنا على سنن مرسومة ، وكيف تقف عند حدود لا يمكن تجاوزها .

وهذا الرأي الذي يرتضيه أبو الوليد هو ما نراه لدى كثير من علماء الأخلاق في العصر الحاضر ؛ فهم يثبتون للإنسان إرادة مقيدة بالأمر الخارجي . حقاً قد يحتاج أنصار الجبر فيقولون إنها ليست بإرادة مطلقة ، لكن يمكن الرد عليهم بأنها إرادة على كل حال ؛ لأنها تستطيع الاختيار بين أحد فعلين متضادين ، ومتى فعلت أحدهما تحققت لها حريتها الكاملة في لحظة معينة . وهذا هو السبب في أن الإنسان يعد مسئولاً عن أفعاله ؛ إذ له الاختيار في كل لحظة بين أمور متضاربة قد يقل عددها شيئاً فشيئاً لأن هذا الاختيار يحدد للمرء اتجاهاً معيناً في حياته ، بحيث يكون من العسير تبديله دفعة واحدة لرسوخ العادة . ومع ذلك فإن هذا الاختيار لا يعدم جملة لدى الإنسان العادي ، الذي تتوفر لديه شروط التكليف .

وقد أخذ توماس الأكويني هذه النظرية الفئدة عن فيلسوف قرطبة ، وقال مثله وبألفاظ تكاد تكون هي ألفاظه : « إن الله أعطانا حرية الاختيار ، ولكن هذه الحرية قوة غير محدّدة . وهكذا يهب الله الإنسان الإرادة ، ولكن هذه الإرادة غير محدّدة . إنما يستطيع المرء بعد التفكير والتأمل أن يصمم على اختيار أمر دون آخر . » (١) وقد ظن جليسون الذي عرض هذه النظرية في كتابه عن توماس الأكويني أنها من صنع فيلسوفه ، وغاب عنه أن يرجع إلى ما كتبه ابن رشد حتى يعلم مصدرها ومنبعها ، وأنها في الواقع محاولة جدّية للتوفيق بين آراء إسلامية .

ومما يدل على تقليد هذا للفكر المسيحي أنه تبع خطأ أبي الوليد في مسألة فرعية ، وهي أن هناك اعتراضاً يمكن توجيهه إلى نظرية القضاء والقدر ، وأنه يمكن الرد على هذا الاعتراض . ويان ذلك أن فيلسوف قرطبة عضد رأيه السابق بأن

أشار إلى شبهة أو اعتراض قد يثيره هذا الرأي ، ثم أجاب على هذا الاعتراض إجابة تتفق مع ما جاء به الشرع ، وبما يوجه العقل أيضاً .

أما الاعتراض فيمكن تفريره على النحو الآتي :

إذا سلمنا بوجود أسباب طبيعية فمضى ذلك أننا نسلم بوجود أسباب فعالة إلى جانبه تعالى . فكيف يمكن التوفيق إذن بين النظرية التي تنص على تأثير الأسباب الطبيعية وبين العقيدة التي أجمع عليها المسلمون ، وهي أنه لا فاعل إلا الله سبحانه ؟ وأما الجواب على ذلك فذو وجهين :

أولاً : يمكن القول بأن الأسباب الطبيعية لا تؤثر إلا لأن الله أودعها قوة التأثير . فعلى هذا الاعتبار لا يكون استخدام لفظ السبب بمعنى واحد بالنسبة إلى الله وإلى تلك الأسباب ؛ لأنه هو الفاعل حقيقة عند ما يخلق الموجودات جميعها وما يترتب عليها من نتائج . وإنما سميت الأسباب التي يسخرها أسباباً على سبيل المجاز إذ كان وجودها إنما هو به وهو الذي صيرها موجودة أسباباً ؛ بل هو الذي يحفظ وجودها في كونها فاعلة ، ويحفظ مفعولاتها بهـ فاعلها ، ويخترع جواهرها عند اقتزان الأسباب بها ، وكذلك يحفظها هو في نفسها ، ولولا الحفظ الإلهي لها لما وجدت زماناً مشاراً إليه ، أعنى لما وجدت في أقل زمان يمكن أن يدرك أنه زمان . (٤)

هذا هو الجواب الأول على الاعتراض ، وهو الجواب الذي لم يتورع توماس الأكويني عن ادّعائه لنفسه حتى يبدو في نظر أبناء ملته وفي نظر مؤرخي الفلسفة للسيجية من أمثال جليسون فيلسوفاً مبتكراً أصيلاً . أما كيف أخذ رأيه ومنهجه عن أبي الوليد فذلك أنه بدأ بوضع الاعتراض ثم أخذ يجيب عليه بنفس الإجابة . وليس ثمة مجال للشك في أنه مقلد . ونحن لا نلقى القول على عواهنه ؛ بل نقوى

رأينا بديل ترك للمدافعين عن توماس الأكويني مشقة هدمه وبيان فساده ، إن جاز أن يتصدى أحدهم للرد علينا يوماً ما . وهذا الدليل هو أن ابن رشد ناقش في كتابه مناهج الأدلة مثالا لأبي حامد النزالي وهو مثال الكاتب والقلم ، فذكر أن أبا حامد يقول : « إن مثال من يشرك سبباً من الأسباب مع الله تعالى في اسم الفاعل والفعل مثال من يشرك في فعل الكتابة القلم مع الكاتب ، أى كما أن اسم الكتابة مقول باشتراك الاسم عليهما ، أعنى أنهما معنيان لا يشتركان إلا في اللفظ فقط وهما في أنفسهما في غاية التباين ؛ كذلك الأمر في اسم الفاعل ، إذا أطلق على الله تعالى وتبارك وإذا أطلق على سائر الأسباب . » ثم قال أبو الوليد إن في هذا المثال تساعاً وقياساً مع الفارق لأن الكاتب لا يعد فاعلاً حقيقياً إلا إذا كان هو الذى يخترع جوهر القلم ويحفظ الكتابة إلى الأبد . فشان القلم هنا هو شان الأسباب الطبيعية ، لأن هذه الأخيرة مسخرة وتؤدى إلى نتائج محددة بيد أنها لا تخلق جواهر الأشياء . فلما وقع توماس الأكويني على هذا المثال أعجبه ولم يتردد في استعارته . ولم يبتكر فيه شيئاً سوى أن حور فيه قليلاً ؛ فبدلاً من أن يشير فيه إلى الكاتب والقلم أشار إلى الخطاب وإلى فأسه التى يقطع بها الخشب . لكن هذا الخلاف يسير ولا أهمية له ولا وزن مادام المقصود بالمثال المقارنة بين الأسباب الطبيعية التى تعد أسباباً على سبيل المجاز وبين الله سبحانه الذى هو السبب الحقيقى وحده . فالأمر الذى لا خلاف فيه لدى توماس الأكويني هو ما قرره ابن رشد من قبل ، وهو أن الله هو الذى يخلق جواهر الأشياء وماهياتها وهو الذى يحفظ وجودها دائماً . وتلك هى نظرية الخلق المستمر التى ينسبها جسون خطأً أو تجاهلاً إلى توماس الأكويني ، مع أنها مأخوذة عن فيلسوف قرطبة ، كما يتبين من النص السابق الذى أوردناه منذ قليل ، وكما يتضح من نصوص أخرى كثيرة يجدها من يريد في كتاب مناهج الأدلة . ولكن ماذا نقول ، في قوم يأبون إلا أن ينسبوا إلى أنفسهم آراء الآخرين في جرأة ما بعدها جرأة ؟

ثانياً : أما الوجه الثانى في الإجابة على الاعتراض السابق فهو أن الأسباب

الطبيعية لا يمكن أن تؤثر في مسبباتها إلا بإرادة الله وإذنه ، وأن وجود هذه الأسباب دليل على وجود السبب الأوحد الخالق ، بدلا من أن يكون منافياً للجلالة وعظمته . فهؤلاء الذين ينكرون الأسباب الطبيعية لا يفعلون أكثر من تكذيب الحس والعقل معاً ، وهم يهدمون العلم والفلسفة قبل أن يهدموا الدين : « أما الحس والعقل فإنه يرى أن ها هنا أشياء تتولد عنها أشياء ، وأن النظام الجارى في الموجودات إنما هو من قبل أمرين : أحدهما ما ركب الله فيها من الطبايع والنفوس ، والثاني من قبل ما أحاط بها من الموجودات من خارج . » ولذا فإذا أنكر الأشاعرة وجود الأسباب الطبيعية هدموا أفضل البراهين على وجود الله . وهنا نجد دليلاً جديداً على معرفة توماس الأكويني لهذه النظرية الرشدية معرفة تفصيلية ، أى معرفة المقلد لقيمة ما يقلد ؛ وذلك لأنه لا ينسى في هذه المرة أيضاً أن يدعى لنفسه هذا الجواب الثانى . فنحن نراه يتبع ابن رشد خطوة بخطوة فيقول أولاً بأن الأسباب الطبيعية لا تؤثر إلا بإذن السبب الأول ، ثم يستطرد بطبيعة الحال كما استطرد فيلسوفنا من قبل فيقول : إن إنكار وجود الأسباب في العالم الحسى إنكار لأحد براهين وجود الله . ولعله لم يقل أفضل البراهين لأنه ما زال متأثراً ببرهان التفرقة بين الماهية والوجود ، ذلك البرهان الذى يدين به لفيلسوف مسلم آخر هو الرئيس ابن سينا . ونعتقد أنه لو استطاع التخلص من تأثير هذا الفيلسوف ، أو لو فطن إلى ما بين هذين البرهانين من تناقض ، لتبع ابن رشد في القول بأن إنكار وجود الأسباب الطبيعية جحود لأفضل براهين وجود الله . ومع ذلك فقد تبع فيلسوفنا بقدر ما استطاع عندما قال : « إنه لما كانت هناك أسباب في الطبيعة فإننا نستطيع الصعود شيئاً فشيئاً حتى السبب الأول ، وهو الله . ولو كان الكون مجرداً من الأسباب الثانية لأصبح أظهر دليل على وجود الله مستحيلاً . » فهذا الاتفاق العجيب في تحديد الاعتراض وفي اختيار طريقين للرّد عليه ، وفي استعارة الأثلة ،

وفي الاستطراد أيضاً ، دليل على مقدار تأثير فلسفة ابن رشد في تفكير توماس الأكويني . وإذا كان هذا الاتفاق المريب لا يشير لدينا عجباً ألبتة ، فذلك لأننا إذا سألنا « جلسون » الذي يجد توماس الأكويني قتلنا : من هم الخصوم الذين يدحض فيلسوفك آراءهم بمثل هذه المهارة والدقة ؟ أجابنا بأنه يريد دحض آراء المتكلمين . ويقول « جلسون » ذلك جاداً ؛ أما نحن فنستمع إليه مشفقين ؛ لأنه لم يفتن إلى أن الخصوم الذين يحاربهم توماس الأكويني — فيما يزعم ويزعمون — هم خصوم ابن رشد أيضاً !

## ٤ — العدل والجور

وهذه أيضاً من مسائل الخلاف بين أشهر الطوائف والفرق الإسلامية . فإن المعتزلة سلكت في حلها سبيلاً معروفاً كان سبباً في أن أطلقوا على أنفسهم اسم أهل العدل ، كما قالوا إنهم هم أهل التوحيد . أما سبب هذه التسمية الأخيرة فذلك راجع إلى موقفهم في مسألة الصفات التي أشرنا إليها فيما مضى . فهم على طرفي نقيض مع الأشاعرة فيما يخص الصفات الآلهية ؛ وذلك لأنهم يرون أنها هي الذات . أما تسميتهم بأهل العدل فذلك لأنهم يقولون إن أفعال الله تعالى كلها عدل ولا جور فيها . وقد بنوا على هذه الفكرة كثيراً من نظرياتهم الدينية : مثلاً ذلك أنه يغلب عندهم الرأي القائل بأنه من المحال أن يكتب الله الفناء لجميع مخلوقاته حتى يبقى وحده كما كان موجوداً وحده قبل خلقها ، وذلك لأن هذا الفناء يتناقض مع عدله . وقد فصلوا الأمر هنا فقالوا : من المحال أن يكون فناؤها جزئياً ، بمعنى أن يفنى بعضها ويبقى بعضها ، كذلك لا يعقل أن تفنى فناء كلياً أي تندثر جميعها . أما أنها لانفنى فناء جزئياً فلأن الوجود نعمة أسبغها الله على مخلوقاته ، فكيف يمكن أن يسترد الله سبحانه هذا الفضل من بعض الكائنات ولا يسترده من الكائنات الأخرى ؟



أما أنها لا تنفى جميعها فذلك لأن الفناء المطلق يتعارض مع فكرة العقاب والثواب الأبديين . وفي جملة القول يعتقد المعتزلة أن أفعال الله كلها عدل وأنه يفعل الأصلح دائماً .

لكن الأشاعرة - ومعهم الغزالي - يرفضون حجج المعتزلة ويرون أنه ينبغي التفرقة هنا بين عالمي الغيب والشهادة . فأفعال الإنسان توصف بالعدل والجور لأن الشريعة هي التي تحدد هذه الأفعال وتبين أن الإنسان إذا فعل شيئاً يحكم الشرع بأنه عدل كان فعله يجرى على سنن العدل ، وإذا ارتكب فعلاً ينص الشرع على أنه جور كان جوراً وشراً . وهذا هو السبب في أن كل إنسان ليس أهلاً للتكليف لا توصف أفعاله بأنها عدل أو جور؛ بل يقال إن أفعاله كلها عدل . فالأساس الذي بنى عليه الأشاعرة مذهبهم ينحصر في أنه لا وجود في هذا العالم لأشياء تعتبر عدلاً أو جوراً في ذاتها؛ لأن مناط التفرقة بين هذين الأمرين هو النصوص الشرعية .

وقد نقد الغزالي رأى المعتزلة نقداً ساخراً في كتابه القسطاط المستقيم . فذكر أن هؤلاء قد انتهوا إلى نتائج لا يقبلها العقل عند ما لم يفرقوا بين عالم الغيب والشهادة . فهم يقولون مثلاً إن الله يفعل الأصلح لعباده ما دام أهل الخير والعدل من الناس يفعلون ذلك فيما بينهم . وقد حددوا حججهم على هيئة قياس هو :

الحكيم هو الذي يفعل الأصلح

الله حكيم

∴ هو يفعل الأصلح

ولكنهم لا يحسنون معرفة طرق المنطق السليم؛ إذ لو كانوا على علم بها لقرروا رأياً آخر بأن يقولوا :

لو كان الأصلح واجباً على الله لفعله

ومعلوم أنه لم يفعله

∴ فهو غير واجب عليه

وليس في وسعهم أن ينكروا أن الله لا يفعل الأصلاح دائماً؛ إذ لو كان يفعل لوجب، على حد زعمهم ، ألا يطرد آدم وزوجه من الجنة . فلما أمر بهبوطهما كان ذلك دليلاً على عكس ما يرون ؛ إذ ليس من العدل والأصلاح، حسب اعتقادهم ، أن يؤخذ الأبناء بجريرة الآباء . ويستمر الغزالي في سخريته من المعتزلة فيقول : وليس للمعتزلة أن يزعموا أنه من الأصلاح لهؤلاء الأبناء أن يقترفوا الخطايا في الأرض وأن يذهبوا ليكفروا عنها في النار ثم يعفو الله عنهم في نهاية الأمر ؛ إذ لو كان الأمر كما يقولون ، لكان عفوه عنهم منة والمنة ثقيلة لا تحتمل . ثم يضرب لنا أبو حامد مثلاً فيقول : إن الصبيان إذا ماتوا قبل أن يدركوا أو قبل أن يرتكبوا المعاصي فإنهم يحتلون في الجنة منزلة أدنى مرتبة من البالغين الذين آمنوا وعملوا عملاً صالحاً . فلو فرضنا أن جماعة من هؤلاء الصبيان احتجوا فقالوا : « إلهنا إنك لا تبخل بالأصلاح لنا والأصلاح لنا أن تينلنا درجاتهم [ البالغين الصالحين ] فيقول الله ، على زعم المعتزلة ، كيف أبلغكم درجاتهم وقد بلغوا وتعبوا وأطاعوا ، وأتمم صبيانا ؟ فيقولون أنت أمتنا فحرمنا طول المقام في الدنيا ، ومعالي الدرجات في الآخرة فكان الأصلاح لنا والأصلاح بنا أن تبلغنا درجاتهم وألا تميئتنا ، فلم أمتنا ؟ فيقول الله تعالى ، على رأى للمعتزلة ، إني قد علمت أنكم لو بلغتكم لكفرتم واستحققتم النار خالدن فيها ، فعلمت أن الأصلاح لكم الموت في الصبا . وعند هذا ينادى الكفار البائسون من دركات النار يستصرخون ويقولون : أما علمت أنا إذا بلغنا كفرنا ؟ فهلا أمتنا في الصبا فإننا راضون بعشر درجات الصبيان ؛ فعند هذا لا يبقى للمعتزلي جواب يجب به عن الله تعالى ، فتكون الحججة للكفار على الله سبحانه تعالى عن قول الظالمين علواً كبيراً . »

وإذن يرى الأشاعرة — وينصرهم الغزالي في ذلك على المعتزلة — أن الله سبحانه ليس مكلفاً باتباع الشريعة التي يضعها لعباده . ولذلك فإن أفعاله لا توصف بأنها عدل أو جور . وبناء على هذا الرأي لا يجوز القول بأنه من الواجب أن يفعل الله سبحانه الأصلاح . فله أن ينفى العالم أو يبقيه ، وليس الله سبحانه مكلفاً بإثابة المطيع

أوعقاب المذنب ؛ بل له الملك كله يفعل فيه مايشاء « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »  
فلقد وهم المعتزلة عندما قالوا إن أفعال الله كلها عدل لا جور فيها ؛ إذ لو كان الأمر  
كما يقولون لماجاز أن يعذب الحيوان البرى من غير ذنب ، وإلا وجب على الله سبحانه  
أن يحشره يوم القيامة ، لكي يعوضه بالثواب عما لحقه في هذه الحياة الدنيا من عذاب  
وأذى حسبما يقتضيه العدل . وليس بصحيح أنه من الظلم ألا يعاقب المسمى ، وألا يثاب المطيع .  
لقد احتج المعتزلة لرأيهم هذا بقوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » . وحقيقة لا معنى  
للظلم بالنسبة إليه تعالى لأن الظلم لا يوجد حقيقة إلا لمن يتصرف بغير حق فيما لا يملكه .  
ولله ملك السموات والأرض وما فيهن . وهو إلى جانب ذلك غير مقيد بشرع يفرضه  
عليه غيره . وإذن فمن العبث أن تتحدث عن الظلم في هذا المقام إثباتاً أو نفياً ؛ لأن  
الظلم لا يتصور إلا في الأفعال الإنسانية . وبالاختصار يرى الأشاعرة أن السبب  
في خطأ المعتزلة أنهم حاولوا للمثالة بين الله سبحانه وبين الإنسان ، وأنه كان أجدر بهم  
أن يقرروا ، على غرارهم ، أن أفعال الله لا توصف بأنها عدل أو جور .  
هذا هو مذهب الأشاعرة في خطوطه الرئيسية . وهو المذهب الذي لا يرتضيه  
ابن رشد ، لا لأنه من أنصار المعتزلة ؛ بل لأنه يجد أن كلا الفريقين لم يصب الحقيقة .  
وقد رأينا كيف سخر الغزالي من رأى الأولين ، وسنرى الآن كيف يسلك فيلسوفنا  
مسلك الجاد في نقد الأشاعرة ، دون أن يقع بسبب ذلك فيما وقع فيه المعتزلة من  
تشبيه عالم الغيب بعالم الشهادة .

أما أن الأشاعرة لم يدركوا وجه الصواب في هذه المسألة فهذا ما يوضحه فيلسوف  
قرطبة بقوله : إن رأيهم غريب في الشرع والعقل معاً ؛ لأنه في غاية من الشناعة التي  
لا يقرها دين ولا منطق . فكيف لمؤلاء أن يقولوا بأنه لا وجود لأشياء هي خير  
أو شر في ذاتها ؛ لو كان قولهم صحيحاً ، ولو كان الشرع هو الذي يخلع على الأشياء  
صفات ليست فيها ، لجاز أن الشرك لا يكون شراً وجوراً في ذاته ؛ وإنما يوصف  
بهذين الوصفين بسبب تحريم الشرع له ، بحيث لو فرضنا جدلاً أن الشرع جاء ينادي

بالشرك بالله لا تقبلت طبيعته مباشرة وأصبح خيراً وعدلاً . زد على ذلك أن النصوص الشرعية جاءت على خلاف رأى الأشعرية . فقد جاء في القرآن الكريم آيات يصف الله فيها نفسه بالعدل وذلك على نحو لا يحتمل معه تأويلها . فمن هذه الآيات قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فلبيها وما ربك بظلام للعبيد »<sup>(١)</sup> و « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »<sup>(٢)</sup> وقوله عز وجل : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون »<sup>(٣)</sup> وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »<sup>(٤)</sup> وقوله : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . »<sup>(٥)</sup>

لكن قد يحتج بعضهم بآيات أخرى ، لكي يبرهن على أنه من الجائز أن ينسب الظلم إليه سبحانه كقوله : « يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء »<sup>(٦)</sup> وقوله : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . »<sup>(٧)</sup> فإن مثل هذه الآيات تشهد في صالح رأى الأشعرية ؛ لأنها توحى بأن أفعال الله سبحانه لا توصف بأنها جور أو عدل ؛ لأنها لا تشبه الأفعال الإنسانية ، ولو كانت جوراً بحسب رأينا . فليس لنا أن نقارن بينها وبين أفعال الإنسان ؛ لأن الله ليس مكلفاً بشرع يحدد له الخير والشر بله الملك يتصرف فيه كما يشاء . دون أن يوصف عمله بالظلم . غير أن هذا الاعتراض مردود عليه سلفاً بأن الله لا يحب الظلم ، وأنه لا يرضى لعباده الكفر . فإذا كان لا يرضى لهم الكفر وجب أن نعترف بضرورة تأويل مثل هذه الآيات التي توهم نسبة الظلم والإضلال إليه . أما « ماتقوله الأشعرية من أنه يجوز على الله أن يفعل ما لا يرضاه أو يأمر بما لا يريده فنعموذ بالله من هذا الاعتقاد في الله سبحانه ، وهو كفر . وقد يدل ذلك على أن الناس لم يضلوا ولا خلقوا

(٢) سورة آل عمران آية ١٨

(٤) سورة الأفعال آية ٥١

(٦) سورة إبراهيم آية ٤

(١) سورة فصلت آية ٤٦

(٣) سورة يونس آية ٤٤

(٥) سورة النساء آية ٤٠

(٧) سورة السجدة آية ١٣

للضلال قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » وقوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الآية وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة الح » (١) .

ومن رأى ابن رشد أنه يجب تأويل كل الآيات التي توهم أن الله يريد إضلال خلقه . ذلك لأن هذه الآيات لا تدل على أن الله يريد الشر لبعض عباده وإنما على أنه خلق الناس وفيهم استعداد لكل من الخير والشر . فقد اقتضت حكمته أن بعض هؤلاء سوف يتجه إلى الشر . « فإن قيل فما الحاجة إلى خلق صنف من المخلوقات يكونون بطباعهم مهيبين للضلال وهذا هو غاية الجور . قيل إن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك . . . فلم يكن بد بحسب ما تقتضيه الحكمة من أحد أمرين : إما ألا يخلق الأنواع التي وجد فيها الشر في الأقل والخير في الأكثر فيعدم الخير الأكثر بسبب الشر الأقل ، وإما أن يخلق هذه الأنواع فيوجد فيها الخير الأكثر مع الشر الأقل . ومعلوم بنفسه أن وجود الخير الأكثر مع الشر الأقل أفضل من انعدام الخير الأكثر لمكان وجود الشر الأقل . وهذا السر من الحكمة هو الذي خفي على الملائكة حين قال الله سبحانه حكاية عنهم حين أخبرتم أنه جاعل في الأرض خليفة ، يعنى آدم : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك » إلى قوله . (إني أعلم ما لا تعلمون) . ومعنى ذلك في نظر ابن رشد أن الله إذا خلق أسباب الضلال في فطرة الإنسان فذلك لأنه يترتب عليها الاهتداء والخير أكثر من أن يترتب عليها الضلال والشر حقيقة .

لقد حاول الأشاعرة التفرقة بين عالم الغيب والشهادة هنا ، أى قالوا بأن أفعال الله لا توصف بأنها جور ولا عدل حتى يتجنبوا تلك المسألة الخطيرة وهي هل يخلق الله الشر كما يخلق الخير ؟ ولكن ابن رشد يرى أن الشك في خلق الأمرين جميعاً نوع من الابتداع بل الكفر لأننا إذا أنكرنا أنه يخلق أسباب الضلال كما يخلق أسباب الهداية كان معنى ذلك أننا لا نعترف بقدرته تعالى في جزء لا بأس من

الحليقة ، مع أنه أولى بنا أن نقول إنه الله يخلق الشر من أجل الخير . ومن الضروري أن تتأول النصوص القرآنية على هذا الأساس بل يبيح أبو الوليد التصريح بالتأويل للجمهور: «وذلك أنهم احتاجوا أن يرسفوا بأن الله تعالى هو الموصوف بالعدل وأنه خالق الخير والشر لمكان ما كان يعتقد كثير من الأمم ... أن ههنا الهين : إلهاً خالفاً للخير وإلهاً خالقاً للشر ففرقوا أنه خالق الأمرين جميعاً ؛ . . . لكن ليس ينبغي أن يفهم هذا على الإطلاق . لكن على أنه خالق للخير لذات الخير وخالق للشر من أجل ما يقترن به من أخير فيكون على هذا خلقه للشر عدلاً منه . » ثم مثل أبو الوليد لذلك بمثال النار: فإن لها مساوىء وشروراً؛ عديدة بيد أن هذه المساوىء كلها لا قيمة لها ولا خطر بجانب ما يترتب عليها من النفع . وقد قيل في الأمثال ورب ضارة نافعة وقال أحكم الحاكمين: «وعسى أن تسكرها شيئاً وهو خير لكم .» ونجمل القول في رأى أبي الوليد حين نرى أنه لم يشأ أن يتبع الأشاعرة الذين لم يجرؤوا على مجابهة مشكلة خلق الشر . كذلك لم يشأ أن يسلك مسلك المعتزلة حين ينسبون العدل إلى الله تعالى على النحو الذى ينسبونه إلى الإنسان ؛ إذ لو كان حقاً ما يقول الأشاعرة لكان معنى ذلك أنه ليس ثمة شئ في العالم يمكن أن يوصف بأنه خير أو شر في ذاته ؛ ولو صح ما يقول المعتزلة لوجب أن ننكر البدهة نفسها، وهى أن هذا العالم لا يخلو من شرور . فإذا كان الله عادلاً فليس ذلك لأنه في حاجة إلى ذلك ؛ بل لأن كمال ذاته يقتضى أن يكون عادلاً .

وقد استطاع توماس الأكويني أن يفطن إلى وجهة هذا الرأى وانفاقه أتم انفاق مع تقديس الله وتنزيهه عن كل نقص فارتضاء لنفسه . لكنه لم ينته إلى قبول رأى فيلسوفنا إلا بعد أن طال تردده وبعد أن عجز عن العثور على رأى اسلامى يفضلته لدى الفلاسفة أو المتكلمين . لذلك نراه يحتج مثل ابن رشد احتجاجاً عنيفاً ضد هؤلاء الذين يقولون إن الله لا يخلق الشر ويتهممهم ، على غرار فيلسوفنا ، بأنهم يتجهون بذلك إلى التسليم بوجود إلهين: أحدهما يعد مبدأ للخير بينما يعتبر الآخر

مبدأ للشر . (١) كذلك نلمح لديه نوعاً من التفاؤل الذى قلنا بوجوده عند أبى الوليد ؛ فإنه يتبعه خطوة بخطوة ويشرح مثله تماماً وبنفس الأمثلة كيف أن نظام العالم واتساقه يتطلبان وجود شر قليل إلى جانب خير كثير . (٢) فهو يقول مثلاً : « لكن نظام العالم يقتضى - كما سبق أن علمناه - أن تكون بعض الأشياء ناقصة . وإذن فإله [ سبحانه ] سبب الفساد والنقص في جميع الأشياء ولكن ذلك فقط كنتيجة لأنه يريد الخير والنظام للكون ، وكما لو كان ذلك بصفة عارضة . » (٣) وطبعى أن توماس الأكوينى يبرر رأيه هذا بما سبق أن برره به ابن رشد ، أى بتلك التفرقة الشهيرة بين عالم النيب وعالم الشهادة . حقيقة تقتضى طبيعة اللات الإلهية أن تكون أفعالها عادلة وإن بدا بعضها بظهور الضرر أو الشر . وذلك على خلاف أفعال الإنسان التى قد تكون عادلة أو جائرة في جوهرها . كذلك تختلف الأفعال الإلهية عن الأفعال الإنسانية باعتبار غايتها . فإن الإنسان لا يكون عادلاً إلا لتحقيق سعاده الاجتماعية أو الأخروية . ومن الأكيد أنه يجاهد نفسه حتى يفعل الخير بدلا من الشر ، وأن هناك جانبا كبيراً من الخوف يحفزه إلى أن يكون عادلاً . أما الله سبحانه فلما كان يرثا من كل نقص فإنه لا يعدل سبحانه رغبة أو رهبة أو ضرورة ، كما هي الحال لدى الإنسان .

## ٥ - البحث

لم يخرج ابن رشد في هذه المسألة الأخيرة عن الاتجاه العام للدين الإسلامى . فهو يدحض رأى هؤلاء الذين ينكرون الحياة الأخرى وما تستتبعه من سعادة

De Substantiis separtis. Caput. 5.

(١)

Cont. gent. livre 111. c. 71.

(٢)

(٣) الخلاصة اللاهوتية الجزء الأول السؤال ٤٩ البند الثانى .

انظر أيضا كتاب جلسون : ( L Thomisme 214-220 )

وشقاء . وقبل أن نعرض لآرائه وبراهينه على خلود النفس لا نرى بأسا من أن نشير إلى الفرية الأخيرة التي نسبوها إليه . فقد زعم بعض مؤرخي الفلسفة ، وجلهم من المستشرقين أو من خصوم التفكير الإسلامى فى العصور الوسطى ، عصور الجهل والتعصب ، أن أبا الوليد ينكر خلود النفس ، فزعموا - وكثير عددهم - وما زالوا يزعمون فى غير حرج ، أن الشارح الأكبر لا يعترف بوجود حياة أخرى ، وأنه يعتقد أن فائدة الدين قاصرة على الحياة الدنيا ، أى أنه يتخذ ذريعة لحل الناس على كسب الفضائل وتجنب الرذائل فى حياتهم الاجتماعية ؛ فلا سعادة إذن إلا فى نطاق هذا العالم الراهن ، وأن هذه السعادة هى نوع من الاتصال الصوفى بالله سبحانه . وقد فضحنا أمرهم فى هذه التهمة أكثر من مرة فقلنا إن جهل تلاميذه الأعداء وحقن خصومه الأذكاء وتعصبهم كان سببا فى نشأة أسطورة غريبة عنه فى العالم المسيحى ثم تضخمت هذه الأسطورة ، ورسخت أصولها فى عقول مؤرخي الفلسفة المسيحية ، وفى تفكير كثير من المستشرقين بسبب التقليد أو الاعتماد على المبدأ القائل ببذل أقل مجهود ممكن . وصبح الكسل والتقليد أكثر قبولا لدى الإنسان إذا كانا يتفقان إلى حد كبير مع بعض آرائه المذهبية أو الوهمية . وعندئذ يسر عليه أن يفتن إلى فساد هذه الآراء ، وبخاصة إذا أخذها عن بعض من يظن أنهم أهل لأن يوثق بهم ؛ فيخيل إليه أن رأى السابقين رأى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم إذا تقادم العهد بهذا الرأى بدا فى أعين المقلدين أكثر جلالا وروعة . وإذا جاورت عاطفة الإعجاب بالقدماء عاطفة إنسانية أخرى وهى الرضا عن النفس لتقرير نظريات كبرى ، دون بذل أى مجهود أو عناء ، فمن العسير بعد ذلك كله أن تجتث الآراء الفاسدة من العقول التي نشفق عليها فلا نصفها بالغلظة ؛ بل بفقدان ملكة النقد ، والحرص على ألا تفتجح بتكذيب آراء متوارثة توضع موضع التقديس والعقيدة .

وإذا أراد هؤلاء - ومن تبع سبيلهم من الشرقيين - أن يدفعوا عن أنفسهم



تهمة التقليد فإننا نشير عليهم أن يرجعوا ، لو شاءوا ، إلى مسألة البعث في نهاية كتاب تهافت التهافت وفي نهاية كتاب مناهج الأدلة . ولو رجعوا إلى ما نشير إليه لعلموا أنه من اليسير أن يضع المرء حدا لهذه الأسطورة ، وأن يقضى على هذه الفربة التي تدعو إلى السخرية من موجهيها ؛ إذ لو قرأوا ما كتبه ابن رشد في البعث لأدركوا أن هذا الفيلسوف نفسه قد أخذ على عاتقه أن يدحض سلفا كل التهم التي عزتها إليه أوروبا المسيحية : إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب . وليس من هدفنا هنا أن نعرض ألوان السباب والشتائم التي أمطروه بها ، أو أن نطيل الحديث عن تلك اللوحة التاريخية التي يمثلونها فيها وهو يلحق الرغام . ولن نقابل سبابا بسباب أو تحقيراً بتحقير مثله ؛ بل يكفي أن نمر مرور السكرام ، وأن نستخدم سلاحاً أقوى مما يستخدمون ، وهو أن نعرض آراء هذا الفيلسوف في البعث فإن هذا وحده كفيل بمحو هذه الأساطير . وربما أدى أيضاً إلى تحريك نفوس المنصفين من مؤرخي الفلسفة المسيحية إلى نقض أيديهم من التقليد ، وإلى بذل مجهود أكبر مما بذلوا . وعلى كل فإننا نعتقد أننا فعلنا ما ينبغي أن نفعل .

لقد ذهب « مونك » و « رينان » إلى القول بأن فيلسوف قرطبة كان ينكر خلود نفوس الأفراد ، وأدعي أولهما أنه عثر على نص في كتاب تهافت التهافت . لكن لا وجود لهذا النص في النسخة العربية . وقال ثانيهما إنه يعتمد على نص في كتاب النفس . غير أننا لم نعثر لهذا النص على أثر . (١)

وعلى عكس ذلك نجد أن ابن رشد يعترف في الكتاب الذي ألفه لنقض آراء الغزالي فيقول : « وما يقوله هذا الرجل جيد ولا بد في معاندتهم أن توضع النفس غير فانية كما دلت عليه الدلائل العقلية والشرعية ، وأن توضع أن التي تعود هي أمثال هذه الأجسام التي كانت في هذه الدار لا هي بعينها ؛ لأن المعدوم لا يعود

---

(١) أنظر هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا : « في النفس والمقيل لفلاسفة الإغريق والإسلام » .

بالشخص . « فإذا نحن عدنا إلى كتاب آخر له وهو مناهج الأدلة وجدناه يبرهن على هذا الخلود ببرهانين ، يعرف أولهما بالبرهان الثأى ، ويقوم الثأى منهما على بيان طبيعة الصلة بين النفس والجسم .

أما البرهان الأول فيتلخص فى أن الله لم يخلق الكائنات عبثاً ؛ بل للحكمة وغاية . والإنسان أحد هذه المخلوقات . فما الحكمة فى وجوده ؟ إنها تنحصر فى أن يدرك الكمال فى العلم والفضيلة ، وليس ذلك ممكناً فى الحياة الدنيوية لأنها عابرة . فلا بد إذن من التسليم بأن هناك حياة أخرى يلقى فيها جزاء ما بذله من جهد لإدراك الكمال فى هاتين الناحيتين . فإذا أدركه الموت وكانت نفسه طاهرة زكية تضاعف طهرها وزكاؤها . وإذا كانت خبيثة زادت خبثاً على خبثها ؛ « لأنها تتأذى بالذائل التى اكتسبت وتشتد حسرتها على ما فاتها من التزكية عند مفارقتها البدن ؛ لأنها ليس يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن ، وإلى هذا الاشارة بقوله : « أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت من الساخرين » . فهذا البرهان عقلى وشرعى معاً . وهو نفس البرهان الذى اهتدى إليه أفلاطون بلفظته السليمة وقريحته العبقرية عندما رأى أنه لا بد من الحياة الآخرة حتى تتحقق الغاية من هذه الحياة الدنيا ، وحتى ينال الأشرار جزاءهم والخيرون ثوابهم ؛ فإنه « لو لم تكن النفس خالدة لما بدا لنا الظلم أمراً مريعاً ، ولوجب أن ينظر المرء بعين الرثاء والإشفاق إلى هؤلاء الذين يقاسون الفقر والجهل والمرض ، وجميع صنوف العذاب فى هذه الحياة الدنيا من أجل الفضيلة والعهد . ولو كان حقاً أن الإنسان يفنى جسداً وروحاً لما كان أسعد طالع الأشرار حين يدركهم الموت ؛ إذ سوف يتحررون حينئذ من أجسامهم ، ونفوسهم وشرورهم أيضاً ! »

ولا شك في أن هذا البرهان يفوق براهين فلاسفة الاسلام في هذه المسألة لأنهم اعتمدوا على طريقة الجدل التي ألقاها منهم في بقية المسائل الأخرى . (١)

وأما البرهان الثاني فأساسه أن النفس جوهر مستقل بذاته . ولذا لا يضرها أن يندثر الجسم ؛ ولا يترتب على فنائه ضرورة فنائها . وقد بين أبو الوليد بن رشد أن الموت يشبه النوم في أنه تعطيل مؤقت للحياة تعود بعده النفس إلى حياة أخرى . وهذا يتفق مع ما جاء به الشرع كقوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » ووجه الدليل في هذه الآية هو « أنه سوى فيها بين النوم والموت في تعطيل فعل النفس » وهذا التعطيل لا يرجع إلى فساد في جوهرها وإنما لفساد البدن الذي كانت تتخذه أداة في المعرفة عن طريق الحواس والخيال .

\* \* \*

إن فيلسوف قرطبة لم يكن يلهو ويلعب بالبرهنة على هذه العقيدة كما يخيّل إلى جوتيه ، كذلك لم يكن متعلقاً أو مدهاناً ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما أجهد نفسه في العثور على براهين عقلية غير تلك التي اهتدى إليها ابن سينا والغزالي من قبل ، أو لا اكتفى ببرهانه الأول ؛ لأن الجمهور يسلم دون عناء بضرورة العودة بعد الموت لكي تلتقي النفوس جزاءها . لكنه لا يكتب للجمهور ، ولا يتعلق أحداً ، وإنما يبرهن على صدق العقائد الاسلامية للخاصة من الناس . أي للذين يجمعون بين الايمان والعلم . حقاً إنه اعتمد أحياناً على بعض ما جاء في فلسفة أرسطو . ومع هذا فإنه لا يمحو شخصيته في شخصية الفيلسوف الإغريقي ، ولا يتعبد بأرائه كما زعم بعض المعرضين . فقد رأينا كيف يتنكر لهذه الفلسفة في كثير من المواطن وأقربها

---

(١) انظر هذه البراهين في كتاب النفس والعقل ، الطبعة الثانية من ص ١٥٥

عهداً مسألة البعث والخلود . فإن أرسطو كان ينكر استقلال النفس عندما رأى أنها تتحد اتحاداً جوهرياً بالبدن فتؤلف معه شيئاً أو جوهراً واحداً هو الإنسان بحيث إذا فسد البدن كان من الضروري أن تفسد النفس وتمحي معه . وقد أنكر أبو الوليد على أرسطو هذا الرأي وحول آراءه الأخرى تحويراً عميقاً على نحو لا نجد المجال للحديث عنه في هذا المكان .

وتقول نقائمة لهذا الكتاب : إن كثيراً من مؤرخي الفلسفة ، إن في الغرب وإن في الشرق ، قد أساءوا إلى فيلسوفنا بقدر ما استطاعوا ، وأحياناً بقدر ما جهلوا من آرائه الصحيحة ، وقد حاولنا قدر طاقتنا ، وفي حدود الحق وما نعلم من فلسفته ، أن ندفع عنه شرهم وجهلهم ؛ نريد بذلك وجه الله وحده .

---

# فهرس

صفحة

الفصل الأول [ من صفحة ٤ إلى صفحة ١١ ]

تمهيد تاريخي

الفصل الثاني [ من صفحة ١٢ إلى صفحة ٣١ ]

ترجمة حياة ابن رشد

- ١ - أسرته وأساتذته . . . . . ١٢-١٤
- ٢ - صلته بابن طفيل . . . . . ١٤-١٧
- ٣ - مكانته في دولة الموحدين . . . . . ١٧-١٩
- ٤ - محنته وأسبابها . . . . . ١٩-٢٦
- ٥ - الجانب السياسي في حنة ابن رشد . . . . . ٢٦-٣١

الفصل الثالث [ من صفحة ٣٣ إلى صفحة ٥٥ ]

التوفيق بين الدين والفلسفة

- ١ - أسطورة ابن رشد في أوروبا المسيحية . . . . . ٣٣-٣٧
- ٢ - تأثير ابن رشد في فلسفة أوروبا . . . . . ٣٧-٤٣
- ٣ - أصالة ابن رشد . . . . . ٤٤-٥٥

الفصل الرابع [ من صفحة ٥١ إلى صفحة ٦٢ ]

بواعث البرهنة على العقائد

- ١ - الوجهة النظرية . . . . . ٥١-٥٥

- ٢ - الخلاف بين الفرق الإسلامية . . . . . ٥٥ - ٥٩  
٣ - ابن رشد فيلسوف عقلي مؤمن . . . . . ٥٩ - ٦٢

الفصل الخامس [ من صفحة ٦٣ إلى صفحة ٨٦ ]

البرهنة على وجود الله

- ١ - أدلة أهل الظاهر . . . . . ٦٣ - ٦٧  
٢ - أدلة الأشعرية . . . . . ٦٧ - ٧٥  
٣ - أدلة الصوفية . . . . . ٧٦ - ٧٩  
٤ - أدلة ابن رشد . . . . . ٧٩ - ٨٦

الفصل السادس [ من صفحة ٨٧ إلى صفحة ١١١ ]

الوحدانية والصفات

- ١ - الوحدانية . . . . . ٨٧ - ٩٤  
٢ - الصفات الإلهية . . . . . ٩٤ - ١٠٥  
٣ - الصلة بين الذات الإلهية وصفاتها . . . . . ١٠٥ - ١١١

الفصل السابع [ من صفحة ١١٢ إلى صفحة ١٢٨ ]

مخالفته تعالى للحوادث

- ١ - الجسمية . . . . . ١١٣ - ١١٧  
٢ - الجهة . . . . . ١١٧ - ١٢٤  
٣ - الرؤية . . . . . ١٢٤ - ١٢٨

العالم والإنسان

١٢٧-١٢٩	.....	١ - خلق العالم
١٤٢-١٣٧	.....	٣ - بعث الرسل
١٥١-١٤٢	.....	٣ - القضاء والقدر
١٥٨-١٥١	.....	٤ - العدل والجور
١٦٣-١٥٨	.....	٥ - البعث

# سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة المساعد بجامعة القاهرة

---

---

أسماء الكتب التي ظهرت من هذه السلسلة :

١ - المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي  
مع مقدمة في منطق التصوف

للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود  
بكلية أصول الدين بالأزهر

٢ - فلسفة ابن طفيل ورسائله « حى بن يقطان »

للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود

٣ - الفيلسوف المفترى عليه « ابن رشد »

للأستاذ الدكتور محمود قاسم  
بجامعة القاهرة





# مکتبۃ لسان العرب

ا. علاء الدین شوقی

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)



الثنیٰ ۱۷

